
رواية
مكتبة ياسمين
ديزي جونسن
المَكنُون
ترجمة: عماد العتيلي

تجلسين مُتحجِّرةً جُلّ الوقت في كُرسيِّكِ تتأمّلينني. بتِّ مُصابة بحالة شديدةٍ من التهاب الجِلد في يديكِ لم تكوني مُصابةً بها قطّ، حتّى إنّكِ تحكّين يديكِ بأسنانكِ. أحاول أن أريحَكِ، ولكنّكِ -ما تذكّرتُ هذه الخصلةَ فيكِ إلا الآن- تجدينَ الراحة تعَباً. ترفضين الشايَ الذي أجلبه لكِ، وترفضين تناول الطعام، وترفضينَ شربَ الماء إلّا قليلاً. تنهالينَ عليّ ضرباً، حينَ أقترب منكِ، بالوسائد. ‹كفاكِ! لا تلاطفيني! اتركي ذلك!›. فأفعَل كما تشائين. أجلسُ إلى الطاولة الخشبية الصغيرة قبالتكِ في كرسيِّكِ، وأنصِتُ إلى حديثِكِ. لديكِ قوّة احتمالٍ رهيبة تُبقينا مستيقظتَين ليالٍ بلا استراحة. أحياناً تقولين: ‹إنّي ذاهبة إلى الحمّام› وتنهضين من كرسيِّكِ، كما تنهضُ النائحةُ من جانب قبرٍ، نافضةً بيديكِ غباراً خفيّاً عن سراويلِكِ الذي أعَرتكِ إيّاه. ‹إنّي ذاهبة الآن› تقولين دانيةً من السلالم بوقار، ثُمّ تلتفتين إليّ كأنّك تقولين إنّكِ لن تقدري على إكمال المسير بدوني، فهذه ليست قصّتي ولذلكَ كان لزامًا عليّ الانتظار حتّى تعودي إليّ. تُخبرينني، في منتصف الطريق صعوداً السلالِم، أنّ على المرء التّسليم بأخطائه والتعايشَ معها. أفتحُ أحدَ الدّفاتر التي اشتريتُها وأسجِّلُ فيه كُل شيءٍ أتذكّره. تبدو كلماتُكِ مُسالمةً على الورق، كأنّها منزوعة الفتيل.



لم أفتأ أفكّرُ في أثرِ ذكرياتِنا، أيظلُّ باقياً كما هوَ أم يتغيّر كُلّما أعَدنا كتابةَ تلك الذكريات بمرورِ الوقت. أذِكرياتُنا راسخة كالبيوت والمنحدرات، أم سريعةُ التقوُّض والاستبدال والتمَوُّه. إنَّ كلَّ ذكرياتِنا تُنقَل، وتُستذكَر، فلا تعودُ مماثلةً لحقيقتِها التي كانت. وذلكَ يُثقِلُني ويؤرّقني: أنّي لن أتيقّن أبداً ممّا حدث.

مكتبة ياسمين



9 789933 635299

ديزي جونسن

المَكنُون





Author: **Daisy Johnson**

Title: **Everything Under**

Translated by: **Emad Al-Attili**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2023**

اسم المؤلف: ديزي جونسن

عنوان الكتاب: المَكنُون

ترجمة: عماد العتيلي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 · +964 (0) 780 808 0800 · +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 · +961 706 15017 · +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 · +963 11 232 2275 · +963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

كلمة المُترجم

ذكرى، ولُغَة، ونبوءةٌ، وأسطورة. حُلمٌ مُختلطٌ بيَقظةٍ، وخيالٌ بِواقع. وقصّةٌ متشعّبة الدّروبِ كشبَكةِ صَيد، ونَهرٌ في أحشائهِ رُعبٌ كامِنٌ، وصَدرٌ -كصَدَفةٍ- فيهِ سِرٌّ مكنون.

هذه روايةٌ عن القَدَر، المَحتوم، وعَن النّجوم التي تُخبِّئ دروبًا سنسلُكُها لا محالة. عن بساطةِ الإنسانِ ووداعتِه، وتعقيدِ المَجهولِ وشراسَتِه. عن فتاةٍ أهلكَتها نبوءة، وأعمَتها إبرةُ نورٍ دَهَمَتها مِن صوبِ الغَيب. عَن فتاةٍ أوديبيَّةٍ استحالَت إلى فتى *(وفتى استحالَ إلى فتاة)*، عن نهرٍ وقاربٍ.. وبوناك. *وما أدراكَ ما بوناك!* ألغازٌ أحداثُ هذه الرواية، وأبوابٌ مُقفَلةٌ كلِماتُها.. ولدى كُلِّ قارئٍ مِفتاح.

لا شكَّ في أنَّ هذه الروايةَ كانت من الروايات القلائل التي حبسَت أنفاسي في أثناءِ قراءتِها وترجمتِها، وعلَّقَتني بها مُدّةً بعدَما أنهيتُها. وكُلّي ثقةٌ من أنّها ستُحدِثُ ذات التأثير في كُلّ من يقرؤها. فتصِحُّ تسميتُها بالرّواية -بل الملحمةِ- التي لا تُنسى. وإنّي إذ أسعَدُ بتقديمِها للقارئ العربيّ، أشكُرُ كاتِبَتها ديزي جُونسن على دعمِها اللّطيف في أثناءِ التّرجمة، وأشكُرُ الباحثَ الهولنديّ مِشِل كلينَه الذي استفدتُ من رسالتِه البحثيّة التي أنجزَها عن هذه الرواية أيّما استفادة. وأشكُرُكَ أخيرًا (وليسَ آخِرًا) أيّها القارئ، إذ تحتازُ اليومَ هذه الثّمرَة اليانعة، وأتمنّى أن تتلذّذ بها. فهنيئًا مريئًا.

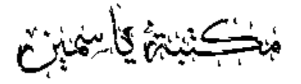
عماد العتيلي

أيلول، 2022

(1)

المُنتَأى

تؤوبُ إلينا مساقِطُ رؤوسِنا. تعودُ متنكّرة في صورٍ شتّى: صُداع نصفيّ، أو وجع بطن، أو أرق. هيَ استيقاظُنا -أحيانًا- شاعِرينَ بأنّنا نوشكُ على السّقوط، متلمّسينَ طريقَنا إلى مصباحِ السّرير، متيقّنين من أنّ كلّ ما بنيناه قد ذهب أدراج الرياح ليلًا. نغدو غُرباء في أعيُن أوطانِنا. وتغدو هيَ غير قادرة على التعرّف إلينا، بيد أنّنا نظلّ أبدًا قادرين على التعرّفِ إليها. فهي تسكُننا كالنّخاع، وتجري فينا مجرى الدّم. ولو أنَّ أجسادَنا انقلَبَت فصارَ داخِلُها خارِجَها، فسنُلفي خرائطَ محفورة في الجهةِ الأخرى من جلدِنا. فقط كي نهتدي بِها ونسلكها لِنتمكّنَ من العودة إلى جذورِنا. إلّا أنّي لم أُلفِ المحفورَ على الجهةِ الأخرى من جِلدي قناةً أو سِكّة حديدٍ أو قاربًا، بل ألفَيتُه: أنتِ.



t.me/yasmeenbook

الكوخ

يَصعُب عليّ، حتّى في هذه اللحظة، تحديدُ نقطة البداية الموثوقة. إذ إنّ الذاكرة ليست خطًّا مستقيمًا، بل سلسلة دوائرَ مُحَيِّرة، تتسعُ وتنكمِش. أجِدُني، أحيانًا، قد دنَوت من العُنف. فلَو أنّي ألفيتُكِ المرأة التي كُنتِها قبل ستّة عشر عامًا، لَلجأتُ إلى العنف وانتزعتُ الحقيقة من جوفِك انتزاعًا. بيد أنّ ذلك الآن أضحى ضربًا من المستحيل. فقد ألفيتُكِ عجوزًا لن تقوى على أن يُنتزَع منها شيءٌ قسرًا. تلتمعُ الذكريات كشظايا كؤوس نبيذٍ في الظلام، ثم تختفي.

ثمَّت تدهورٌ يُعمل معولَه فيكِ. فصرتِ تنسين أينَ وضعتِ حذاءكِ وأنتِ تنتعلينَه. وتُحدّقين إليّ خمس أو ستّ مرّات كلّ يوم وتسأليننَي من أكون أو تنهرينني قائلةً: *«اخرجي! اخرجي!»*. تُريدين أن تعرفي كيف جئتِ إلى هُنا، إلى بيتي هذا. فأقصّ عليكِ القصّة مرارًا وتكرارًا. تنسين اسمكِ، أو تنسين الطريق إلى الحمّام. صِرتُ أجِدُ بعض الألبسة الداخليّة النظيفة في أدراج المطبخ حذاءَ السّكاكين. وصِرتُ لمّا أفتح الثلاجة أجِد حاسوبي المحمول وهاتفي ومُتحكّم التلفاز هُناك. تصرُخين في منتصف الليل مُناديةً عليّ، وحينَ آتيكِ ركضًا تسألينني متعجّبةً عمّا أتى بي إلى حجرتِكِ. *«أنت لستِ غرتِل»* تقولين. *«ابنتي غرتِل كانت جامحةً وجميلة. أنتِ لستِ هي»*.

في بعضِ الصّباحات، أُلفيكِ تعرفين مَن نكونُ كِلتَينا تمامَ المعرفة. وتضعينَ ما استطعتِ من لوازِم الطّبخ على الطاولة وتُعِدّين لنا وجبات فطور لذيذة، دَاسّةً في كُلّ طبقٍ أربعة فصوص ثوم وما استطعتِ من الجُبن. تتأمّرينَ عليّ في مطبخي كأنّي خادمة، وتطلبينَ منّي غسلَ الملابس وتلميعَ

النوافِذ، بحقّ الله! يتسلّلُ التدهوُر إلى عقلِكِ، في هذه الأيام، ببطء. فتنسين مقلاةً على الفُرن فتحترقُ الفطيرة، وتنسينَ الصنبور مفتوحًا فيفيض الماء من المَغسَل على الأرضية، وتُلفينَ الكلمات قد انحبَسَت في فمِكِ فتُحاولينَ إجبارَها على الخروج، سُدًى تُحاولين بصقَها. أُعِدُّ لكِ الحمّام لتغتسِلي، وأساعدُكِ في صعودِ السلالِم يدًا بيد. لحظاتُ الصّفاء القصيرة تلك تُخيفُني، وبالكادِ أحتملُها.

لو أنّي كنت مكترثةً لأمرِكِ حقًّا، لأودعتُكِ دارَ عجَزَة. فيها ستائر مُزَهَّرة، ووجبات تُقدَّم في ذات الأوقات كل يوم، وعجائز مثلكِ. فإنَّ المُسِنّين نوعٌ خاصّ من البشر. لو أنّي كُنت أحبّكِ لا أزال، لتركتُكِ حيث وجدتُكِ ولم أجُرَّكِ معي إلى هُنا، حيثُ الأيام لِفَرط قِصَرها لا تستحقّ أن تُذكَر، وحيثُ لا تنفكّ نبشُ قبورًا كانَ من الأجدر أن تظلّ مُغطّاة.

أحيانًا، نُلفي تلك الكلمات العتيقة قد تسلّلت عائدةً إلينا، فتُكدِّرُنا. يبدو لنا، حينئذٍ، أنّ شيئًا لم يتغيّر، وأنَّ الوقت لا يَزِن ذَرَّة. عُدنا كلتينا إلى زَمنٍ كُنتُ فيه ابنةَ ثلاثة عشر عامًا، وكُنتِ أمّي البغيضة، الرائعة، المُرعِبة. وكُنا نسكنُ قاربًا في نهر، وكانت لدينا كلماتٌ لا يعرفها سوانا. لُغة كاملة فريدة لنا فحسب. والآن، تُخبرينني بأنّك تسمعين أفأفةَ ماء[1]، فأجيبُكِ بأنّني مثلكِ أسمعُ -أحيانًا- الأفأفة رغم أنّنا لسنا على مقربةٍ من أيّ نهر. تُخبرينني أنّكِ تُريدينني أن أغادِر، وتُريدينَ أن تحظي بوقتِ شيش وحدكِ. فأخبركِ بأنّكِ هاربيدودُل[2]، فتغضبين أو تضحكينَ ملءَ شدقيكِ حتّى تنهمر دموعكِ.

أستيقظُ، ذات ليلةٍ، على وقعِ صُراخِكِ العالي. أهرعِ صوبكِ عبرَ الممرّ، أكادُ أنزلِق، وأقتحم بابَ حجرتِكِ وأضيءُ نورها. أجِدُكِ جالسةً في السّرير الإضافيّ الضيّق وقد سحَبتِ غطاءهُ حتّى ذقنِكِ، فاغرةَ الفمِ، باكية.

1- الأفأفة – Effing: هذه الكلمة هيَ إحدى «الكلمات العتيقة» التي اختلقَتها غرِتِل وأمّها فيما مضى، ومعناها المقصود هوَ «جريان الماء السّريع». وسيمُرّ القارئ خلال الرواية بكلمات أخرى مُختلقَة، وسنُورِد المقصود بكُلّ منها في هذه الهوامش.

2- وقت شيش –Sheesh Time: كلمةٌ عتيقة مُختلَقَة، معناها المقصود هوَ «وقت راحة». و هاربيدودُل– Harpiedoodle: كلمةٌ عتيقة مُختلقة أخرى، ومعناها المقصود هوَ «مُزعِجة».

- «ماذا هُناك؟ ما الخطب؟».

تحدّقين إليّ، وتقولين:

- «**بوناك هُنا!**».

لوهلةٍ -ولأنَّ الوقتَ كانَ ليلًا وكُنتُ قد استيقظت للتوّ- أحسُّ بفزعٍ يتأجّجُ فيّ. أنفضهُ عنّي. أفتح الخزانةَ وأُريكِ أنّها فارغة، ثُمَّ أُعينُكِ على النهوض من السرير كي ننحني معًا وننظرَ أسفلَهُ، ثُمَّ نقفُ إلى النافذة ونحدّقُ إلى الظلام.

- «أترين؟ ليسَ ثَمَّ شيء. عليكِ الآن أن تخلدي إلى النوم».

فتقولين:

- «بل هوَ هُنا. بوناك هُنا!».

تجلسين مُتحجّرةً جُلّ الوقت في كُرسيِّكِ تتأمّلينني. بتِّ مُصابة بحالة شديدةٍ من التهاب الجلد في يديكِ لم تكوني مُصابةً بها قطّ، حتّى أنّكِ تحكّين يديكِ بأسنانِكِ. أحاول أن أريحَكِ، ولكنّكِ -ما تذكّرتُ هذه الخصلةَ فيكِ إلا الآن- تجِدينَ الراحة تعَبًا. ترفضين الشايَ الذي أجلبه لكِ، وترفضين تناول الطعام، وترفضينَ شربَ الماء إلّا قليلًا. تنهالينَ عليّ ضربًا، حينَ أقترب منكِ، بالوسائد. *(كفاكِ! لا تلاطفيني! اتركي ذلكَ!)*. فأفعَل كما تشائين. أجلسُ إلى الطاولة الخشبية الصغيرة قبالتكِ في كرسيِّكِ، وأنصِتُ إلى حديثِكِ. لديكِ قوّة احتمالٍ رهيبة تُبقينا مستيقظَتَين لياليَ بلا استراحة. أحيانًا تقولين: *(إنّي ذاهبة إلى الحمّام)* وتنهضين من كرسيِّكِ، كما تنهضُ النائحةُ من جانب قبرٍ، نافضةً بيديكِ غبارًا خفيًّا عن سراويلِكِ الذي أعَرتكِ إيّاه. *(إنّي ذاهبة الآن)* تقولين دانيةً من السلالم بوقار، ثُمَّ تلتفتين إليَّ كأنّكِ تقولين إنّكِ لن تقدري على إكمال المسير بدوني، فهذه ليست قصّتي ولذلكَ كان لزامًا عليّ الانتظار حتّى تعودي إليّ. تُخبرينني، في منتصف الطريق صعودًا السلالِم، أنَّ على المرء التّسليم بأخطائه والتعايشَ معها. أفتحُ أحدَ الدّفاتر التي اشتريتُها وأسجّلُ فيه كُل شيءٍ أتذكّره. تبدو كلماتُكِ مُسالمةً على الورق، كأنّها منزوعة الفتيل.

لم أفتأ أفكّرُ في أثرِ ذكرياتِنا، أيظلُّ باقيًا كما هوَ أم يتغيّر كُلّما أعَدنا كتابةَ تلك الذكريات بمرور الوقت. أذِكرياتُنا راسخة كالبيوت والمنحدرات، أم سريعةُ التقوُّض والاستبدال والتمَوُّه. إنَّ كلَّ ذكرياتِنا تُنقَل، وتُستَذكَر، فلا تعودُ مماثلةً لحقيقتِها التي كانت. وذلكَ يُثقِلُني ويؤرّقُني: أنّي لن أتيقَّن أبدًا ممّا حدث.

حينَ تتحسّنين أُخرِجُكِ إلى الحقول. كانت ثمَّت أغنام هُنا فيما مضى، ولكن لم يظلَّ اليوم سوى العُشب بالغ الرقّة حتّى لَيُرى الطّبشور تحته. ثَمَّ تلال ناتئة من ضلوعِ الأرض، وجدوَلٌ رقيق تجشّأتهُ الأرض فانسلَّ نزولًا المُنحدر. كُلّ يومين أُعلِنُ الرياضةَ دواءً، فنمضي سائِرَتينِ حتّى قمّة التلّة، فَنقف عليها لاهثَتين متعرّقتين، ثُمَّ نستأنفُ السير نزولًا إلى الجَدول. ساعتئذٍ فقط تكُفّين عن الشكوى. تجثينَ عند الماء وتغمسينَ في بردِهِ يديكِ حتّى تلمسي قاعَه الصخريّ. تقولينَ لي ذاتَ يومٍ: *‹إنَّ الذين يترعرعون قُربَ الماء يختلفون عمّن سواهُم›.*

‹ماذا تعنين بذلك؟› أسألُكِ. ولكنّك لا تُجيبين، أو ربّما نسيتِ أنّكِ تحدّثتِ أصلًا. رغم ذلك، لم تبرَح الفكرة عقلي، ورافقَتني طوال تلك الليلة الهادئة: أنّنا محكومونَ بالمنظر الطبيعيّ حولنا، وأنَّ التلالَ والأنهار والأشجارَ تُشكِّلُ حيواتِنا.

يعتريكِ مزاجٌ سيّئ. فتظلّينَ عابسةً حتّى هبوط الليل، ثُمَّ تصخَبين في البيت مُحاوِلةً إيجادَ شرابٍ أقوى مفعولًا من الماء. ‹ما الأمر؟› تصيحين. ‹أين؟›. لا أخبركِ أنّي أفرَغتُ الخزائنَ حينَ عثرتُ عليكِ أوّلَ مرّةٍ على النّهر وجلبتُكِ إلى هُنا، وأنّكِ يجبُ أن تُقلعي عن الشُّرب بأيّة وسيلة. ترتمين في كرسيّكِ مُربَدّة الوجه. أُعِدُّ لكِ شطيرةً قلَبتِها من الطّبقِ على الأرض. أعثُرُ على حُزمة بطاقات في أحدِ الأدراج، فتحدجينني بنظرةٍ متعجّبة كأنّي مجنونة.

أقول: «حيَّرتِني! ماذا تُريدين؟».

تنهضين من كرسيّكِ وتُشيرين إلى البطاقات. أرى ذراعيكِ ترتعشان

تعَبًا، أو غضبًا. *لن أقبَل بأن يكون دَوري أنا في كُلّ مرّة لعينة!* تقولين. *لقد أخبرتكِ بما يكفي. أخبرتُكِ بكُلّ شيء. بكلِّ ذلكَ الخراء عن نفسي!* وتضربين الكُرسيّ بيديكِ المفتوحتين. *أمّا الآن، فقد حان دورُكِ!*

- «حسنٌ. ماذا تُريدين أن تعرفي؟» أقول جالسةً في الكرسيّ. أُلفيه مُضطرمًا ببقيّةِ دفئِكِ. تلجئينَ إلى بقعةٍ قريبةٍ من الجدار، وترفعين كُمّي مِعطفِكِ المُشمَّع، وتقولين: *أخبريني كيفَ عثرتِ عليّ*.

أُرخي رأسي إلى الخلف، وأضُمُّ يديّ إلى بعضِهِما فأُحِسُّ بهدير الدّم فيّ. يُريحُني -شيئًا ما- سؤالُكِ.

هذه هيَ قصّتُكِ -تتخلّلها بعض الأكاذيب، وبعض الاختلاقات- وهذه هيَ قصّةُ الرّجلِ الذي لم يكُن أبي، وهذه هيَ قصّة ماركس الذي كانَ (ابتداءً) *مارغُت* -شائعةٌ أخرى، رَجمٌ بالغيب- وهذه أخيرًا، وأسوأ ما فيها، هيَ قصّتي. وهذه هيَ البداية التي أجِدُني واثقةً منها: هكذا، قبلَ شهرٍ، عثرتُ عليكِ.

المُطارَدة

مرَّ ستّة عشر عامًا مُذ رأيتُك آخر مرّة، لحظةَ اعتَليتُ متن تلك الحافلة. كانت حُفرُ الدّرب المُفضي صعودًا إلى الكوخ، في مطلعِ الصيف، تمتلئ ببيوضِ الضفادِع، ولكننا آنذاكَ كُنّا في منتصفِ آب فوجَدنا الحُفرَ فارغة. كانَ كوخُنا قارِبًا في زمنٍ ماضٍ. شهرئذٍ، كانت الجدرانُ مكسوّةً بطبقاتِ رطوبة، وساعةَ تهُبُّ الريحُ بقوّةٍ كانت المدخنةُ تسعُلُ بعضَ أعشاشِ الطيور وشظايا من قشور البيض وكُرات شعرٍ لَفَظَتها البُوم. كان في أرضيّة المطبخ الصّغير مَيلٌ قد تتدحرجُ عليه كُرةٌ من أقصاهُ إلى أقصاه. ولم يكُن ثمّتَ بابٌ متموضعٌ في حيّزه تمامًا. وكُنت أنا قد نيّفتُ على الثانية والثلاثين من عُمري، وقد سلَختُ هناكَ سبعةَ أعوامٍ منها. في أستراليا يصِفون مِثلَ مسكَنِنا ذاك بِـ«*المُنتأى*». أمّا في أمريكا فيصِفونَهُ بِـ«*المُعتزَل*» أو «*البقعة البعيدة غير المأهولة*». وكانت تلكَ الأوصافُ تعني: «*أنا لا أريدُ أن يعثُر عليّ أحدا*». أُدركُ الآن أنَّ هذه خصلةٌ ورِثتُها عنكِ. وأُدرِكُ أنّكِ ما فتِئتِ تُحاولين دفنَ نفسِكِ عميقًا فلا أعودُ، حتّى أنا، قادرةً على انتشالِكِ. من أشبَهَت أمّها فما ظَلَمَت. كنت على مبعدةِ ساعة ونصف من أُكسفورد، حيثُ أعمل، راكبةً الحافلة. لم ينتبه أحدٌ إلى وجودي، سوى السّاعي. فقد كُنت حريصةً على صَونِ وَحدتي. خصّصتُ لها حيّزًا مثلما يُخصّصُ سوايَ حيّزًا لأديانِهم أو ميولهم السياسيّة، غيرَ أنّي لم أكترث قطّ للدينِ أو السياسة.

كنت أكسب لقمة عَيشي من العمل في تحديث كلمات القاموس. وسلَختُ الأسبوعَ الفائت كُلّه في العمل على كلمة «كَسْر». كانت ثَمَّ بعضُ بطاقات الأبجديّة متناثرة على الطاولة وبعضُها على الأرضيّة. كانت تلكَ الكلمة مُراوِغةً ومُستعصية على التفسير البسيط. وقد كانت مثل تلكَ

الكلمات العويصة تستهويني أكثرَ من سواها، فتصيرُ كأنّها دودةُ أذُن، أغنيةً عالقة في رأسي[3]. أحيانًا، أجِدُني قد دسَسْتُ تلك الكلمات في جُمَلٍ غريبة. *أن أفكَّ شيفرةً. أن أكسِرَ نغمةً. أن أفسِّر*. قد أفتّشُ في الأبجديّة كلّها، فألفي الكلمةَ –ساعةَ أصِلُ إلى النهاية– قد تغيّرت وانزاحَت قليلًا. وكذلكَ ذكرياتُكِ في عقلي. فلمّا كنت أحدَثَ سِنًّا ما انفككتُ أزورُ تلكَ الذكريات مرارًا، مُحاوِلَةً التقاط تفاصيلَ وألوانٍ مُحدّدة وأصوات. غيرَ أنّي كُلّما زُرتُ ذكرى ألفَيتُها مختلفةً شيئًا فأُدرِكُ أنّي لستُ قادرةً على تمييزِ ما اختلَقتُهُ عمّا حدثَ فعلًا. بعد ذلكَ كَفَفْتُ عن التذكُّر، وطرقتُ بابَ النّسيان. فطالما كُنتُ أكثرَ قُدرةً على النّسيان.

هاتَفتُ، كُلّ بضعة أشهُر، المستشفيات والمشارِح ومراكز الشرطة وسألتُهم ما إذا كانوا قد رأوكِ أم لا. وقد لاحت لي –في أثناءِ السّتّة عشر عامًا الفائتة– بارقتا أمل: أولاهُما جمعيّة قوارب أغارَت عليها عصابة وأثخنت في أعضائِها الذين كانت من بينهم امرأةٌ تشبه أوصافُها أوصافكِ، وثانيهما جثّة امرأةٍ وجدَها صبيّان في الغابة قالا إنّها تشبهكِ ولكن بانَ فيما بعدُ كذبهُما. وعلى الرّغم من أنّي لم أعُد أبصِرُكِ في وجهِ أيّ امرأةٍ أصادفها في الشارع، فقد صارت مُهاتفة المشارِح عادةً عندي. أحيانًا أخالُني لم أواظب عليها إلّا لأتيقّن من أنّكِ لن تعودي أبدًا.

كنت، صباحئذٍ، في المكتب. وكان مُبرّد الهواء مشغّلًا على أعلى درجةِ تبريدٍ، فارتدى كُلّ العاملينَ بلوزاتٍ ثقيلة وأوشحة وقفّازات بلا أصابع. إنّنا، معشرَ المُعجَميّين، نَسلٌ فريد. موضوعيّون، متأمِّلون، حذِرونَ في انتقاءِ جُمَلِنا. حينَ كُنت جالسةً إلى مكتبي، أقلّبُ بطاقات الأبجديّة، أدركتُ أنّي مكثتُ خمسة أشهُرٍ كاملة من غيرِ أن أبحثَ عنكِ. وكانت تلكَ أطول فترة انقطاع أعهدُها منذ مدّة. حملتُ هاتفي إلى الحمّام، وهاتَفتُ الأماكنَ المُعتادة. عدّلتُ في صِفاتِكِ الجسديّة كي تتناسبَ مع سنِّكِ الحاليّة بعد مرورِ

3- دودة الأُذُن – Earworm: ظاهرة معروفة باسم (متلازمة الأغنية العالِقة)، وهيَ متلازمة تُصيب جُلّ الناس وسببُها الاستماع المتكرر لأغنية أو مقطع موسيقي حتّى يلتصق بالذّهن. وقد تستمرّ هذه المتلازمة لدى بعض الأشخاص إلى سنوات وتستحيل فيما بعد إلى شكل من أشكال الوسواس القهري.

كلّ تلكَ الأعوام. فصِرتُ أقول: هيَ أنثى بيضاء، في منتصف الستينيات، شمطاء، طولُها نحوَ مترٍ ونصف، ووزنُها نحوَ خمسة وسبعين كيلًا، وعلى كتفِها الأيسر وحمة، وعلى كاحلِها وشم.

«طالما...» قالَ الرجلُ في آخر مشرحةٍ هاتفتُها، «طالما انتظرنا مكالمتكِ هذه!».

طالَما بدَوتِ قاهرةً، أبديّةً، عصيّةً على الموت. غادرتُ المكتبَ مبكّرًا يومئذ. كانت ثَمَّ أعمال صيانةٍ عند الميادين، ولذلكَ تأخّرت الحافلة في عبور المدينة. أنا لم أُشبِهكِ يومًا، بيد أنّي –في انعكاسِ صورتي في النافذةِ المتسخة– أبصرتُكِ في ثنايا وجهي. أحكمت قبضتي على قضيبِ المقعدِ قبالتي. حزمتُ، مساءئذٍ، حقيبتي، وحجزتُ سيّارة أجرة، وأحكمت إغلاق محابس الماء. وفي الصباح، انطلقتُ لأتعرّفَ على جثّتِكِ.

كانَ الليل قد أرخى سدولهُ ساعةَ وصلتُ إلى البيت. ذهبتُ لأضيءَ نورَ المطبخ فألفيتُني مذعورة –بصورةٍ لم أعهدها منذ أعوام– وخائفةً من أن أراكِ ثَمَّ واقفة. فتحتُ الصنبور وغمرتُ يديَّ بالماء. كُنتِ، حسبما أذكُرُكِ، أقصرَ منّي، عريضةَ الوَرِكَين، صغيرةَ القَدَمين لدرجةِ أنّكِ كُنتِ تقولينَ مازِحةً بأنّهُما كانتا معقودَتين لمّا كنت طفلة. لم تقُصّي شعركِ قطّ، فكانَ طويلًا وداكِنًا وخشِنًا. وكُنت تطلبينَ أن أضفرهُ لكِ بينَ الحين والآخر. *«غْرِتِل، غْرِتِل، ما أسرعَ أصابعكِ!»* كنتِ تقولينَ ضاحكة. لم أستذكِر ذلكَ الملمسَ منذ زمن: ملمَسَ شعرِكِ. *«هلّا صنعتِ لي ذيلَ حوريّة؟ لا، ليسَ كذلك، حاولي ثانيةً. مرّةً أخرى!»*.

حاولت استئنافَ العمل. الكَسر. الانفصالُ إلى قِطَع. أن تُعطَّلَ أو تتعطّل. سأراكِ أخيرًا في المشرحةِ في الصباح. الفَزَع، كلمةٌ قد تُستعملُ لوصفِ جماعة الطّير إذ تُحلّقُ مُسرعةً صوبَ السّماء. ولقد غصَّ حلقي بالطّيور، حتّى تحرّرَت وانبجَسَت أخيرًا من شِدقيَ المتصدّع. كسرتُ قاعدَتي. كانت ثَمَّ قنّينة نبيذ محشورة بينَ الثلاجة والجدار. حرّرتُها، وصببتُ منها في كأسٍ فأترَعتُه. ورفعتُ الكأسَ نخبًا لكِ. علا صوتُكِ في رأسي، أكثرَ فأكثر. لم أفهم الكلمات، لم أفهم إلّا أنّهُ صوتُكِ، فكانَ في الجُمَلِ سَمتُكِ، وكانت الكلماتُ

بسيطةً وقاسية. عضضتُ بأسناني على حافّة القَدح. وأغمضتُ عينيّ. أحسستُ بصَفقةٍ مدويّة لفحَت وجهي ريحُها. نظَرتُ، فرأيتُكِ في مدخلِ الفِناء. مُرتديةً ثوبكِ البرتقاليّ العتيق، مشدودًا حولَ خصرِكِ، وبعضُ ساقَيكِ بارزٌ من الأسفل. كُنتِ مادّةً يديكِ نحوي، وكانتا ملطّختَين بالوحل. كانَ النّهرُ متّصِلًا بكتِفِكِ الأيسر، جاريًا من ورائِكِ. وقد كانَ على حالِهِ حينَ كانَ لنا موطِنًا: وسيعًا، ومُعتِمًا تقريبًا. غيرَ أنّي، على بلاط المطبخ، أبصرتُ أخيلةَ مخلوقاتٍ تنغمسُ وتغطسُ وتسبح. فتحتُ الصنبورَ ثانيةً وغمستُ يديَّ في الماءِ الساخن. ولمّا نظرتُ ثانيةً، ألفيتُكِ قد اقتربتِ، وقد غصَّت بالطّحالبِ ضفائرُ شعرِكِ السّوداءِ المنسدلة على وجنتيكِ، ورائحة سيجارتِكِ العتيقة قد ملأت المطبخ من أعلاه إلى أسفله. أحسستُ بكِ تتفحّصينَ حياتي. حتّى في مخيّلتي تلك ألفيتُكِ مستبدّة الرأي، متقِدَة. قشَّرتِ بيضةً، نازعةً الجِلدةَ عن الكُرةِ البيضاء الناعمة. رمَيتِني بالماءِ من خرطوم حتّى اخضلَّت الأرضيّة بالماءِ الموحِل، فانزلقَت كلتانا وتلطّخَت كأنّها بُصيلةٌ وليدة. حدّقتِ إليَّ عبرَ باب المطبخ والنّهرُ يجري من ورائِكِ. «ماذا تفعلين؟» قُلتِ. «أهُنا انتهى بكِ الحال؟».

انتعلتُ حذائي، وارتديتُ معطفًا، واعتمرتُ قبّعة، وخرجتُ مُسرعةً حتّى كِدتُ أُهمِلُ إغلاقِ الباب ورائي. كانت العَتَمةُ مُنارَةً بضوءٍ صناعيٍّ وقمرٍ فضيّ. مشيتُ حاثّةً الخُطى، حتّى اضطررتُ إلى التوقّفِ بعدَ حينٍ، لاهثة. ولمّا أرجعتُ البصر، رأيتُ مُربّع نورٍ ساطعٍ من نافذة مطبخِ الكوخ. كمحجر عينٍ أصفر في التلّة. لم أتذكّر ما إذا كُنتُ أنا قد تركتُهُ مضاءً أم لا.

طالما فهِمتُ أنَّ الماضي لم يمُت لأنّنا أردناهُ أن يموت. بل الماضي يومئ إلينا: بإشاراتٍ في الليل، وبكلماتٍ نُخطئُ في تهجئتِها، وبرطانةِ الإعلانات، وبالأجسامِ التي تجذبُنا أو لا تجذبُنا، وبالأصوات التي تُذكّرُنا بهذا أو بذاك. ليسَ الماضي خيطًا نجرّهُ خلفنا، بل مرساة. لذلك ظللتُ أبحث عنكِ طيلةَ تلكَ السنوات يا سارة. لا للعثورِ على أجوبةٍ شافية، أو عزاء. ولا لأضعَ عليكِ الذّنب وأكسِرَكِ. بل لأنّكِ كُنتِ -منذ زمنٍ بعيدٍ- أمّي، ولأنّكِ هَجَرتِني.

المُطارَدة

كانت سيّارة الأجرة حمراءَ اللون، وبدا المستشفى كأنّهُ ممرٌّ واحِدٌ طويل. مررتُ بمداخلِ أقسامِ النّسائيّة، والتنفسيّة، والقسم الخاصّ بالموظّفين. فاحَ المكانُ برائحة حساءٍ سُخِّنَ في مايكرويف، وتوستٍ محروق، ومبيّض. كانت المشرحة على مبعدةِ ثلاثة طوابق نزولًا. تردّدتُ واقفةً خارِجَها، غيرَ راغبة في الدّخول. كانت ثمّتَ لوحة إعلانات، عليها إعلانٌ يطلبُ جُلساءَ كلاب، وثانٍ يعرضُ هَمستَر هديّةً، وثالث يعرضُ درّاجة هوائيّة للبيعِ بمئة باوند فقط. كانَ مبرّد الهواء معطّلًا، فخلّفَ المُراجِعونَ على مقاعدِهِم، بعدما نهضوا عنها، بُقَعَ عرقٍ واضحة. راحَ الممرضونَ وجاؤوا دافعينَ العربات، منغمسينَ في سمّاعاتِهِم أو متحدّثينَ في هواتفِهِم. كُنتُ قلّما أتذكر الوجوه والأجساد. فكّرتُ في كلماتٍ اعتدتِ قولَها: حُمَيَّا حَمأة، لَمعة. تُرى، ماذا كانت رائحتُكِ؟ وضعتُ مِعصَمي على أنفي. لقد كُنتِ غَيرى، وضنينةً بوقتِكِ ومساحتِكِ. وقد كُنتُ حريصةً، حتّى بعد ستّة عشر عامًا من عيشي من غيرِكِ، حتّى وأنا ذاهبةٌ لرؤيةِ جسدِكِ، على ألّا أدوسَ أصابعَ قدميكِ. دفعَ ممرضٌ عربةً عبرَ بابِ المشرحة، فانفرَجَت فُرجةٌ أمكَنَتني من رؤية شيءٍ من الحُجرة المُنارَة.

هاتفتُ ممرِّضَ المشرحَةِ عدّة مرّات خلال الأعوامِ الفائتة. كانت جُمَلُهُ لَغوًا، ودائمًا تُختَتَمُ بلعثمةٍ أو أسئلة. كان رجُلًا أصلعَ، وصَلعَتُهُ لامِعة. قالَ إنَّ شكلي أشبَهَ صوتي. لم أدرِ ما عناهُ بذلك. لم أكُن أشبِهُكِ. فقد كانَ يعلوكِ سَمتٌ مُتحجِّرٌ بثَّ الذّعرَ في قلبِ كُلّ من رأيتُكِ تلتقينَه. ألفيتُ ثَمَّ على اللّوحِ أشكالَ صبّارات. انتبهَ الممرّضُ لي إذ أحدّقُ إليها، فهزَّ بكتفيه وقال:

– «ثمّتَ ميزةٌ فيها، أليسَ كذلك؟ الصباراتُ لا تحتاجُ إلى أحد. فهي تُخزّن ماءها فيها».

لم أدرِ كيفَ دخلتُ تلكَ الحُجرة. رأيتُ أبوابًا حديديّة في الجُدران، وسمِعتُ المِذياعَ مُشغّلًا بصوتٍ خافتٍ في الخلفيّة، أغنيةٌ لم أميّزها. فتحَ الممرِّضُ أحدَ الأبواب، واستلَّ منهُ رفًّا. ألفيتُكِ مغطّاةً بقماشةٍ زرقاء. فانحبَسَت أنفاسي. أمكَنني رؤيةُ تضاريسَ تحتَ القماشة: أنفٍ، ووَرِك. وبدَت القدمُ البارزة في آخرِ الرّفِّ مُشمّعة، وعُلّقَت على أحدِ أصابِعها بطاقة، وعلى أصبعٍ آخر جرس.

– «ولِمَ الجرس؟»، قُلت.

مسحَ الممرّض على صلعتِهِ براحتِه. كانت يداهُ نظيفتَينِ للغاية، بيدَ أنَّ بقايا طعامٍ كانت ملتصقةً بطرف فمِه الدّقيق.

– «وجوده غير ضروريّ»، قال. «محضُ زلّة الآن. أمّا قبلَ اختراعِ جهاز رصد دقّات القلب، فقد ابتُدِعَ الجرسُ للتأكّد من أنَّ الميْت ميْتٌ حقًّا. وقد ظلَّ الجرسُ رمزًا تقليديًّا لا غير».

– «لا بُدَّ أنَّ هذا أصلُ مُصطلحِ (ناقوسُ المَيْت)[4]»، قُلت. فحدّقَ إليَّ كما يُحدّقُ إليَّ سواهُ عادةً حينَ أحدّثُهُم كقاموسٍ متحرّك. وددتُ أن أحدّثهُ عن كُلِّ الكلمات والمصطلحات الجميلة التي خطرت ببالي –في أثناءِ رحلتي هذه– لتعريفِ الأماكن التي ندفن فيها موتانا: قَبو رُفات، مَعظَمَة، رَمس.

– «أتحبّين أن أعدّ لكِ عدًّا تنازليًّا؟ ثلاثة، اثنان، واحِد؟»، سألَني. «بعضُ النّاس يحبّذون ذلك».

– «لا!».

أزاحَ القماشة الزرقاء عن الوَجه إلى أسفلِ الكتفَين. أحسستُ بألمٍ قد انغرزَ في معدتي، وبشَعرِ جسمي قد قفّ. كانت تلكَ هيَ أنتِ. وبعد هُنيهةٍ أدركتُ خطئي. كان لونُ شعرها –حقًّا– مطابقًا للونِ شعرِكِ، كما ذكّرني حيّزُ عينيها وفمِها، وشكلُ جبهتِها، بكِ. بيدَ أنّي انتبهتُ إلى أنَّ أنفَها ليسَ هوَ

4- ناقوس المَيْت – Dead Ringer: مُصطلح يعودُ إلى القرن التاسع عشر، ومعناهُ الدّقيق هوَ: «المِثل»، ويُطلق على الشّخص (أو الشيء) المُطابق في شكلِهِ لشخصٍ (أو شيءٍ) آخر.

أنفكِ العريض الذي التوت قصبتُهُ بفِعل كَسْرٍ قبلَ أن أولَد، كما انتبهتُ إلى أنَّ لونَ الوَحمةِ على كتفِها ليسَ مطابقًا للونِ وحمتِكِ الورديّ الشاحِب.

- «هل أنتِ متأكّدة؟»، قالَ بنبرةٍ يائسة. لا بُدَّ أنّ مشرحتهُم غاصّة بالجُثث كالقناة تمامًا، تلكَ الجثث المتنفخة، والتي تطفو على السّطح في أثناءِ موسِم التخفيضات. كشفَ الممرّضُ عن ساقَيها ليُريني الوشم، ولكنّهُ كانَ وشمًا حديثًا وبُقعتُهُ ما زالت منتفخةً من أثرِ الإبرة: وشمًا لنجمةٍ مائلة، خريطةٍ لبلدةٍ غريبة. لم أدرِ قطُّ ما كانَ وشمُكِ، وأنتِ لم تُطلعيني على ذلك. *يحقُّ للأمّ أيضًا أن تُكِنَّ في صدرِها أسرارًا.*

- «نعم، متأكّدة»، قُلت.

في طريقِ العودة من المشرحة توقّفتُ لتعبئة الوقود، ثُمَّ جلستُ على مقعدِ طعامٍ خشبيّ حذاءَ أكداسِ الصّحفِ وأكياسِ فحمِ الشّوي. بدا كُلّ شيءٍ مفتقرًا إلى التّجانُس: كَحديدِ أبواب السيارات إذ يلتمِعُ إزاءَ الحرارة المنبعثة من الطّريقِ السّريعة. أحسستُ بمرارةٍ في فمي، وباتّساخ. أحسستُ كأنَّ جِلدي قد خُلِعَ عن يديَّ ووجنَتَيّ. أحسستُ بالضَّنَك كأنّي عِشتُ تلكَ اللحظة عشر مرّات، كأنّي لن أنتهي إلى سِوى ذلكَ المكان: إلى محطّة الوقود تحتَ حرارةِ الشّمس بُعَيدَ رؤيتي جُثّةً هامدةً لم تكُن أنتِ. كانَت مهاتفاتي الباحثة عنكِ محضَ زلّة. فالحقُّ أنَّ ثمّتَ أصواتًا قد يضجُّ بها عقلُ المرءِ مِن الأجدرِ لهُ أن يتركَها وشأنَها. أخرجتُ الخريطةَ من صندوق التابلوه. اعتقدتُ أنّي ربّما ميّزتُ بعضَ اللافتات (لا تبرحُ الكلماتُ عقلي بعدما أراها مكتوبة)، نظرتُ فأدركتُ سببَ تمييزي إيّاها: أنّي كُنت على مقربةٍ من الإسطبلات. خِلتُ أنّها تبعُد ساعات، ولن أصِلَها إلّا بعد رحلةِ ليلةٍ كاملة، ولكن تبيَّن أنّها قريبة، على مبعدةِ ساعةٍ أو أقلّ. أزعَجَني ذلك. أنّي -طيلةَ هذه الأعوام- كُنت على مقربةٍ من ذلك المكان. ابتعتُ لوح شيكولاته وجلستُ في السيارة مُقلّبَةَ الفِكرَ فيما أفعل. ذابت الشيكولاته قبلَ أن أفضَّ غلافَ اللّوح. بدا لي أنَّ العودةَ إلى بيتي -بعدما عادَت القماشة الزرقاء لتُغطّي وجهها- غايةٌ مستحيلة.

عند ناصيةٍ حَرِجة كِدتُ أصدِمُ بسيّارتي شيئًا ما أقبَلَ يعدو صوبي، مُفترِشًا الدّرب كلطخةٍ مِن لون. ضغطتُ بقدَمي على المكابح بقوّة. عضضتُ لساني، وصرَختُ متيقّنةً من أنّي دُستُ على ذلكَ الشيء - أيًّا كان. ترجّلتُ من السيارة. كانَ الجوّ حارًّا. انحنيتُ لأنظُرَ أسفل السيارة. ولمّا استقَمتُ واقفةً، ألفيتُ امرأةً في معطفٍ مطَرِيٍّ ورديٍّ مُقبلةً تعدو صوبي.

- «أدَهَستِ كلبي؟»، قالَت. انتبهتُ إلى أنَّ الجهة اليُمنى من وجهها مائلة إلى أسفل بِفِعلِ جلطةٍ ربّما، وأنَّ كلماتِها خرجَت مشوَّشَةً وغامضة من فوها. أردتُ أن أستأنفَ سيري، بيدَ أنّها قبضت على ذراعي. «أدَهَستِ كلبي؟».

- «لا أدري»، قُلت.

كان معطفُها المَطَرِيُّ مُحكَمَ الإغلاقِ بسحّابٍ حتّى ذقنِها رغمَ حرارةِ الجوّ. بحثنا عن الكلب معًا أسفلَ السيارة، ثُمَّ بينَ الأجماتِ على الجانب الآخر من الطريق. ولم تُنادِهِ هيَ باسمِه، بل ظلّت تُصفِّرُ بلا جدوى.

- «لا يُمكنهُ أكلُ أيّ طعام»، قالَت. «فإنّهُ مُتّبعٌ حِميةً خاصّة وصارمة. لذا، يجبُ أن نعثر عليه قبل أن يتورّط ويأكل أيّ شيء. هوَ لا ينفكّ يفرّ منّي»، تكلَّمَت كأنّنا صديقتان حميمتان. «طالَما ظلّ يفِرّ مُذ كانَ جروًا صغيرًا».

أقبلَت سيّارةٌ أخرى من وراءِ الناصية فكادَت ترتطِم بسيارتي. توقَّفَت في منتصف الطريق.

- «لا أراه. هل تُريدينَ أن أوصِلَكِ إلى مكانٍ ما؟».

ولكنّها كانت قد مضَت، مُقتحمةً سياجَ الشّجيراتِ صوبَ الغَور. أحسستُ بطعمِ الكلمات التي تصِفُ أماكِنَ دفنِ الموتى في فمي. كُنت لا أزالُ متفائلةً بالعثورِ عليكِ في مكانٍ ما، منكفئةً على ذاتِكِ، متجمّدةً بردًا، وساقاكِ ممدودتان كُلٌّ واحدةٍ في جهة.

ألفيتُ ثَمَّ جُرفًا، مُحَفَّرًا، يُفضي نزولًا إلى الإسطبلات ذات البوّابة المُعزّزة، وكانت تتسلّقها فتاتانِ كلتاهُما ترتدي سروال ضيّقًا، ووراءَ البوّابة سيّارة مُصطفّة. كانت تلكَ الإسطبلات هيَ آخر مكانٍ مكثتُ فيه برفقتِكِ، وفيها آخرُ حُجرةٍ قاسمتُكِ العيشَ فيها. أتذكُرين كيفَ كانت الفتياتُ اللاتي يعملنَ في العُطَل الأسبوعيّة، ويترُكنَ قناني الكوكا كولا نصفَ ممتلئة

مُصطفَّةً عند الجدار، يَقِفن مُلصِقاتٍ وجوههنَّ ببعضِها، وكيفَ كانت ثمَّت فتاتانِ لا نكادُ نُفرّقُ إحداهُنَّ عن الأخرى؟ كانت جُلُّ تلكَ الفتيات يتكلَّمنَ بلكنةٍ إسِكسيَّة مُزعجة لم أكُن أفهمُها، إذ كانت كلماتُها ممطوطةً ومُثقلةً بأحرُفِ (o) و (u) مَزيدة.

في البدء، ظللتُ أتسكّع في الأرجاء من غيرِ أن أفصِحَ عن نفسي. كانَ هناكَ درسٌ تدريبيّ في الساحة: أربعة فتيانٍ، كُلٌّ منهم يمتطي صهوةَ مُهرٍ سمين. حينَ كُنّا نقطُن هُنا، كانَت المُدرّبة فتاةً فارعة الطول وذات شعرٍ بنيٍّ مسدول وأظافرَ طويلة مطليّة. وكانَ صوتُها يُشبه صافرةً، غيرَ أنّهُ أوهَن. وكانت غالبًا ما تضعُ لزقة جروحٍ أو ضمادةَ عُنُق. ولكنّها رحَلَت، فلَم أجدها هُناك.

تسلّلتُ من طرفِ الساحة، فألفيتُ درجاتِ السلّم المُفضي صعودًا إلى حُجرتِنا التي كُنّا نقطُنُها متكسّرة. تذكّرتُ الزّقاق الضيّق بينَ الساحة والإسطبلات لأنّي اعتدتُ الجلوسَ على قمّة الدّرجاتِ كي أشاهدكِ حينَ تُقبِلين، تكادينَ تتعثّرين بسببِ وعورةِ الأرض، تَسُبّينَ وتُحاولين الاستنادَ إلى الجدار. كان يجبُ أن أعرف، حقًّا، أنّكِ ستهجُرينني، فطالما توقّعتُ ألّا تعودي إلى البيتِ ذاتَ يوم. *ليثتِ تنتظرينَ عودتي؟ ما أجمل هذا منكِ*، كنتِ تقولين –رغمَ أنَّ وجهكِ كانَ يبوحُ بعكسِ ذلك– فتشتدُّ حبالُكِ الصوتيّةُ قاطعةً كُلّ كلمةٍ كأنّها حبالُ مشنقة.

عُدتُ إلى مرآب السيّارات. انتهى الدّرس، فأقبَلَت المدرّبة وسألَتني عمّا إذا كان لديّ فتى أريدُ أن أدرّبهُ أو أن أتدرّبَ أنا. ثمنُ الساعة التدريبيّة للفتى أربعة عشر باوندًا، وأكثر من ذلكَ قليلًا لي. أخبرتُها أنّي عشتُ هُنا حينَ كنتُ فتاةً يافعة، ولكنّها لم تكترث، وصارت تفكّرُ في مهربٍ لإنهاء الحديث.

– «كُنّا نستأجرُ الحُجرة العلويّة».

– «لم يعودوا يؤجّرونها»، قالَت، هازّةً بكتفِها.

– «كما أنّي أريدُ حجزَ ساعاتٍ تدريبيّة لابنة أختي»، قُلت. «فهلّا ألقيتُ نظرةً على بقيّة الساحة؟».

تجوّلتُ في الخلفِ قليلًا، ثُمَّ قصدتُ الحقول صعودًا. صادَفتُ بُعيد

قليلٍ امرأةً منحنيةً، تعملُ في الأرض. تجاوزتُ السياج الكهربائيّ منحنيةً، ومضيتُ صوبَها. كانت تلتقطُ الحجارةَ الحادّة وترميها إلى خارجِ الحقل.

- «هل أساعدُكِ؟»، قُلت. فمسحَت يدَها بظهرِ سراويلِها. كانت تضعُ صليبًا فضيًّا صغيرًا حولَ عنقِها، وكانَ يتدلّى جيئةً وذهابًا كلّما تحرَّكَت. كانت أكبرَ من المُدرِّبة، وصبغةُ شعرِها البرتقاليّة تبهتُ وتستحيلُ إلى بياض في مَفرقِ رأسِها. أرَيتُها صورتكِ.

- «إنّي أبحثُ عن هذه المرأة. هيَ عاشت هُنا لعدّة سنوات. في حُجرةِ الساحة العلويّة».

مسحت يدَها ثانيةً. أخذت الصورة من يدي وحدّقَت إليها - ربّما. ثُمَّ ناولتني إياها، مُباعدةً بينَ شفَتيها، قائلةً: «لست واثقة».

- «هلّا نظرتِ ثانيةً؟».

- «الحُجرة العلويّة؟».

- «نعم. كانت تنظّف الإسطبلات. وكانت برفقتِها فتاة، ابنتها، في الثالثة عشرة من عُمرها أو ما شابَه حينَ وصلَتا إلى هُنا. ولم تلتحق بالمدرسة. وكانت تُمضي جُلّ وقتها متسكّعة في الأرجاء».

- «تذكَّرت!».

- «تذكَّرتِ ماذا؟».

- «نعم. كانت دائمًا ما تُحدّق إلى المباني البشعة، والساحة المربّعة والإسطبلات المتراصّة. لقد تذكّرتُها. تذكّرتهما كلتيهِما. ولِمَ تسألينَ عنهُما؟».

- «أنا ابنةُ أختِها. وهيَ لم ترَ عائلتها منذ زمن بعيد. ومؤخّرًا ورثَت مالًا، ولذلكَ أريدُ الوصولَ إليها».

أومأت بذقنِها المُربّع، المُلطّخ بالوَحل، فمضينا نزولًا التلّة إلى المطبخ المتنقّل. اتكّأت إلى الطاولةِ بينما الإبريقُ يهتزّ لغليانِ الماء. تركتُها تبوحُ بما تتذكّر عنكِ وعنَ الفتاة التي لم تدرِ أنّني هي. رأيتُ في المَغسَل كؤوسًا مُغطّاة بعفنٍ أخضر. وعلى الأريكةِ فتاةٌ مراهقةٌ تقرأ مجلّة وتحتسي مشروبَ طاقة.

باحَت بأمورٍ لم أتذكَّرها، رغمَ أنّي كُنت أخالُني أتذكّرُ كُلّ أمر حدثَ في فترةِ مكوثِنا تلك. ومِن تلكَ الأمور التي لم أتذكَّرها: صخبُ الموسيقى الذي كانَ ينسكِبُ من حُجرتِنا العلويّة، وأنّكِ كُنتِ أحيانًا تُدرّبينَ الفِتيان على ركوبِ الخيل أو تقودينَ عربة الخيولِ إلى السّباقات. أزعَجَني ذلك. حتّى التاريخُ الذي خِلتُني واثقةً منه خذلَني. ضربتُ بقبضتي الطاولة.

صَبَّت الماءَ المغليّ فوقَ حُبيبات القهوة الجاهزة.

– «ليسَ لدينا سُكّر، ولكن لدينا بوبتارتس[5]».

– «لا داعي. هل رأيتِها ثانيةً...» قُلت مُقرِّبَةً الفنجانَ من فمي كي أشربَ منه، «بعدَ رحيلِها؟ أو هل رجَعَت؟» اختلجَت شراييني.

– «لا أدري».

– «ربّما رأيتِها ولكن لا تذكُرين؟».

أدركتُ، مِن نظرتِها إليَّ، أنّي طرحتُ سؤالي عليها بصوتٍ عالٍ. كما وضعَت الفتاةُ على الأريكةِ المجلّة من يدِها وحدّقت إليّ.

– «الناس يأتون ويذهبون. ولكن ناوليني أنظُر إلى الصورة ثانيةً».

أمسكَتها بسبّابتِها وإبهامِها، بحذرٍ كي لا تثني أطرافَها.

– «أيْ مِلَنِي!» قالَت مُخاطبةً الفتاة. «ألَم تتبقَّ مقصورات وسِخة لتنظّفيها؟».

– «بل نظّفتُها كلّها»، قالَت مِلَني.

– «لا تقولي كذِبًا!».

وانتظَرَت حتّى نهَضَت مِلَني وغادَرَت، ثُمَّ أعادت لي الصّورة.

– «رأيتُ امرأةً تشبِهُها منذ بضعة أعوام. ولكنّي لست متأكدة»، قالَت هازّةً برأسِها.

– «أكمِلي»، قُلت.

– «لا أدري. ربّما كانت هي. لم تمكث لسوى بضع ساعات ولذلكَ

5- بوبتارتس – Pop-tarts: فطائر محمّصَة، مربّعة الشّكل، حشوتُها سُكّريّة.

لم ينتبه لها أحد. وأنا رأيتُها في أثناء استراحة غدائي. ثُمَّ راحت تتسكّع في الحقلِ حيثُ كُنّا منذ قليل. ولمّا حدّثتُها ألفيتُها مضطربة».

- «ماذا تعنين؟».

أمالَت رأسَها كأنّها لا تُريدُ أن تفصِحَ عمّا تعني. ثُمَّ استأنَفت:

- «أعني أنّ عقلَها كانَ مُضطربًا. فكانت تتكلّمُ بغموض، وبدا أنّها لا تدري أينَ هي أو ماذا تفعل. ولأنَّ ثَمّتَ بيت عجائز على مقربةٍ من هُنا، ظننتُها قد أتت منه، فهاتفتُ الشّرطة. بيدَ أنّهُم لما وصلوا كانَ الظلامُ قد حلَّ والمرأةُ قد رحلَت، ولمّا هاتفتُ بيتَ العجائز أخبروني ألّا عجوزَ مفقودة لديهِم. ربّما لم تكُن هي. فالنّاسُ يضيعون فحسب، كما تعلمين»، نظرَت إليّ. «النّاسُ يأتون ويذهبون. ربّما لم تكُن تلكَ المرأةَ التي تبحثينَ عنها».

في طريقِ العودة، في الشارعِ بعيدًا عن الإسطبلات، رأيتُ الكلب جالسًا على حافة الطريق. لم يكُن حسنَ المظهر، كانَ كلبًا هجينًا، ملامحه غريبة، مُخطّطًا. كدتُ ألّا أتوقّف، ولمّا توقّفتُ اضطربَ حالُه. فصارَ يمشي إقبالًا وإدبارًا، كاشفًا عن لثتِهِ البيضاء. ولمّا أدخلتهُ السيارة، صارَ مرِحًا. راقبتهُ في المرآة إذ يجلسُ معتدلًا في المقعدِ الأوسط، مُحدّقًا إليّ. *«أنا أبغض الحيوانات»*، ضجَّ رأسي بكِ إذ تقولينَ ذلك، بصوتٍ عالٍ وواقعيٍّ كأنّكِ تجلسينَ على المقعدِ حذائي. *«أعيدي هذا الشيء إلى حيثُ وجدتِهِ!»*.

- «وأنا أيضًا لا أحبُّ الكلاب كثيرًا»، قُلتُ مخاطبةً الكلب. فأغمضَ عينيهِ كأنّهُ تعِبَ من حوارِنا هذا.

ذرَعتُ الشارع جيئةً وذهابًا بحثًا عن صاحِبَه، ولكنّي لم أرَ أحدًا، ولم يُجبني أحد في المنازل التي طرقتُ أبوابَها. كانَ من المفترض أن أكونَ في طريقِ العودة، أن أكونَ قد وصلتُ إلى بيتي وأذهبَ إلى عملي في اليوم التالي.

بيدَ أنّي ظللتُ أبحثُ حتّى انتهيتُ إلى الشارع الرّئيس. أصدرَ الكلبُ صوتًا من حلقِهِ، بدا كأنّهُ كلمةٌ مفهومة، فكِدتُ أن أضغطَ على المكابح. نهضَ وصارَ يتمشّى على المقعدِ الخلفيّ، رافعًا رِجلهُ وواضعَها. خرجتُ من الشارعِ الرّئيسِ عبر المخرجِ الأوّل. رأيتُ أنوارَ لِتِل شِف، وبرغَر كِنغ،

وسَبوِي. بالَ الكلبُ في مرآبِ فندق ترافِلُودج. عضَّني الجوعُ فابتعتُ بعضَ البطاطا المقليّة والتهمتُها متكئةً إلى السيارة. تذكّرتُ حادثةً سمِعتُ بها عن فتاةٍ وجدت في وجبتِها (هابِي ميل) سحليّةً مقليّة. كنت أحبُّ إخبارَكِ بمثلِ تلكَ القصص كي أراكِ تضحكين. شاهدتُ زوجَينِ يتخاصمانِ عند مدخل الفندق، فاتِحَينِ شِدقَيهِما ومُلوّحينِ بذراعَيهِما. دخلتُ إلى الفُندق وراءهُما، وسألتُ عن ثمنِ مبيتِ ليلة. *(خمسة وعشرون باوندًا، بلا إفطارٍ، ولكن ثمّت آلة بيع في آخر الممرّ إن أحببتِ)*. دخلتُ الحُجرة قبلَ أن أفكّرَ ماذا سأفعَل. تسلّلَت رائحة الوقودِ إلى داخلِ الحُجرة عبرَ النّافذة. رأيتُ السّجادةَ مُزدانةً برسوماتِ مثلّثاتٍ صفراءَ وسوداء، وفي المَغسَل شَعرُ أحدٍ سواي.

شقَّ ذلكَ المخلوقُ طريقَهُ عبرَ هواءِ الصّيف الحارّ، آتيًا من صوبِ الممرّ، ثُمَّ دخلَ من الباب إلى حُجرتي، وأسفلَ اللّحاف، مُريحًا رأسهُ على وسادتي. أغمضتُ عينيَّ بقوّة. شَممتُ رائحةَ أمعائهِ وما فيها، كأنّها رائحة بقرة. كان الفراشُ ملطّخًا، ويكادُ يتفسّخ. فتحتُ عينيّ، وملأتُ حوضَ الاستحمام عن آخره، ثُمَّ دخلتُ إلى الحمّام بعدما حجزتُ الكلبَ خارِجَه. لا بُدَّ أنّي نِمت، لأنّي حينَ استيقظتُ كنت غارقةً في الحوض. رأيتُ السّقفَ مغطّى ببلاطِ مَغنوليا، ورشّاش الدّوش المعدنيّ متدليًا من فوقي. حاوَلتُ النّهوض، ولكنَّ حِملًا ثقيلًا كانَ مُطبقًا على صدري. رأيتُ فقاعات الهواء إذ تصعدُ من أنفي وفمي. ضغطتُ بيدي على قاعِ الحوض كي أرفعَ نفسي، فألفيتُ الحِملَ يُثبّتُني إلى أسفَل. ولحظةَ أوشكَت رئتايَ أن تفرغا من الهواء، أدركتُ كُنهَ ذلكَ الشيء، ذلكَ الحِمل. لقد كانَ هوَ ذاكَ الذي عاهدتُ نفسي على ألّا أذكُرَهُ أو أفكّرَ فيهِ ثانيةً. هوَ ذاكَ الذي استوطَنَ النّهرَ في أثناءِ ذلكَ الشّهر الأخير. أحسستُ بالكلمة مُرّةً وخاطئةً في فمي. صِرتُ أبصِرُ نجومًا بيضاء، وأحسُّ ببردٍ رهيبٍ في حلقي.

ارتفعَ الحِمل عنّي. فخرجتُ من الماءِ ساعِلةً، دافعةً الماءَ إلى خارجِ الحوضِ حتّى فاضَت الأرضيّة بِهِ وفرَّت من الباب. تنشّقتُ هواءً كثيرًا بعُنفٍ، حتّى أحسستُ بحُرقةٍ في صدري، ثُمَّ تسلّقتُ الحوضَ وارتميتُ بقوّةٍ على رُكبَتَيّ. علا نُباح الكلب. أرحتُ وجنتي على بلاطِ الأرضيّةِ البارد، ومكثتُ على تلكَ الحالِ مدّةً طويلة.

الكوخ

إنَّ ما لا أنفكُّ أتذكّرهُ –بلا شكّ– هوَ مشهدُ هَجرِكِ لي. *«ذلكَ لأنّكِ...»*، تقولينَ لي من مقعدِكِ في الكرسيّ، *«أنانيّةٌ ودَبِقَة»*. تدّعينَ أنّي طالَما كنت كذلك. تقولينَ إنّي، على النّهرِ، دبِقتُكِ كبَطلينوس وظللتُ أعوي حتّى سقطت الأشجارِ من حولي. إنَّ من ديدنِكِ المبالغة. وإنَّ بوحَكِ بقصّتِكِ لأقربُ إلى التّنقيبِ منه إلى السّرد البسيط. أحيانًا، تُنصتينَ إليَّ بهدوء. وأحيانًا، تُقاطِعينَني فتتداخلُ قصّتانا.

أنا لا أتذكّرُ كثيرًا مما حدثَ على النّهر. وإنَّ النسيانَ، أخالُهُ، شكلًا من أشكالِ الحماية. أتذكّرُ أنّنا غادرنا المكانَ الذي سكنّاهُ منذ ولادتي، وأنَّ ماركُس لم يُغادر معنا. أتذكّرُ أنّنا جدّفنا بقارِبنا في النّهر نزولًا، مُبتعدتَين، ونَزَلنا في مدينةٍ تُقرعُ فيها الأجراسُ كُلّ ساعة. مكثنا هُناكَ لأسبوعٍ، ربّما، لا أكثر. وذاتَ يومٍ، لمّا استيقظتُ، كُنتِ قد حزمتِ حقيبةً وكيسي بلاستيك. حتّى أنّكِ لم تكترثي بتأمينِ القارب. أدركتُ ساعتئذٍ أنّنا لن نعود إلى حيثُ كُنّا. كُنتُ في الثالثة عشرة من عُمري، وكانَت دُنيايَ كُلّها في ذلكَ القارب. كُلُّ دنيايَ، وأنتِ.

جلسنا على أوّل مقعدٍ صادفناه، فضفرتِ شعري، ثُمَّ ضَفَرتُ أنا شعركِ، كأنّنا ذاهبتانِ إلى حرب. أحسستُ بكِ إذ تُهمهمينَ في نفسِكِ، وبطاقةِ أبراجِ الكهرباء أو محطّات الطّاقة تسري فيكِ. وعلى الرّغمِ من أنّكِ كنتِ صغيرةَ الحجم –وما زلتِ حتّى الآنَ وقد تجاوزتِ الستين كذلكَ وأكثر– فإنّكِ أذِنتِ لي بامتطاءِ ظهرِكِ في أثناءِ سيرِنا.

ظللنا لمّدة شهرين نلجأ إلى الفنادق المتواضعة ونكتري الأرائكَ بأثمانٍ زهيدة. غيرَ أنّنا لم نمكث في مكانٍ واحدٍ طويلًا. لم يكُن بميسورنا ذلك. في

النهاية، صِرنا نستقلّ الحافلات ونغفو مُريحتَين رأسينا على زُجاجِ النّوافذ اللّزجة، ثُمَّ نستيقظ حينَ يأتي السائق ليحثّنا على الترجُّل من حافلتِه.

مكثنا في الإسطبلِ لثلاثة أعوامٍ أو ما شابَه. وأخالُكِ صِرتِ، في تلكَ الأيامِ، جسورةً من فرطِ اليأس. ترجّلتِ من حافلةٍ، ورُحتِ تدُقّين الأبواب. أخبرنا أحدهُم أنَّ المرأةَ المالكةَ للساحةِ تؤجّرُ، أحيانًا، الحُجرة العلويّة، فذهبنا إلى هُناكَ وعثرنا على الحُجرة. ما زلتُ أذكُرُ كيفَ تفحّصوكِ من رأسِكِ إلى قدميكِ. كُنّا، كلتانا، مُنهكتينِ وقذِرَتينِ بعدَ شهرٍ من عَوَزِ النّوم والطعام. أشعلتِ سيجارةً بعقبِ أخرى. كنت مخمورة، تحملينَ زجاجة نبيذٍ، وتمسحينَ فمكِ بيدِكِ بعُنفٍ حتّى لتنزفُ شفتُكِ دمًا أحيانًا. أذِنوا لنا بالمكوث مُقابِلَ أن نعتني بتنظيفِ الإسطبلات. تسلّلنا إلى حمّامٍ قريبٍ واغتسلنا. بعد ذلكَ عمِلتِ جُزءًا من اليوم في مخبزِ غُرغُز، وصرتِ ترجِعينَ إلى البيتِ ببعضِ المخبوزات. كانت الخيولُ تقصُّ العشبَ الجافّ بأسنانِها الحادّة الصّفراء، وكُنتِ أنتِ تُفرطينَ في الشُّرب، فتستيقظينَ كُلّ صباحٍ مترنّحةً تبحثينَ عن طَوق شعرِكِ الذي تعتمرينَهُ أصلًا، وتُفرقعينَ بأصابعِكِ مُحاولةً تذكُّرَ أسماءِ الأحصنة، والفِتيان، وأيّام الأسبوع. كُنتُ، أحيانًا، أخبّئ قنّينة النبيذ كي لا تجديها، فنتخاصَم. «كيف تجرئين»، كُنتِ تقولين. «كيفَ تجرئين!» كما كُنتُ أُفرِغُ ما في القنّينة في جوفي كي أمنعكِ عن فِعلِ ذات الأمر، بيدَ أنّكِ كُنت تعيدينَ ملأها دائمًا، تاركةً النّبيذَ ينسكبُ فيها كأنّهُ جدولٌ رقراق. وكُنتِ، من ثَمَّ، تُمسينَ شاحبة. كانوا يسألوننا إلى متى سنبقى ماكثَتين، وكُنتِ ترُدّين بأنّكِ لا تدرين. لم أكُن أخجلُ منكِ حينئذٍ. أخالُني كُنتُ لا أزالُ مأخوذةً بكِ، أسيرةَ سِحرِكِ. كُنتِ كواعظةٍ، أو زعيمةِ طائفة. كانت تضُمُّكِ هالةُ طاقةٍ قادرة على ابتلاعِ من حولَها، إذ تُحرّكينَ يديكِ بينما تتحدّثين.

في آخرِ مساءٍ أمضيناهُ معًا، أخبرتِني أنّنا سنخرُج إلى مطعم. لم أكُن قد زُرتُ مطعمًا قطّ. طلبتِ نبيذًا، وسكبتِ شيئًا منه لي، وأكثرَ من ذلكَ بقليلٍ لكِ. كانَ ثمّتَ ثِقلٌ يُحيطُ بعينيكِ، وكانتَ ثمّت تجاعيد تملأ محيّاكِ وتمتدُّ على عُنُقِكِ حتّى يديكِ. لم أدرِ من أينَ حصّلتِ الثّوبَ الذي كُنتِ ترتدينه.

ولمّا قُلتِ لي: «عيد ميلاد سعيد»، حدّقتُ إليكِ لأرى ما إذا كنتِ تمزحين، فنظرتِ إليّ من طرفِ قَدحِكِ بينما تحتسين منه.

- «ليسَ اليوم عيدُ ميلادي!».

رفَعتِ كتِفَيكِ، من غيرِ هَزّ، وقُلتِ:

- «لا يهمّ. لا بُدَّ أنَّ اليوم يُصادف عيدَ ميلاد أحدٍ ما، أليس كذلك؟ على أيةِ حال، ثمّت أمر أريد أن أكلّمكِ فيه».

كنتُ فتاةً لم تتجاوز السادسة عشرة بعد. كُنا نتجادلُ جُلّ الوقت، وأحيانًا أضربُكِ أو تضربينني. كُنّا صخرةً أو بُقعةً صُلبة. ربّما لأجلِ ذلكَ هجرتِني. لا أعتقدُ أنّكِ آمنتِ يومًا بأنَّ العائلةَ عُروةٌ وُثقى بما يكفي لتربطَ أفرادَها ببعضهِم. وأنا لم أستشفَّ الآتي، إلّا أنّهُ كانَ يجدرُ بي ذلك. فقد كُنتِ تُلمّحينَ إلى ذلكَ لأسابيع، مُتحدّثةً عن الرّجالِ وأعضائِهم، ضاحِكةً.

- «عليكِ أن تحذري»، كُنتِ تقولين. «ألّا تقترفي أخطاءً تندمينَ عليها لاحقًا. هل تفهمين؟».

كُنت أومئ برأسي موافقةً، رغمَ أنّي لم أكُن أفهم. فأنا لم أكُن أعرفُ أيَّ شيءٍ عن الجِنس، حينئذٍ، إلّا أولئكَ الرّجال النّحيلين الذين كُنتِ تجلبينهُم -أحيانًا- معكِ إلى الحُجرة، والأصوات الصاخبة التي كانوا يُصدِرونَها، وصَمتكِ الهادِر.

كُنتِ تضعينَ واقيًا ذكريًّا في حقيبتِكِ، فأخرجتِهِ وأريتِني إيّاه. عضضتِ على غلافِهِ بأسنانِكِ، وانتزعتِه. ثُمَّ أجلتِ نظرَكِ حولكِ باحثةً عن أداةٍ تستعملينَها قَضيبًا، ولكن لم تجدي سِوى السكّين التي كنتِ تتناولينَ بها عشاءكِ. لم تُجدِ السّكينُ نفعًا. انتبهتُ إلى نادِلَين واقفَين عند طاولة البيع يُحدّقانِ إلينا. وإلى امرأةٍ جالسةٍ إلى الطاولة المُحاذية لنا تُحدّقُ إلينا فاغرةً فمها مُقرّبةً الشّوكةَ منه. ولكنّكِ بدَوتِ غيرَ آبهة لنظراتِهِم. أخيرًا، اخترقَت السّكينُ المطّاط.

- «فهِمتِ الفِكرة، أليسَ كذلك؟»، قُلتِ حينَ فرَغتِ. بحثتِ عن مكانٍ تضعينَ فيهِ الواقي، فدسستِهِ أسفلَ طبقِكِ.

بعدما غادَرنا المطعم، صحِبتِني إلى حانة فيها ساحة رقصٍ مربّعة ومرائي على كُلّ جِدار، وحمّامُها بلا قفل. أخبرتِ الرّجُل وراءَ المَشرَب أنّني لم

أشرب قطُّ كوكتيلًا، وطلبتِ لكلتينا عدّة أقداح، إلّا أنّي لم أشرَب أيّها خوفًا من ألّا نقدرَ على العودة إلى حُجرتِنا. وقفتُ إلى إحدى الطاولات الكبيرة غيرِ الثابتة. كانت طاولةً لزجة. رقصتِ، وصِحتِ قائلةً: إنّي مترمّتة، ورَقَصتِ وَرِكيكِ، ورَميتِ ذراعيكِ وباعدتِ بينهُما كأنّما تُريدين التقاط شيءٍ سقط من السماء. ولمّا فرَغتِ وعُدتِ إليَّ كُنتِ مغسولةً بالعرَق، باسِمة.

– «ثوبي هذا ضيّق للغاية!»، قُلتِ. أعَنتُكِ على إرخائهِ من جهة العُنُق. فتنهّدتِ ودلّكتِ ذراعَيكِ. «أريدُ أن أحدّثَكِ عن ماركُس».

هززت برأسي، وصِحتُ كي تسمعيني قائلةً:

– «لا أريد أن أسمع. أيّاً كان ما تُريدين قولَه فأنا لا أريد أن أسمعه وأعرفه».

– «هل أنت واثقة من ذلك؟»، قُلتِ وقد بدَوتِ -بغتةً- صاحيةً لا مخمورة، ودثّرتِ يدَيَّ بيدَيكِ ولمستِ بأصابعكِ وجهي. أتساءلُ الآن عمّا إذا كُنت ستبقين لو أذِنتُ لكِ بإخباري بما وددتِ إخباري به. لا أدري ما إذا كنتِ ستبقين أم لا.

– «أعتقد»، قُلتِ كأنّي تبخّرتُ فجأة. «أنّهُ كان من الأجدر بي أن أعرفَ منذ البداية!». ثُمَّ بُحتِ لي بما رأيتِهِ في النّهر، عن الجُثث الطافية والمصائد الحديديّة. حدّثتِني عن بوناك. «نحنُ من صنعناه»، ما فتئتِ تقولين. «ألا تُدركين أنّا صنعناهُ على الشاكلة التي كانَ عليها». صَممتُ أذنيَّ بيديّ حتّى ضاعَ صوتُكِ في ثنايا موسيقى الحانة.

ركِبتُ الحافلةَ أوّلًا. ولمّا التفتُّ ألفيتُكِ واقفةً على الرصيف لا تزالين، ولمّا سألكِ السائق عمّا إذا كنتِ راغبةً في الصّعود، أجبتِهِ: «لا!». حدَّقتُ -عبرَ شقِّ البابينِ إذ يوشِكانِ أن يلتقيا- إليكِ: إلى جبينِك المتغضّن، وإلى مسحوق التّجميل الدبِقِ على وجهكِ كحجرٍ جيريّ، وإلى أحمر شفاهِكِ الذي لم يعُد مرسومًا بدقّة، وإلى وجهِكِ إذ يذوي كقمرٍ حتّى التقى البابان.

مكثتُ -لمُدّة بعد ذلكَ- في منطقة الإسطبلات. وأخالهُم ما أذِنوا لي بذلك إلّا لعِلمِهم برحيلِكِ وبأنّي لا أتوفّرُ على مكانٍ آخر ألجأ إليه. حتّى

وشَت بي إحدى الأمّهات - يا لوجوههنَّ مُتكَلَّفَةِ الحُنوّ! أُدرِجت في «النّظام» لفترة -كذلكَ كانت الفتيات الأخريات يسمّينَه- فآوَتني منازلُ شتّى، منازلُ شتّى تبنّتني، ولكن وجوه أهلها كانت متشابهة. لا أتذكّرُ الكثير. سألوني عنكِ. أكثر من مرّة. سألوني عمّا إذا كان لديّ أقرباء آخرون، أو أيَّ أحدٍ يُمكنه رعايتي حتّى أبلغ الثامنة عشرة. قُلتُ لهُم لا. سألوني عمّا إذا كنتُ أعرفُ مكانكِ. قُلتُ لهم إنّكَ مَيْتة.

مكثتُ في آخر منزلٍ تبنٍّ حتّى بلغتُ سِنَّ الرّحيل. كانت المدرسة التي أُرسِلتُ إليها مُزرية، تضمُّ ألف طالبٍ وطالبةٍ أو أكثر، وفيها -بدل صالة الرياضة- سِقالات، وبدلَ الحقلِ وحل. وكانَ عددٌ من الطلاب يعيشونَ في كرافانات قُربَ سكة الحديد. لم أحبَّها وحاولتُ أن أفرَّ منها كُلّما أتيحت لي الفرصة. وذات مرّةٍ نجحتُ بالفرار حتّى النهر قبلَ أن يُمسكوا بي. لا أتذكّرُ ماذا خِلتُني سأفعل إن أفلحتُ في العودة إلى البقعة الصّنوبريّة التي كُنا نسكنُ فيها -أنا وأنتِ- على النّهر. لا أخالُ أنّي كنت متوفّرةً على خطّة. أخالُ أنَّ ذاكرةَ جسدي هيَ ما كانت تدفعُني إلى العودة إلى هُناك.

كانت اللّغة -لغتنا- هيَ ما أزلَقَني في المدرسة. قُلتُ لأحدِ الأساتذةِ إنّي بحاجةٍ إلى وقت شيش، وصِحتُ بأحد الفِتيان واصفةً إيّاهُ بِهارپيدوڈل. لم تُخبريني مرّةً، خلال كلّ تلك الأعوام، بأنّكِ صنعتِ لغةً مختلفة لا تصلُح لسوى زماننا، ولسوانا. لم تُنذريني مرّة. ولذلك، بعدَ فترةٍ، بدأ سائرُ الطلبة ينتبهون إلى كلماتي الغريبة تلك. فصاروا يُقلّدونني ساخِرين، لافظينَ الكلمات بصورةٍ خاطئة، وقائلينَها بصوتٍ عالٍ في الممرّات وفي الصّفوف. وصاروا يُلقّبونني بـ«الغريبة» أو «المُختَلَقَة» - أيّ إنني لا أريدُ أن أتحدّث بالإنجليزيّة لأنّي أكبرُ منها شأنًا، ولذلكَ اختلَقتُ إنجليزيّةً خاصّة بي.

خلعتُ عنّي تلكَ الكلمات التي ألبستنيها، وحذفتُها تمامًا. أضعتُها بمرورِ الأعوام حتّى باتت الآن -حين أتذكّرُها- غريبةً في فمي كما كانت غريبةً في أفواه أولئك الطلبة فيما مضى.

- «كأنّكِ طفلة بريّة»، قالت لي إحدى الفتيات في المدرسة، وكان اسمُها فْران. «تُشبهين الأطفال الذين يترعرعون في زنازين. تُشبهين أولئك الأطفال الذين يُقيّدون بالسلاسل في الزنازين ولا يتعلّمون حتّى الكلام».

سرَقتُ ما كانت تخبّئهُ فْران من مساحيق تجميل وقلائد، ودفنتُها. كما عارَكتُ الفِتيان الكِبار حتّى أنزلتُ الدّم منهُم، أو منّي ومنهُم. كنت ما زلتُ أذكُرُ حينئذٍ، حسبَ اعتقادي، جُلّ ما كانت عليهِ حياتُنا على النّهر، وقد كانت تلكَ المعرفةُ حبيسةً في جوفي وساريةً في عروقي.

***

كانت تلكَ أعوام البحث عنكِ. وفي كُلّ نهاية أسبوعٍ كنتُ أركبُ حافلةً وأذهبُ إلى مكانٍ قد تكونينَ لجأتِ إليه. ظللتُ أتصيّدُكِ، وأسأل عنكِ. كانت معي صُورتكِ هذه، التي ما زالت في جَعبتي حتّى الآن، وكُنت أُريها لكُلّ من أمرُّ بهِ قائلةً: «هيَ امرأة قصيرة، أقصر منّا، وشعرُها أشيَب وعيناها رماديّتان». صعُبَ عليَّ ألّا أراكِ في كُلّ شيء. مُطلّةً برأسِكِ من نوافذ الحافلات المُسرِعة، وفي ممرّاتِ المتاجر، وعند طاولاتِ المقاهي والحانات، وفي السيارات الواقفة عند الإشارات الضوئية. كنت دائمًا أراكِ ماشيةً أو راكضةً أو جالسةً أو متحدّثةً أو ضاحكةً وذقنُكِ ملتصقٌ بصدرِكِ. كنتُ أطاردُ النساءَ في الشوارع، ولكن يتّضحُ لي أنّهُنَّ لسنَ أنتِ. رحَلتِ بلا أثر. فصِرتِ شبحًا في عقلي، ومعدتي. وصرتُ أتساءل: تُرى، هل وُجِدتِ أصلًا، أم كُنتِ محضَ خيال؟.

راقَبتني فتاتان أخالهُما فعَلتا ذلك لأنّني بدَوتُ كأنّي أسبحُ عكسَ تيّارِ النّهر، فأرادتا أن تُشاهدا ما سيحدث. كانت روزي تُحبُّ الجلوس إلى جانبي في حصّة الرياضيات، وكانت -أحيانًا- تُخبرني بأشياء: كيفَ ثقَبَت أذنها، وكيفَ أشعَلَت أختُها النّارَ بطاولةِ التّنس، وإلى أينَ تذهبُ في العُطَل. كما كانت تُحبُّ الحديثَ عن مُعلّم الرياضيات، وقد كانَ جذّابًا فقط لأنّهُ يصغُرُ سائرَ المعلّمين سِنًّا. وصفَتهُ بالخجول، وعَدّدَت المُتَعَ التي تودُّ أن تُغدِقَ بها عليهِ بعد المدرسة. حينَ أستذكرُ ذلك، أعتقدُ أنّها ما اختارت الجلوسَ بجانبي إلّا لأنَّ إخباري بمثل تلك الأمور كان أيسرَ عليها من إخبار سواي من الفتيات. فقد أشعَرَها ذلكَ بأنّها تُثقّفُني وتُعلّمُني القراءة والكتابة. لم أعهد الكلمات التي كانت تتلفّظُ بها من قبل، ولا اللّغة التي كانت تتحدّثُ

بها. حتّى الآن تبدو لي كأنّها كلمات مُشَوَّشَة، نصف مُترجَمة: نَيك، نِكاح، مُضاجعة، تقبيل، قُبلة فرنسيّة.

خرجنا في رحلةٍ مدرسيّة إلى ناحية البُحيرات[6]. كانت ثمّتَ أسِرَّة طابقيّة، وجدار تسَلُّق، وبركة مارَسنا فيها رياضةَ التّجديف بالكَياك[7]، وفيها اعترَتني نوبات هلَع، وامتلأ أنفي بالماء، ورأيتُ ظلالَ سيقانٍ مُقبلة صوبي، كما لو أنّي أغرقُ في النّهر، نهرِنا، مجدّدًا. كما مارسنا التّقبيل. كانت روزي موجودةً، وفتاةٌ أخرى لا أعرفُها جيّدًا. تبادلنا القُبَل قبلَ العشاء، على الأسِرَّة أو وراءَ بِركةَ السّباحة. كانَ لفمِهما مذاق الخيار. وبعدَ كُلّ قبلة كانت كُلُّ واحدةٍ منّا تُقَيِّم الأخرى بصرامة: «استعملتِ لسانكِ بإفراط»، «لا تتلوّي كثيرًا هكذا». كانتا قد جرَّبتا التّقبيل مع الفِتيان قبلَ ذلك، بيد أنَّ تلكَ كانت تجربتي الأولى. ظلَّ التّقبيلُ يشغلُ بالي طيلةَ الرّحلة. لم يكُن التّقبيل، حسبما فهِمت، خاتمة طريق المُداعبة. بل ممرًّا مُفضيًا إلى الخاتمة. فكَّرتُ فيكِ، وفيما فعلتِهِ في المطعم ليلتئذٍ، وأنتِ تُمسكين الواقي بيدِكِ. شغلَ الأمرُ بالي بصورةٍ مُفرطةٍ حتّى صِرتُ أجِدُني قد عَمِيتُ وصُمِمتُ عن كُلّ ما حولي.

في أثناءِ التّقبيل، رأيتُ ماركُس قد خرجَ من بينِ نَهدي الفتاة التي أقبِّلُها، كأنّهُ كانَ ينتظرُني هُناكَ منذ زمن. بثَّ فيَّ التّقبيلُ شعورًا محمومًا، جنونيًا. أحسستُ بِفَم كلتا الفتاتينِ بارِدًا، بيدَ أنَّ ماركُس الذي انبعثَ من بينِ نهديهِما كانَ دافئًا للغاية. كُنت أحيانًا أنظرُ إلى أيديهِما المُستريحة على ساقَيَّ، فألفيها كَيَدَيه حتّى لأكادُ أصابُ بالفزَع. والحقُّ أنّي كلّما أغمضتُ عينيَّ وأنا أقبِّلُ أحدًا، صارَ ذلكَ الأحدُ هوَ. وددتُ أن أسألكِ ما إذا كنتِ تختبرينَ ذاتَ الأمر حينَ تُغمضينَ عينيكِ في أثناءِ التّقبيل؟.

لاحقًا، ساءَ الأمر. فصِرتُ أراه، متكوّمًا على نفسه، مُنتظرًا، مُغمضَ العينين، في النّزع الأخير. وصِرتُ أحسُّ بأنفاسِهِ قُبيلَ دخولِها رئتيه، وأسمعُ نقرَ لسانِهِ القَلِقِ على سقفِ فمي. صِرتُ أحسُّ بمَرضٍ يسكُنُه، وبطحالبَ

6- ناحية البُحيرات – Lake District: منطقة غابات وبُحيرات تقع في شمال غرب إنجلترا.

7- كَياك – Kayak: قارب صغير، لا يتسع لسوى راكب واحِد، وله مِجداف ثنائيّ، يُستخدم في المنافسات الرياضيّة.

تدثّرُ رئتيه ومعدته وتسري في عروقِه. كانَ يسكُنُه شيءٌ من النّهر، أحسستُ بذلك. حينَ أفكّرُ بذلك، أرى شيئًا يتحرّكُ في مرآةِ عقلي، كأنّهُ لطخة لون. لم أدرِ ما هو، ما دَريتُ إلّا أنّهُ شيءٌ أريدُ البُعدَ عنه ما أمكَن. لم أقدِر على احتمال فِكرة خروجِهِ من أفواهِ الآخرين، زاحِفًا، مُستعينًا بأصابِعِه، شاقًّا طريقهُ كدودةٍ في حُلوقِهِم. لم أقدر على احتمال ذلك، ولم أقدر أيضًا على التوقف عن التفكير فيه. لم أقدر على التوقف عن التفكير في إحساسي، حينَ أكونُ منشغلة بمضاجعة فتى فيما بعد، لحظة أرى وجهَ ماركُس قد أطلَّ عليَّ من وجهِ ذلكَ الفتى. حينَ أخبرتُ الفتاتين أنّي لا أريدُ تبادل القُبَل معهُما مجدّدًا، هزّتا بكتفيهما وقالَتا: *لسنا سحاقيّتين على أيةِ حال!*.

الكوخ

بعدما عثرتُ عليكِ على النّهر، وأعدتُكِ إلى بيتي، صارَت تعتريني رؤيا. أراني فيها جالسةً في قبوِ مكتبِ القاموس الذي أعملُ فيه. أجِدُه قبوًا بلا نوافذ، مُضاءً بمصابيحَ مُعلّقة تتدلّى من السّقفِ الوسِخ، المكسوّ بالألواح. أجِدُ أيضًا خزائن ملفّات حديديّة مرصوصة في صفوف. عشرٌ منها مرقّمة بكلماتٍ مكتوبة بالعكس، وعشرٌ أخرى مرقّمة بكلماتٍ أضحَت –بمرور الزمن– غيرَ مستعملة. كما أجِدُ آثارَ أيدٍ على الجُدران، وآثارَ أقدام عتيقة مُغبَرَّة على الأرضيّة، وضوءًا مُشعَلًا في حُجَيرة الحمّام، ولكن لا أحدَ يُجيبُ حينَ أطرقُ بابَها. مدفوعةً بالفضول، أنظرُ في خزنةِ حرف الباء، وأفتّشُ في بطاقاتِها الصُّفر، بيدَ أنّي لا أجِد أثرًا لتلكَ الكلمة: بوناك. بالطّبعِ لا أجدُها، إذ إنّها ليست كلمةً أصلًا. لا وجودَ حقيقيَّ لها.

أقصِدُ الممرّ إلى اليسار. أدرِكُ أنّي أحلُم، لأنَّ الممرَّ في الواقع حديثٌ إذ إنّهُ جُدّدَ منذ مدّة طويلة، حتّى قبلَ أن أبدأ العمل في المكان، بيدَ أنّهُ في الحُلم قديم ولهُ باب مُقَضَّبٌ كبابِ قفص، دفَعتُهُ جانبًا، ولهُ جدرانٌ قد بهتَ لونُها المخمليّ. يتحرَّكُ الشيءُ ببطءٍ، مُحدثًا ضوضاءَ إذ يتنقّلُ بينَ الطّوابق. أصِلُ إلى طابقِ المكتَب. لا أجِدُ هواتفَ على المكاتِب، وأجِدُ سمّاعةَ هاتِفِ إحدى مقصورَتي الهاتف –الواقعَتينِ في الزاويةِ– متدليّة. ألتقِطُها ظانّةً أنّي سأسمعُ صوتكِ، بيدَ أنّي لا أسمعُ شيئًا، ولا حتّى نغمةَ رنين.

أجِدُ آلة القهوة في المطبخ دافئةَ الملمَس، والثّلاجة –التي فتحتُ بابَها– ملأى بحافظات الطّعام الموسومة بدقّة. *(أروندانتي). (غير صالح للأكل). (نات 2017/4/13). (بِنجي)*. وعلى جُدران الممرّ مُلصقاتٌ تحتَ

على الصّمت. أنتقلُ إلى قِسم المقصورات. ألفي جُلّ الحواسيبِ مُشغَّلة، والمكاتِب المُرتَّبة موسومة ببطاقاتٍ مختلفة الألوان، وأطباق الرسائل الواردة والصادرة ملأى عن آخرِها. أسيرُ إلى مكتبي، ولكنّي ألفي عليه – حينَ أصِل– أغراضَ شخصٍ سواي: تُفّاحة حمراء عليها أثرُ أسنان، وإناءً فيهِ بيضٌ مخلّلٌ ضارب إلى الخُضرَة، وموسوعةً بعضُ صفحاتِها مطويّة. لمّا جلستُ في الكُرسيّ، ألفيته غيرَ مُريح، وقد رُفِعَ شيئًا ما ليُناسبَ شخصًا أقصَر منّي. أبحثُ في الحاسوب عَلّني أجِدُ أثرًا يدُلّني على هويّة الشّخص الذي سرقَ مكتبي. ثمَّتَ رسائل إلكترونيّة ولكنّها موقّعة فقط، كلُّها، بحرف ‹س›. أسمعُ ضوضاءَ في المكتب. أهبُّ واقفةً وأجيلُ النّظرَ من فوقِ المقصورات. أضيئَت الأنوارُ التلقائيّة في الجانب الآخر من المكتب، ثُمَّ –بينما أراقبُها– انطفأت ثانيةً. أجلسُ ثانيةً، وأشرعُ بقراءةِ معاني الكلمات أمامي. بعضُ الكلمات ممحيّة حتّى لا أكادُ أفلِحُ بسوى قراءةِ جزءٍ منها. *صوتُ النّهر ليلًا. لحظةٌ من العُزلة*. وفي قاعِ كومةِ الكلمات كلمةٌ مكتوبة بوضوح، ***بوناك***: *ما يُخيفُنا*. رؤيةُ هذه الكلمة، حتّى في الحُلم، كفيلةٌ بهزِّ أركاني. أغطّيها بيدي.

أسمعُ صوتَ شيءٍ سقطَ على الأرضيّة المغطّاة بسجّادة. أهبُّ واقفةً، وأقصِدُ الممرّ الرّئيس بينَ الجدارِ والمقصورات. أُلفي طرفَ السّجادة مثنيًّا كأنَّ حذاءَ أحدهِم علقَ بِهِ في أثناءِ السّير. أسوّيهِ بالأرض. فوقَ رأسي، أصدرَت ألواح السقف قرقعة، منزاحةً لتكشفَ عن شبكةِ الأنابيبِ والأسلاكِ وراءَها. أنتبهُ إلى حركةٍ سريعة. يسقُطُ لوحٌ من السّقفِ على الأرضيّة ويتهشّم. ويتلوهُ غيرُه متهشّمًا على الأرضيّة أو ساقطًا على المقصورات ومُرتدًّا عنها بعيدًا. يتلو ذلكَ انهمارُ ماءٍ وسِخٍ، مُرَشَّح ولكنّهُ مختلطٌ بحشائش، وشِباكٍ ممزّقة تُفرِغُ سمكًا لا يلبثُ أن يسقُطَ على السّجّادةِ حتّى يَنفُق. يواصِلُ الماءُ انهمارَهُ من السقف. أسمعُ صوتَ شيءٍ فوقَ رأسي، سريعٍ، يهُزُّ زجاجَ النّوافذ. أسمعهُ إذ يسقطُ أرضًا ورائي. لا ألتفت. بل أستمعُ إليه إذ يتحرّك على الأرضيّة. أُسِرُّ في نفسي: *‹أنا أعرفُ ما أنت›*. إلّا أنّي حينَ أستيقظُ أجِدُ نفسي قد نسيتُ ما هو.

في الصباحِ الذي تلا رؤيتي لذلكَ الحُلم أوّل مرّة، أُلفيكِ جالسةً إلى الطاولة ترتدينَ بيجامة نومي وخُفَّيّ، تأكلينَ برتقالًا وبيضًا مسلوقًا، مُكوّمةً

قِشرَه. كنتِ قد مَشَطتِ شعركِ فأصبحَ منسدلًا فوقَ رأسِكِ كأنّهُ قبّعة سباحة. تبصقين في يدِكِ وتقولين لي إنّني كنتُ أصرخُ في الليل، وتسألينني عمّا إذا كانَ ذلكَ أمرًا متكرّرًا أم لا؟ لأنّهُ إذا كانَ متكرّرًا، فسيتوجبُ عليَّ الانتقال إلى فندق كي أتركَكِ تنامينَ في سلام.

ثمَّتَ، بيننا، عقودٌ من سيّئ المشاعِر، ومستنقعٌ من سوءِ الفَهمِ وأعياد الميلاد المُفَوَّتة وفترة شبابي الضائعة كلّها، وثَديٌ مستأصَلٌ لم أشهَد عمليّة استئصالِه. أفكّرُ في لمسِ وجهِكِ بذاتِ الطّريقة التي كُنتِ تلمسينَ بها وجهي حينَ كُنّا في الإسطبلات. لا بقوّةٍ، بل بحنوّ.

تقشّرين لي بيضةً، وتقولين:

- «ثمَّت أمرٌ تذكّرتُه».

كانَت أزرارُ بيجامتِكِ محلولةً قليلًا، فأمكنتني رؤية النّدب العرضيّ مكانَ ثَديِكِ الأيسر المُستأصَل.

تأكلين البيضة، وتقولين:

- «ماذا تذكَّرتِ؟ شيئًا عن الشّتاء الذي أمضيناهُ مع ماركُس؟».

تلوّحين بيدِكِ، نافدة الصّبر، ثُمَّ تمسحين بها فمِكِ وتقولين:

- «لا، لا!».

- «حسنٌ. ماذا إذًا؟».

تحدجينني بنظرةٍ، مُضيِّقَةً عينَيكِ، فتبدينَ كشخصٍ اختطَفتْهُ من البريّة، بأظافرِكِ المتّسخةِ وشعرِكِ الذي يشبهُ جلدَ فقمة. أجلسُ منتظرةً جوابَكِ. تبدينَ كأنَّ في جَعبتِكِ كلماتٍ فائضة عن حاجتِكِ. وفائضةً عن حاجتي أنا أيضًا. فإذا بها تنسكِبُ من فمِكِ.

سارة

تُستَهَلُّ القصّة -كما أعرفُ الآن- بكِ. هذه -على شاكلةٍ خالَفَت توقّعاتي وإطارَ بحثي- هيَ قصَّتُكِ، وقصّة الرّجل الذي كانَ من المُحتمل أن يكونَ أبي.

كنتِ في الحادية والثلاثين من عُمرِكِ. وكانَ عامئذٍ 1978 تقريبًا. لم تدر، ولكنَّ مسبارًا انطلقَ إلى زُحَل، وسيجِدُ أنَّ الكَوكَب يُمكن أن يطفو على الماء، حالَ وضعناهُ في مُحيطِ ماءٍ يتّسع له[8]. إنَّ طولَ اليوم في زُحل جِدُّ قصير، لا يزيدُ على عشر ساعات. وفي ذاتِ العام، أُدرِجُ في قاموسِ أكسفورد مُصطلحا: ‹مكالمة ترويجيّة› و‹أزمة سير خانِقة› لأوّل مرّة. قالَ لكِ الطّبيب، في قسم الجراحة الذي كُنتِ تعملينَ فيه موظّفة استقبال -مُغازِلًا وهامًّا بسرقةِ بعضِ البرتقالة التي جلبتِها معكِ غداءً: إنّ لكِ وَرِكَي امرأة حبلى. تكلَّفتِ ابتسامةً، مُزدرِدَةً الإهانة. فهِمتِ أنّهُ قصَدَ إخبارَكِ بأنّكِ لستِ نحيلة. كُنتِ قصيرةً، وبالكادِ تبلُغينَ كتِفَيه، بيدَ أنّكِ لم تكوني نحيلة. كانَ لكِ جسمٌ ممتلئ، ومؤخّرة بمقدورِها أن تحملَ حقيبةً سمينةً، وفخِذانِ في حجمِ أظهُر بعضِ الفتيات. كانَ جسدًا -كما أدركتِ لاحقًا- يبُثُّ نوعًا من الإرباكِ الذي ينقلبُ في آخر الأمر، وبسهولةٍ، إلى صالحِكِ. كانَ، في المدرسةِ، مُختلِف أصنافِ الفِتيان: الرياضيّون المُغَطّونَ بالعرقِ وآثارِ العُشب، ومُحبُّو العلوم مسفوعي الأصابع، وفارِعو الطُّول والقصيرون، والنّحيلونَ والسّمينون. وقد

8- فضلًا عن أنّهُ ثاني أكبر كواكب المجموعة الشّمسيّة حجمًا، فإنَّ زُحَلَ يمتازُ على سائر الكواكب بأنّهُ يتألّف -في مُجمله- من الغاز، وبذلك يكونُ أقلَّ كثافةً من الماء؛ وبالتالي سيطفو على الماء.

كانَ صِباكِ اللّذيذُ، حسبما أفهمَكِ أولئكَ الرّجالُ، مصنوعًا خصّيصًا كي يتلذّذوا به. كانَ جُلُّهُم أكبر منكِ سنًّا، أولئكَ الرّجال الذين كانوا يملؤونَ ذات الحانات التي كُنتِ ترتادينَها، والرّجال الذين كانوا يصطفّونَ في طابورٍ منتظرينَ سيّارات الأجرة، والرّجال الذين كانوا يحملونَ أكياسَ البضائع، أو يتوقّفون ليربطوا أربطةَ أحذيتِهِم قبلَ أن يركبوا القِطارات، وقبل أن يفتحوا لكِ الباب. الرّجال الذينَ كانوا يحبّون قهوةَ إكسبرِسُّو، وأطباقَ لحم التارتار[9]، وماكارون الشيكولاته البيضاء. الرّجال الذين كانوا يستمتعونَ بالأفلام المترجمة، ويكتبونَ ملاحظاتٍ في حواشي الكُتُب ثُمَّ يعطونكِ إياها- بعدما يفرَغون من مضاجعتِكِ في شققِهِم المَدَنيّة أو مقصوراتِهِم البريَّة أو بيوتهم الريفيّة ذات الممرّات التي تُشبهُ الحُلوق وتُفضي إلى أبوابٍ تدخلين منها وتخرُجين. الرّجال الذين كانوا يُفضّلون أن تكونَ حمّالات الصّدر رفيعةَ الأحزِمة، والألبسةُ التّحتيّةُ قطنيّةً سَوداء، ويُحبّونَ المُضاجعةَ في الأسِرَّة ذات الأعمدة، ومقصورات الهواتِف، وبِرَكِ السّباحة.

ولمّا التقَيت بتشارلي، كُنتِ كبيرةَ السِّنّ والخِبرة، وكانَ هوَ خاتَمَ قائمةِ رجالٍ طويلة. كُنتِ قد انفصلتِ انفصالًا مؤلِمًا عن أستاذ جامعيّ كانَ يرتادُ -أحيانًا- المقهى الذي كُنت تعملين فيه. أستاذ يكسو رأسهُ شعرٌ أشيب ملكيّ، وكانَ كُلَّما أصبتِ نشوتكِ وفرَغت من مضاجعتِهِ يجلسُ على طرفِ السّرير ويبكي. أخبركِ -إذ نهضَ ليُغادِرَ للمرّة الأخيرة- بأنّهُ لن يعودَ إليكِ، لأنّكِ تُشبهينَ ابنتَه. والتفتَ إليكِ حينَ وصلَ إلى الباب -وقد غسلَت مُحيّاهُ الدّموع- وقالَ إنّهُ تخيَّلَ أنَّ ابنتهُ قد تكونُ عاهرةً مثلكِ. هكذا فحسب. أقسَمتِ ألّا تقرَبيهُم مرّةً أخرى، بمُختلِفِ أصنافِهِم: رِجال الحُلل وربطات العُنق، ورِجال أثوابِ الجِراحة والألبسةِ التحتيّة الحمراء والجوارب المكتوبةُ عليها أيّام الأسبوع. وبالأخصّ الرّجال الأكبر سنًّا الذينَ خالوا أنّكِ مدينةٌ لهُم بشيء، بقضمةٍ لذيذةٍ من صِباكِ الذي ضيَّعوه.

رضيتِ بالوظيفةِ في مستشفى ذلكَ الطبيب لأنّهُ بدا (بسقفِهِ وجدرانه

9- لحم التارتار - Tartare-Steak: شرائح اللّحم بصلصة التارتار. طبقٌ فيه قطعة لحم بقري نيء (مفروم فرمًا ناعمًا)، وفوقَها صفارُ بيض نيء أيضًا. وإنَّ لفظة «تارتار» تُطلق على كُلّ لحم نيء، بما في ذلكَ لحم السّمك.

البيضاء، وبفُرُشِه التي لطّخَ أطرافَها القِدَم، بمكنسةِ هِنري التي كان لزامًا عليكِ تنظيفُ الأرضيّة بها صباحَ مساء، وبالأغطيةِ الزّرقاء التي كانت تغطّي أسِرّته الطبيّة متهتّكة الجِلد) مكانًا لا شهوانيّةَ فيه. حتّى ذلك الطّبيب -وقد كانَ نوعَكِ المفضَّلَ من الرجال لدرجةِ أنَّ قلبكِ هوى حينَ رأيتِهِ مُقبلًا مُترنّحًا في يومِكِ الأوّل- الذي كانَ لا ينفكُّ يسرق بعضَ برتقالتِكِ ويعرضُ عليكِ بعضَ نبيذه السريّ، فإنّهُ لم يُزحزِحكِ عن قسَمِكِ السابق. فكَّرتِ أنَّ سِنَّ الثلاثيناتِ هوَ سِنُّ التبتُّل. عقدُ التبتُّل. كانت جُدران الشقّة التي استأجرتِها مكسوّةً بورقٍ ورديٍّ مُصفَرّ، وكانت على البساط بُقع أقدامٍ آخرين. عِشتِ حياةَ عانِس. طلبتِ طعامًا صينيًّا من المطعم أسفلَ شقّتِكِ، والتهمتِهِ على مقعدٍ على قارعة الطريق بينما تُشاهدين السيارات المُسرِعة. رتّبتِ مرارًا الأدراجَ في العيادة: أشرطة التغليف الحمراء، والمشابِك التي تكادُ يدُكِ تفيضُ بها، وأسنانُ المِثقابِ التي تُحدِث حُفرًا دائريّةً كاملة.

ذات صباح -والمللُ متغلغلٌ فيكِ حتّى ليَكاد يُفقِدُكِ صوابكِ- سلكتِ دربًا مختلفًا نحوَ العيادة، قاطعةً زقاقًا حذاءَ الجِسر، مُطقطقةً بنعلِكِ ذي الكعب العالي، ثُمَّ سالكةً دربًا مُحاذيًا للقناة. ألفيتِ ثَمَّ بَطًّا على ماءِ النّهر المُزَيَّت، وقواربَ مهلهلةَ الأبواب على ظهورِها أصصُ زهور. ولمّا قطعتِ منتصفَ الدّرب ألفَيتِ قاربًا أخضرَ راسيًا، ورجُلًا جالسًا في مؤخّرتِه رافعًا ساقَيه وإلى جانبهِ كوبُ قهوة يوشكُ أن يبرُد. كانت يداهُ كأنّهُما تَبريانِ شيئًا، ولكنّكِ لم تَرَي ما هو. لاحقًا، ستفكّرينَ في تلك اللحظة. كان القاربُ راسيًا في الجانبِ المُعشَوشِبِ المُوحلِ من النّهر. وكانَ جسدُ الرّجُل النّحيل مُستندًا على ساقيه الطّويلتين، والمطرُ ينهمِرُ داقًّا على خشبِ الجِسر فوقكُما، فأمكنَكِ -للحظةٍ- أن تسمعي نفسكِ إذ تفكّرينَ فيه، بجديّةٍ تفكّرينَ فيه إلى درجةٍ كانَ حقيقًا بكِ أن تُدركي أنَّ الخاتمة لن تكونَ جيّدة. لم تفهمي ماذا جذبكِ فيه. فقد كانَ نحيلًا للغاية ومُفتقرًا إلى النّباهة أيضًا. ورغمَ ذلك، ألفيتِ نفسكِ -كُلّ صباحٍ وكُلّ مساء- قد صِرتِ تسلُكينَ ذلكَ الدّرب الطويلَ إلى العيادة، مرورًا بالقناة. أبطأتِ السّيرَ في كُلّ مرّةٍ أكثر، حتّى -ذاتَ يومٍ- توقّفتِ عنده فحدَّقَ إليكِ.

لم توافِقِ أوّلُ مرّةٍ ركِبتِ فيها قاربَهُ تخيّلاتِكِ. بدا -أحيانًا- غيرَ منتبهٍ

لوجودِكِ، فتُفكّرين ما إذا كانت ثمّتَ نِسوة سواكِ امتطَين متن هذا القارب. سألتِهِ إن كانَ لديه شاي، ولمّا أخبركِ بأن ليسَ لديهِ سوى الويسكي، احتسيتِ منه شيئًا. ألفيتِ نفسكِ تتأمّلين جسدَه. كانَ لهُ قوامٌ مُقتصِد. كانَ غالبًا ما يتشبّث بحزام بنطالِه بكلتي يديه كأنّما كان بطنهُ شحيمًا في السابق. كما كانَ يتكلّمُ ألغازًا، رموزًا وأسرارًا. وكانَ يضحكُ بإفراط. وأخبركِ أنّهُ كانَ يَبري شَرَكًا. «تبري ماذا؟»، ولكنّهُ لم يُوضِّح. كُنتِ -غالبًا- تُلفينَهُ يطبُخ حينَ تأتينَه. أخبرتِهِ أنّكِ لا تقدرينَ حتّى على إعدادِ شطيرة توست، فاستنشَقَ هواءً كثيرًا، وهيّأكِ، وناولَكِ سكّينًا. قالَ لكِ إنَّ الطعامَ يصيرُ مالحَ المذاق حين يجرحُ الطاهي يديه كثيرًا في أثناء إعدادِه. كانَ يشحذُ سكاكينَهُ بحِزامِه. ألفيتِ كُلّ طعامٍ لديهِ لاذعًا بيد أنّكِ تظاهرتِ بعكسِ ذلك. وكُنتِ حينَ تُداعبينَ نفسكِ، في حُجرتِكِ، تلتذِعينَ بسببِ التّوابل الحارّة على أصابعِكِ. علَّمَكِ الرّجُل -في الدّرب المُحاذي للنّهر تحتَ ضجيج المطر- التدخين أيضًا.

مكثتِ طويلًا، طويلًا. انقطع الماءُ والكهرباء عن شقّتِكِ. وانقطعَ الطّبيبُ عن مهاتفتِكِ. لم يطلُب منكِ الرّجُلُ أن تبقي معه في القارب، بيدَ أنّهُ -في جُلّ الليالي- كانَ يعتليكِ، فبقيتِ. أرهفتِ السّمع إلى صوتِ المطر إذ ينقُرُ على سطح القارب، وصوتِ القطارِ إذ يمُرُّ سريعًا على مقرُبة. وأرهفتِ السّمع أيضًا إلى وجيفِ قلبِهِ المتأنّي.

كُنتِ في الصّباحات -بينما تُحرّكين الطّعامَ في قُدورِ مطبخِهِ الكبيرة أو تتشمّسين وتُدخّنينَ على سطح المركب- غالبًا ما تسمعين صوتًا. ماذا كان؟ كُنتِ حينَ تستقيمين أو تضعينَ الملعقة الخشبيّة جانبًا، يدنو الرّجُلُ منكِ ويدخُلُكِ، مُحدثًا صريرًا كمنزلٍ خشبيٍّ عتيق تُشاكسهُ الرّيحُ الغربيّة، أو كقاربٍ يميدُ بهِ تيّارٌ غاضِب. بدا مُختلفًا عن كُلّ مَن سواه من جميلي الأجسادِ وحَسَني الوجوه. مُختلفًا بشكلِ يديه الثّقيلَتين، وعمودِهِ الفقريِّ الناتئ من جلدِهِ، وقاربِه الطافي تحته. قالَ لكِ إنّهُ حَلُم بأنّه قد عَمِي، واستيقَظَ فلم يُبصِر سوى ليلٍ أسوَد ودبّوسٍ يُقبلُ مُسرِعًا صوبَ بؤبؤَيه. أحَبَّكِ بكُلّ ما أوتي من قوّة، فكانَ مُختلفًا بذلكَ عن كُلّ من سواه. في النّتيجة، ظهرَ أنَّ سنّكِ هذهِ ليست سنّ التبتُّل. بل ربّما كانت سِنّ شيءٍ آخر.

كانت ثمّت فتيات، نشأتِ برفقتهِنّ، لم يرغَبن بشيءٍ قدرَ رغبتهِنَّ بإنجاب أطفال لدرجةِ أنّهُنَّ كُنّ يعجَزن عن صَوغ رغبتهِنَّ تلك بالكلمات – وجعٌ هرمونيّ. أمّا أنت فلم تكوني مثلهُنّ. فلم تكوني ترَين جسدكِ آلةَ وَضع، مُلحَقًا لمخلوق آخر. اعترتكِ قَبلُ مخاوف، وقلق، ودورات شهريّة متأخّرة. بيدَ أنّها لم تُفضِ إلى شيء، فكانَ ذلكَ يُثبِتُ لكِ كُلَّ مرّةٍ أنّكِ عاقر، ولم تُخلقي للحملِ والوَضع. صُنِعَت بعض الآلات للقصّ أو المَلء أو تشكيلِ الأجسام، وبعضُها لم يُصنع لذلك. وكذلكَ أنتِ لم تكوني متوفّرةً على آليّةِ صناعة الأطفال. وعلاوةً على ذلك –وقد كُنتِ كُلّما كبُرتِ فهِمتِ أكثر– لم تكوني متوفّرةً على الرّغبة في ذلكَ أو التّصميمِ عليه. فقد كُنتِ من صِنفِ الهارِبات، المُستسلِمات. كانَ ذلكَ من ديدنِكِ، كنَسَقٍ ممتدٍّ وراءكِ يُشبِهُ أثرَ فُتات خبزٍ تتبعينهُ –إن رغِبتِ– فتنتهينَ إلى إثباتِ أنّكِ لستِ من صِنفِ النساء اللاتي يُعتمدُ عليهِنّ.

رغم ذلك، كانَ أحيانًا يُحدّثكِ عن الأطفال الذي طالما حلُمَ بهم. وكُنت تُفسحينَ لهُ المجال للحديث. بدا أنّهُ لم يكُن منتبِهًا إلى صمتِك. كانت منغرِسَةً فيهِ رغبةُ إنجاب الأطفال مُذ كانَ صبيًّا يعتريهِ أملٌ أن يكونَ أفضل حالًا من أبوَيه.

ذات صباح: ووجههُ مشتعلٌ شهوةً، ويداهُ تُداعِبانِكِ بذكاءٍ وامتنان، أذِنتِ لهُ بإلقاءِ حُزمة الواقيات في القناة. «أواثقةٌ أنتِ؟» ظلَّ يقول: «هل أنتِ واثقة؟». الحقُّ أنّكِ –إذ كانت يداهُ مدسوسَتَين في لباسِكِ التحتيِّ مطّاطيّ الحزام– لم تكترثي بالأمر. لِيَفعل ما يشاء، وليشتهي الأطفال قدرَ ما يشاء. لن ينتهي مسعاهُ إلى شيء. كُنتِ متيقّنة من ذلك. فأنتِ لم تُصنَعي للإنجاب.

خُلِقَ الطّفل فيكِ، رغِبتِ بذلك أم لم ترغبي. ظللتِ متيقّنةً من أنَّ ذلكَ مستحيلٌ حتّى فاتَ أوانُ منعِه. سمِنتِ بسُرعةٍ فائقةٍ كأنَّ شيئًا يكبُرُ فيكِ ملتهِمًا أعضاءكِ، سارقًا حيّزَكِ. لم تعودي قادرةً على التحرُّكِ بسهولةٍ في القارب، والقفز من القارب إلى الضفّة، وفتح الأقفال الثقيلة. لم تُخبريهِ بأنّكِ لم تكوني راغبةً قطُّ في الإنجاب، ولكنّكِ مستعدّة لفِعل ذلك، لا لشيءٍ

إلّا لإسعادِه. فالنّساءُ يُنجِبنَ طوال الوقت. يوميًّا، وبلا تفكير. كُلُّ حَبيبَين يُنجِبانِ، لأنَّ في أطفالِهِما بعضًا مِن كليهِما. أمّا أنتِ فأنجبتِ طفلكِ لأنَّ فيهِ بعضًا من حبيبِكِ.

(2)

أشياءُ تضيعُ في الليل

الكوخ

صارَ البيتُ مختلفًا بوجودِكِ. فأصبحَت الثلاجة تفرَغُ من الأكوابِ والأدويةِ في الليل. وأعدَتني طريقة تفكيرِكِ، فصِرتُ أجِدُني أنسى الأيام، وتسلسُلَ الأسابيع. والصّراعات التي أحاولُ تفاديها –ولكنّها تفيضُ منكِ لتُغرِقَني– تستمرُّ ليالٍ بطولِها وتنتهي ببُكائكِ في حوضِ الاستحمام. والوساوِسُ التي تعتريكِ. واليومُ الذي تُمضينَهُ في إعدادِ أوعيةِ الكاري، فتصطبغُ يداكِ بلونِ الكُركُم البرتقاليّ، ثُمَّ يعتريكِ مللٌ خانقٌ وحيرةٌ ساعةَ تَفرَغين من إعدادِها، فلا تأكلين شيئًا منها. واليوم الذي نُمضيه عند الجدوَل، فتصطادينَ السّمك بيديكِ العاريَتين، مُقعيةً لساعاتٍ عند الماءِ المنخفضِ بطيء الحركة بينما تمُدّين يديكِ صوبَ سمكٍ لا أراه ولا أخاله موجودًا هُناك. تعتريكِ، أيضًا وساوِسُ الحَتميّة، والقَدَر الذي لا مفرَّ منه. يظهرُ عليكِ سَمتُ هلاكٍ مُحَتّم، يُسَيِّرُ جسدكِ المُضنى في أرجاءِ بيتي. لا تفتئينَ تقولين: «أنا أعرفُ ما سيحدث» وحينَ أسألكِ، غاضبةً أكثرَ كُلَّ ثانيةٍ، لا تُجيبينَ بِسوى ألّا مفرَّ أمامنا، وأنَّ نهايتنا مُبرمَجةٌ فينا مُنذ لحظة ميلادِنا، وأنَّ كُلَّ القرارات التي نتّخذها لا تعدو كونَها محضَ خيالات، أشباح توهِمُنا بأنّنا نتوفّرُ على إرادةٍ حُرّة. أوَدُّ أن أصيحَ بكِ أنّكِ التي اخترتِ هَجري، وأنَّ أحدًا لم يُرغِمكِ على ذلك، وأن ليسَ بميسورِكِ أن تتنكّري لقراراتِكِ السّقيمة وتُعلّقيها على شمّاعةِ القَدَر أو الحتميّة أو الله. بيد أنّي أتساءلُ، أحيانًا، ما إذا كُنتِ على صواب، وما إذا كانت خياراتُنا كلّها مُجرّدَ آثار لقراراتِنا التي اتّخذناها فيما مضى، كأنّها شظايا قنابلِ أفعالِنا السابقة. ولكنّي لا أفصِح لكِ عن تساؤلاتي تلك. بل أحاولُ ألّا أستمع إليكِ إذ تتكلّمين، وأصنعُ لكِ شايًا، وأنامُ ساعةَ تنامين – كأمٍّ تنامُ مع رضيعِها وهيَ لا تدري بعدُ كيف ترعاه.

أفكّرُ في ماركُس، ولمّا أسألُكِ ما إذا كُنتِ تذكُرين لقاءكِ الأوّل به تقولين: «ماذا؟ عمّن تتكلّمين؟». غيرَ أنّي أعرفُ من النّظرةِ في عينيكِ ومِن تفاديكِ السّؤالَ أنّكِ تعرفين. أستذكِرُ شذرةً، لستُ واثقةً ممّا تعنيه، وحينَ أسردُها عليكِ تغضبينَ وتكسرينَ إحدى النّوافذ. بخوفٍ، يُحدّقُ إليكِ الرّجُل الذي أتى لإصلاحِها. فتفغَرين فمكِ، ثُمَّ أطبقتِ فكّيكِ بقوّةٍ، فيقفزُ الرّجل من مكانه فزِعًا. «اعتدتُ التهام الرّجال أمثالك على الفطور حينَ كُنت في سنِّها»، تقولينَ مُشيرةً إليّ.

بالكادِ أسمعُ ما تقولين. تفترشُ الذّكرى البيتَ المتّسخ، ويَدَيكِ المُبرَّئتَين، وزُجاج النافذة الجديد، وصندوق عدّة الرّجُل المفتوحِ على الطاولة.

أنا اليومَ في الثلاثين من عُمري، وأدينُ لكِ وللكلماتِ وللضفّةِ والنّهر والغابة. أعتقِدُ ألّا شيء محفورٌ في الصّخر، ألّا شيءَ محتوم، وأنّي قادرةٌ على تغييرِ أيّ شيءٍ أريد بمُجرّد قيامي بأعمالٍ بسيطة: كاصطيادِ فئران الأنهار، والضفادع، والسّناجب الرّماديّة، وفئران الحقول، والعناكِب، والشّراغِف. قُبيلَ نهاية الشّتاء، أتى ماركُس –وقد كانَ ذاكَ آخر شتاء أمضيناهُ في النّهر– وكُنت ساعتئذٍ منبطحةً على سطحِ قاربِنا. كانَ ثمّتَ ضبابٌ يُغطّي الشّجرَ حتّى منتصفِها. ولم يكُن القارب معقودًا إلى الضفّة، بل كانَ طافيًا في وسط النّهر، وحِبالُهُ ممدودةٌ بإحكامٍ صوبَ الشاطئ. كنتُ واضعةً رأسي على ذراعي ناحيةَ المِرفَق، وأنفاسي تبثُّ ضبابًا على زُجاجِ الكُوّةِ ثُمَّ تمحوه. كانَ الوقتُ ليلًا، ولم يكُن ثمّت ضوءٌ إلّا داخلِ القارب أسفلَ منّي. كُنتِ قد أخبرتِني، حسبما أذكُرُ، بأنّكِ بحاجةٍ إلى وقتِ شيش، وأمَرتِني أن أنامَ على السّطح. أمّا ماركُس فقد كانَ داخلَ القارب معكِ.

أراني، أحيانًا، قد تلَبّسْتُني. فأشمُّ رائحة اللّحاء الذي كُنتُ أقشّرهُ عن إحدى الأشجار وأمضغهُ حتّى يستحيل إلى لُباب، وأرى أهِلّةَ الأوساخ تحتَ أظافري. وأنظرُ من خلال الكُوّة.

أحيانًا أخرى، أراني واقفةً على الضفّة وأنا في مثلِ سنّكِ اليوم وأنتِ هُنا في بيتي، ضامّةً أصابعَ قدَمَيَّ في حذائي بالغِ الصِّغَر، أبحثُ عن أثرِكِ:

أعقابِ سجائر، فتات خُبز، أعواد ثقاب محترقة. ومن الضفّةِ، أراني ثَمَّ يافِعةً، مُنبطحةً على سطحِ القارب، ومُرفقايَ مُستريحانِ هُناكَ كُلٌّ في ناحية، أحدِّقُ من خلال الكُوّة باهتمام.

أرى من خلالِ الكوّةِ في السّقف شيئًا يتحرّك. شيئًا برأسَين، وأطرافٍ كثيرة تَزيدُ على حاجتِه، يقتربُ من ضوءِ الشّموعِ الهزيل ويبتعدُ عنه. أضُمُّ وجهي بيديَّ وأُلصِقُ أنفي بزُجاجِ الكُوّة بما أستطيعُ من قوّة، وأحبسُ أنفاسي. أذاكَ هوَ بوناك؟

في كُلّ مرّةٍ أقتربُ من فهم وإدراكِ ما أراه، أجِدُني واقفةً على الضفّة، أداعبُ شعري القصير خلفَ أذُنيّ، أصفّرُ لكلبٍ طالت غيبتُه، وأحاولُ تذكُّرَ الكلمات التي تحتاجُها كلتانا لقَصِّ هذه القِصّة.

يهمسُ الرّجُلُ مُصلّحُ النافذة بشيء، فتلحقينَ بِهِ حتّى سيّارتِه، ثُمَّ تشرَعينَ بإلقاء الحجارة عليهِ إذ يبتعدُ مسرعًا في الدّرب. كانَ ثمّتَ شواشٌ من فرطِ حرارةِ الجوّ فوقَ التّلال، ولمّا عُدتِ إلى داخلِ البيت ألفيتُ بُقَعَ عرقٍ تحتَ إبطَيكِ، وعلى صدرِكِ. تُخبرينني أنّكِ بحاجةٍ إلى عصير ليمون. وإلى سيجارة. وإلى كُرسيّ. وإلى وقتِ راحةٍ لعين. أسأمُ منكِ. مِن صلابة رأسِكِ. تُكدّرينني. تُثيرين حنقي. مكانُكِ ليس هُنا.

أحتاجُ إلى نسيان المرأة التي كُنتِها، ومعرفةِ المرأة التي استحلتِ إليها. يبدو أنّكِ لا تُحسّين بالألم. أراكِ تُمسكينَ بالإبريقِ السّاخن فتسفَعينَ يدكِ، ثُمَّ تُكملينَ عملكِ كأنَّ شيئًا لم يكُن. كما أجِدُكِ مُفرطة الحساسيّة تجاه أخفَضِ الأصوات أو الروائح: تتذمّرين من الريح في المَدخنة، ومن الماء في الأنابيب، وتمتنعينَ عن دخول أيّ حُجرةٍ بعدما أنتهي من الطَّبخ. تتكلّمينَ بفوقيّةٍ فجّة وصاخبةٍ عن الجسم البشريّ والمَرَض. لا أدري ما إذا كُنت تختلقين كُلّ ذلك أم جمعتِ تلكَ المعلومات على مرّ الأعوام. تقولينَ إنّني أعاني من نقصٍ في الحديد، وربّما مُصابةٌ بالدّاءِ البطنيّ. تُمسكين يديَّ وتضغطينَ على أطرافِ أصابعي، فتُصدِرُ صوتًا لا أجِدُ له تفسيرًا، وتتفحّصينَ عينيَّ بِشَدِّ الجِلد تحتهُما إلى أسفَل. ليس هُنالك موضوعٌ لا تُحسنينَ الحديثَ

فيه، حتّى أنّكِ تستمتعينَ دومًا بإخباري عن حركةِ الأمعاء، ولون بَولِكِ، ونتف شعر الذّقن. أمّا طريقتك في الحديثِ عن المُضاجعة فجامِحةٌ وفيها تعميم. تتشابَكُ الأجسادُ في حديثِكِ، فلا يعودُ واضِحًا ما إذا كُنتِ تتحدّثينَ عن حَدثٍ واحد أم أحداثَ عدّة. ولمّا لا تتحدّثين عن تشارلي -وهوَ رجُلُ القارب- تُصوّرينَ الرّجالَ بأنّهُم خانعون، مُذعِنون، وأحيانًا خائفون. وبالأخصّ، تتحدّثينَ عن واحِدٍ منهم بندمٍ وأسى. رجُلٍ حديثِ السنّ، غرٌّ بلا خبرة، ويستحكمُ بِهِ خوفٌ وارتباكٌ. كانَ إحدى زلّاتِكِ الماضية. جُلُّ الرّجال الذين حدّثِتِني عنهُم كانوا مُسلِّين، بعضهُم ينقرُ الجُدرانَ برأسِهِ، وبعضهُم مرتخٍ، وبعضهُم سريعُ القَذف. وحينَ أضحكُ، ولو قليلًا، تنفرجُ أساريرُكِ وتُمسكينَ يدي أو تُناولينني برتقالةً من طبقِ الفاكهة.

ثمّتَ تدهوُرٌ آخر يُعمِلُ مِعوَلَهُ فيكِ. تصرُخينَ بي أن آتيكِ، أن آتيكِ بسُرعة. وحينَ أفعل أُلفيكِ حامِلةً قاموسي، قاموسَ أكسفورد، مفتوحًا بينَ يديكِ، كأنّكِ تهمّينَ بإلقائهِ عليّ.

– «أعرفُ أنّها كلمة!» تصرُخين. «أعرفُ ذلك، أعرفُ ذلك».

أحاولُ تهدئتكِ. ولكنّكِ مذعورة. تُلقينَ بالكتاب على الطاولة فيُحطِّمُ كأسًا. تنهالينَ على صفحاتِهِ تمزيقًا فتُفلحينَ في شقّ بعضِها.

– «أعرفُ ذلك، أعرفُ ذلك!».

– «ماذا؟ ما هيَ الكلمة؟».

تُحدّقينَ إليّ، وترفعينَ شفتيكِ فوقَ لِثَتِكِ، وتُصالبينَ أصابعَكِ. كانت الكلمة التي ظللتِ تبحثينَ عنها هيَ ‹موح›، وتعني الاختفاء أو التجرّد من ثوب الماضي[10]. أخبرُكِ بألّا وجودَ لتلك الكلمة وأُريكِ مكانَها الخالي في القاموسِ كي أثبتَ لكِ ذلك. ولكنّكِ تبدينَ مذعورة، تتبعينني كظِلّي في أرجاء البيت، مُلصِقةً خطواتِكِ بخطواتي حتّى نكادُ كِلتَينا نقَع.

10- هذه الكلمة التي اخترتُ ترجمتها إلى (موح) وهيَ في الأصل (egaratise)، ليست من الكلمات العتيقة المُشتركة بينَ البطلتين. بل هيَ أثرٌ من آثار التّدهور العقلي لدى الأمّ سارة. وعلى الأرجح -حسبَ سياقِها- أنّها مشتقّة من الفِعل الإنجليزيّ (to erase) ومعناه (المَحو)، ومن هُنا اجتهدتُ في ترجمتِها إلى (موح).

تُضايقكِ كلماتٌ صغيرة. حنفيّة، بُرغي، درجة، مقبَض. تلفظينَها لفظًا خاطئًا، أو تستخدمينَها في مواضِعَ خاطئة. *«هلّا فتحتِ المقبض في حوض الاستحمام كي تملئيه بمزيدٍ من الحارّ؟ فإنّه يستعصي على الفتح معي».* غالبًا أتظاهرُ بأنّكِ لم تُخطئي، فتستمرّين في ذلك بابتهاج. لا أخالُك تنتبهين إلى خطئكِ حتّى أراكِ، ذاتَ يومٍ، في المطبخ قابضةً على المَغسَل بكلتي يديكِ، تقولينَ «طُفَيليّ» مرارًا وتكرارًا، مُشدِّدَةً تارَةً على المقطع الأوسَط «طُ-فيل-ي» وتارةً على المقطع الأوّل «طُف-يل-ي»، بينما تنقرينَ على الأرضيّةَ بقدمِكِ اليُسرى. لا أفهَم، بادئ الأمر، ما تفعلين. بيدَ أنّي، بعد قليل، أُدرِكُ أنّكِ تختبرينَ مدى إتقانِكِ استعمالَ الكلمة، وقَدْرَ تدهوُرِكِ العقليّ.

تعرفينَ بالضّبط ما يحدُث معكِ. وتعرفينَ أنَّ أحدًا لم يتضرّر من تقدُّمِكِ بالسّنّ قَدْرَ ما تضرّرتِ أنتِ. ولكنّكِ لا تجهَلينَ سِواي.

من المُفترضِ أن يهجُرَ الأبناءُ آباءهُم. هكذا هيَ سُنّة الحياة. فكانَ يجدُرُ بكِ، حينَ صِرتِ أمًّا، أن تُقلِعي عن تلكَ العادة، عادَة الابتعاد والهَجر. فإنّ هَجرَ الآباءِ أبناءَهُم انقلابٌ على سُنّة الحياة.

- «أريدُ أن أسألكِ شيئًا»، أقولُ لكِ. «فهل تُمانعين؟».

- «ولِمَ أمانِع؟»، تقولينَ هازَّةً برأسِكِ. بدا أنّكِ قد نسيتِ نوبات غضبِكِ السابقة.

- «ربّما لن تتذكّري».

- «وما أدراكِ!»، تقولينَ مُستنِدَةً إليّ، أليفةً ولكن حذِرَة. أمكَنَني الإحساسُ بالفراغ محلَّ ثديكِ المُستأصَل.

- «أتذكُرينَ الشّتاء الذي أتى فيهِ ماركُس؟».

- «ولكنّ الفصل الآن صَيف».

- «صحيح، ولكنَّ الفصل كان -آنذاك- شتاءً. وكُنّا نعيشُ في النّهر. أتذكُرين؟ عثرتُ عليكِ هُناك قبل يومين».

همهَمتِ قليلًا، ثُمَّ هززتِ برأسِكِ، ونقرتِ على رُكبتي. فاستأنفتُ حديثي قائلةً:

- «عِشنا هُناك مُذ أبصَرتُ أنا الحياة. أنتِ وأنا فحسب. ولكن، ذاتَ يومٍ، أتى رجُل. فتى. وأقامَ معنا. لم يمكث طويلًا، مكثَ شهرًا ربّما. وقد كانَ ثمَّت مخلوقٌ في النّهر، لا أدري ما هو. وأخالُنا حاولنا اصطيادَه».

- «حقًّا؟».

- «نعم!».

- «لا أذكُر ذلك».

- «هل تذكُرين سواه؟».

هززتِ بكتفَيكِ، وفتّشتِ في جيوبِ رداءِ نومِكِ، ولكن أخرجتِ يديكِ فارِغَتين. أرَيتِني يديكِ، فاتِحةً راحَتيكِ. فأرحتُ يديَّ فيهِما.

- «هل تذكُرينَ ما حدثَ لِماركُس؟».

أمسكتِ يديَّ بيديكِ، ودلّكتِهِما بقوّة، نافِخةً بشدّةٍ حتّى أحسستُ بأنفاسِكِ الرّطبة قد لامَسَت بدَني. فوجِئتُ بلمستِكِ. اعتدتُ فِعلَ ذلك، أليسَ كذلك؟ أن أطوّقَ ساقَيكِ بذراعَيَّ وأحشُر وجهي في ثنايا رُكبتَيكِ. واعتدتُ أن أجلبَ لكِ ما أجدهُ في الغابة أو النّهر: مِن حجارةٍ صقلها التيّار، وحُمّاض برّي، وحلازينَ كنتِ تطبخينَها في الزّبدة والثّوم. ولمّا كُنتُ يافعةً لا أزال، كُنتِ ترفعين خرطوم الماء عاليًا فنغتسِلَ كلتَينا في وسط الدّرب، فتنشغلينَ بحلِّ عُقَدِ شعري كأنّها ألغاز تعرفينَ حلولَها.

بِتِّ واعيةً وحاضِرةً معي، بغتةً، كأنَّ قاطِعًا فيكِ قد رُفِع. فأدركتُ -من مُجرّدِ نظري إليكِ- أنّكِ تذكُرين كُلّ شيء، أنّكِ مُتخمةٌ بكُلّ الأعوام التي مضت وكُلِّ ما خلّفَته.

- «كان يجبُ أن أعرفَ لمّا أتى ورأيتُه...»، قُلتِ، وعدَّلتِ وضعيّةَ رأسِكِ. «أنَّ ثمَّت غرابة فيه. أخالُني أقنعتُ نفسي بأنّها الشّهوة، نوعٌ جديدٌ منها، نوعٌ فتّاك. كانَ ثمَّت أمرٌ مألوفٌ فيه، كأنّي كُنتُ واقعةً في حُبّه من قبل. كانَ يجبُ أن أعرف!».

النّهر

تفوقُ البداياتُ النّهاياتِ عددًا. أراكُما، في مكانٍ ما، أنتِ والأب الذي ليسَ أبي مُستلقيَين في سريرٍ ضيّقٍ معًا، غيرَ خائفَين بَعد، متشابِكَي الأطراف، مُلتحِمَي الشّفاه كأنَّ أحدكُما كان يُصارع المَوت. وفي مكانٍ ما، أراني واقفةً في مكتبِ القاموس أستمعُ إلى رنين الهاتف في مشرحةٍ خالية. وفي مكانٍ ما، أراني أفتحُ بابَ الكوخ على التلّة، فتمرّينَ حذائي متذمّرةً من ورقِ الحائط رمليِّ اللّون الذي كان موجودًا هُناكَ مُنذ سُكناي، ومِن الأفاريز ومِن نقصِ منافِض السجائر. *ألم تقدري حتّى على شراء سيّارة لعينة؟* وفي مكانٍ ما، أرى مارغُت تتمشّى. ها قد استغرقتُ، ثانيةً، في الخيالات، الاحتمالات. أضبُطُ كلماتِها في فمي وأتمنّى ألّا تُمانِعَ تعديلي وتزويقي إيّاها. أراها، في مكانٍ ما، سائرةً وأخالُها تسمعُني، وتسمع صدى الكلمات التي عدّلتُها، فتقول: *«هذا خطأ. اسمعي. اسمعي، هكذا جرت الأحداث....»*

كانت ثمّتَ خيمة في حقيبة مارغُت، بيد أنّ تعبَها الشّديد أكسلَها عن نَصبِها. زَحَفَت قدرَ مُستطاعِها إلى جوفِ الأجَمة. كانت ثمّت أوراق لزِجة، وعلب بيرة مفتوحة، وزُجاجة مكسوّة بالأبيض والأسود انزلقَت أسفلَ ساقِها المُصابة. أمكَنَتها رؤية القناة من خلالِ الشّجيرات، مضاءةً بأشعة النّور المُنسكبة من مصابيح الشارع، وبأنوارِ السيارات الأماميّة إذ تعلو ثُمَّ تهبِط عبرَ الجِسر. غطّت رأسَها بقلنسوةِ حقيبة نومِها. كانَ ثمّت أشخاص يأتون، في ذيل الليل، وينامونَ في آخر الدّرب أسفلَ الجسر، فأيقظَتها نداءاتهُم بعضهُم بعضًا. في أوّل لحظاتِ استيقاظِها تلك، ألفَت نفسَها قد نسيَت. ثُمَّ هاجَمَتها

الذّكرى. فلم تقدر على النّومِ بعدها. كانَ ثمّتَ صقيعٌ متغضّنٌ على الأرض، وكانت حقيبة النّوم رطبة. راقَبت الفتاةُ النّهارَ الوَسِخَ إذ يتنزّل على النّهر.

أفرَغَت الحقيبة التي كانت فيونا قد ملأتها لها. ولم تُفرِغها من غيرِ حسرة. لوح شيكولاته، وكيسُ خبز، وشيءٌ من المال، وورق تواليت، وسدادات قطنيّة. لم تكُن الخيمة قد استُخدِمت منذ وقتٍ طويل، ولذلك كانت تفوح منها رائحة عطن. داهَمَها، وإن جزئيًّا، شيءٌ قالَهُ لها والِدُها، شيءٌ عن أهميّةِ كُلّ إنجازٍ حتّى الإنجازات الصّغيرة. حاولَت الإنصاتَ إلى صوتِ جسدِها، إذ يتحرّكُ بآليّةٍ ولكن ما زال يعملُ رغم كُل شيء. ولمّا استذكرت ما تفعلُ هُنا، اعتراها فزعٌ لدرجةِ أنّهُ كادَ يُعميها. أعادت كُلّ شيءٍ إلى الحقيبة، واستقامَت، وشَرَعت في السّير.

سارَت لساعتَين ثُمَّ توقّفَت. امتدَّ من فوقِ القناة دربُ مركباتٍ مزدوجٍ مُزعِج، وسكّة حديدٍ خَرِبَة ومقطوعة من منتصفِها، وحقولُ محاصيل قمحٍ –ربّما– غارقة في وحلِ ماءٍ فائض. بين الحينِ والآخر –وقد كان ذاك يقِلّ ويتلاشى كُلّ مرّةٍ أكثر– كانت تَعدِلُ وتهمٌّ بالرّجوع من حيثُ أتت. بدا لها الابتعادُ عن بيتِها أمرًا عصيًّا على التصوُّر. تلمَّسَت بيديها جيوبَ ثوبِها، وشعرَها الخفيفَ، وساقَها اليُسرى التي أصابَها التواء. أغمَضَت عينيها وتخيَّلَت جُدران منزل أبوَيها تقفُ من حولِها كقفصٍ صدريّ، وأبوابَهُ المألوفةَ تُغلَقُ بشدّة.

أصرَّ أربعة صيّادي سمكٍ –كانت أوتادُ خيَمِهِم مُلقاةٌ على الأرض منذ الليلة الفائتة– عليها أن تأكُلَ إحدى شطائر البرغَر التي أعَدُّوها في مِقلاتِهِم الوَسِخة، حتّى جثمَت حذاءَهُم والتهمَت اللّحم النيءَ بيديها العاريَتين. ثُمَّ التهمَت الشّطيرة الثانية التي ناولوها إيّاها. تحدّثوا ببطءٍ بعضهم إلى بعض، فلم تكَد تُنصِت إلى ما يقولون. لم تدرِ ما تفعلُ غيرَ ذلك، فبقيَت برفقتِهِم حتّى هبطَ الليل حالكًا كجِدارٍ لم تُفلِح حلقة النار الصّغيرة في خَرقِهِ. أمكَنَها، حينئذٍ، سماعُ صوتِ المخلوقات التي قطَنَت النّهر إذ تتحرّكُ خلالَ العُلّيق. لم تكُن مستعدّة لذلك، لكُلّ ذلك. أحسَّت بقرعِ نعلِ الخوف فيها مجدّدًا، ساريًا بحِدّةٍ في صِدغَيها، وفوقَ صدرِها. ضغَطَت بقبضتيها على أذُنَيها حتّى خَرَسَ الصوت. من خلال النّار، حدّقَ إليها أحدُ الصيّادين متأمِّلًا.

– «هل تعرفينَ...»، قالَ حينَ التقت عينُهُ بعينِها. «عَن لِصّ القناة؟ هوَ يقطُنُ النّهرَ ويمشي على اليابسة»

ندَّت عن الصيّادين الآخرين ضحِكات، أو أصوات صفيرٍ إذ صكّوا أسنانهُم. كانوا واضعينَ صنّاراتهم إلى جانبِهم كالرّماح. أمكنَتها رؤية دهنَ اللّحم إذ يُلطّخُ أيديهِم ووجوهَهُم، وقد قطَعَ الليلُ أطرافهُم فبَدَوا كالمبتورين. أشارَ أحدُهُم إلى الأكياس بجانبِه، فرأت فيها قشورَ سمكٍ وعينَ سمكةٍ دائريّة.

– «ثمّتَ أشياء تضيعُ في الليل»، قال هازًّا بكتفيه. فضحكَ الآخرون ثانيةً، فخالتهُم يختلقونَ مثلَ هذه القصص كي يُخيفوها فحسب.

ولمّا سارت مبتعدةً، سمِعَتهُم يتبعونَها، فرَبَضَت في الأجمات وتريّثَت حتّى مَرّوا مبتعدينَ عن مَجثَمِها، ثُمَّ يئسوا من اللحاقِ بها، فعادوا أدراجَهُم صوبَ نارِهِم. لم تدرِ ما كانوا سيفعلونَ بها لو أنّهُم عثروا عليها، ما دَرَت إلّا أنّهُم لن يفعلوا بها خيرًا. فكَّرَت أنْ لو كانت ثَمّت أشياء تضيعُ في الليل، فلا بُدَّ من أنّهُم هُم من يسرِقونَها، وآيُ ذلكَ جيوبُهُم وما يخبّئونهُ أسفلَ السّمك في الأكياس البلاستيكيّة. ظلَّت تتناهى إليها أصواتُهُم لمدّة طويلة، ثُمَّ انقطعَت فلم يبقَ سِوى صوت الماءِ والأجمات، وضباح ثعلبٍ، ونعيقُ بومةٍ صائدة. لم يُمكِنها –في عتَمَة الليل– تثبيت أعمدة الخيمة في أماكِنِها الصحيحة، فيَئِسَت وافترشَت حقيبةَ نومِها ثانيةً. حاولَت أن تنام، بيدَ أنّها لم تستطِع.

المطاردة

صباحَ قاءَ الكلبُ في زاويةِ الحُجرة، وجلسَ يرقُبُني بالباب كأنّهُ عرَفَ أنَّ تلكَ كانت القشّة الأخيرة، خاتمة الأحزان. ربّما كانَ يكرَهُ النُّزُل بقدرِ كُرهي له. لم أفلِح قطُّ في فهمِ سِرِّ حُبِّ النّاس للإقامةِ في الفنادق أو التّخييم في الحقول. كما لم أحلُم قطُّ بإيطاليا أو بيرو أو نيوزلاندا. حلُمتُ فقط بحُجرةٍ أعرفُ مخارِجَها حقَّ المعرفة وأُعلِّقُ على جدرانِها السّتائر. «هيَ حقًّا القشّة الأخيرة»، قُلت. فبدا كأنّهُ يوشِكُ على التبَسُّم.

جلستُ في مطعمِ مكدونَلد، ورُحتُ أبحثُ عنكِ في حاسوبي. وكانَ كُلّما مرَّ حذائي صبيٌّ ناوَلَ الكلبَ نصفَ شطيرةِ برغَرِه، وجُلَّ بوظَتِه. أخالُهُم أرغموا الكلبَ على خرقِ قوانينِ حِميَتِه. أحسستُ بعطفٍ عليه. ردَدتُ على عدّة رسائل إلكترونيّة. وكانَ من المفترض أن أفرَغَ من العمل على كلمة «كَسْر». وكانَ من المفترض أن أكونَ قد عُدت. لم أنقطع قَبلُ في عُطلةٍ أو إجازةٍ مرضيّةٍ منذ أربعة أعوام. فلينتظروني. اعتراني هاجسٌ مباغتٌ بأنّي قد لا أعود أبدًا، من غيرِ أن أبلِغَهُم بذلك. لقد كُنتُ مثلكِ: أقربَ إلى كُوّةٍ منعزلةٍ عن العالَم، منّي إلى إنسان.

وُضِعَت في موقعِ إحدى دور النّشر صورةٌ لي: بدَوتُ فيها مأخوذةً بوميضِ الكاميرا، وعلى ياقة بُلوزَتي لطخة معجون أسنان، وبين سِنّيّ الأماميّين فجوة. كما وُضِعَ عنوان بريدي الإلكترونيّ، وإلى جانبِهِ رقم هاتف مكتبي. لذا، فإنَّ في ميسورِكُم إيجادي، إن رغبتُم. لن أُعجِزَكُم. بيدَ أنَّ معلومةً لم توجَد عنكِ في الإنترنت. لم تكُن تلكَ أوّل مرّة أحاول فيها

العثورَ عليكِ، بيدَ أنّي ظللتُ أحاول وأحاول. استراحَ الكلبُ على وَرِكَيهِ النّحيلَين، وراحَ يلتهِم رقائق بطاطا ألقاها إليهِ أحدُ الصِّبيَة. تظاهرتُ أنّهُ ليسَ كلبي. وظللتُ أبحثُ عنك في كُلّ مكان. كُنتُ كمَن ترمي شبكةً في الماء كي تستخرِجَ بها جُثثًا ثقيلةً، أو كمَن تبحثُ عن إبرةٍ في كومةِ قشّ، أو كمَن تجري وراءَ سراب، أو (وهذا هوَ الوصف المفضّل عندي) كَمَن ضلَّ سعيُها. لم أجِد علامةً تهديني إليكِ، ولا غُبارًا دليلًا أقتفيه، ولا أثرًا لكِ. كم أوهَنني ذلك!

لم أنتبه إلى طولِ مدّة مكوثي هُناك حتّى بدأت المصابيحُ حولَ فِناء محطّة الوقود الأماميّ تُنار. ثُمّ بدأت السياراتُ تُنيرُ مصابيحَها الأماميّة إذ تخرجُ من المرآب. كانَ ثمّت شيءٌ في محطّات الوقود يجعلُها تُشبِهُ نهرًا: فلَم يقطُنها أحدٌ، لأنَّ حيواتِهِم خارِجَها كانت تجري على ما يُرام. ولقد أدركتُ ذلكَ فقط حينَ هَجَرْنا النّهر.

وجدتُ، أخيرًا، معلومةً ما عنكِ. ربّما. كانَ نورُ شاشة الحاسوب ساطِعًا لدرجةٍ أضَرَّت بعينيّ. طويتُ شاشةَ الحاسوب. إذا عزمتُ أمري على المُضيّ الآن، فسأقدر على العودةِ إلى عملي بحلولِ اليومِ التالي. لن أهاتِفَ المشارِح والمستشفيات. بعدَ عام، سأكونُ قد نسيتُ كُلَّ شيءٍ عادَ ليعتريني في الأيام القليلة الفائتة، وبعد عشرة أعوام، لن أعودَ قادرةً على استذكار وجهِكِ. وحينَ أصيرُ عجوزًا، فسأكونُ قد اختلقتُ طفولةً جديدةً كُليًّا، أنتِ فيها أمٌّ بشعرٍ مسدولٍ ماتَت يافعةً مِيتةً هادئة. سيتقهقَرُ كُلّ شيءٍ أحسُّ بهِ يزحفُ فيَّ، حتّى ينحسِرَ تمامًا. ولن يضيعَ شيءٌ في الليل. قُلتِ، في رأسي: «كفّي عن الصّياح يا غْرِتِل! هذا محضُ حُلم». اعتراني توتّرٌ رهيب. توتُّرٌ لا أذكُرُ أنّي أحسستُ بمثلِهِ منذ مدّة طويلة. فتحتُ حاسوبي مجدّدًا. لم تكُن تلكَ أنتِ. ولم يكُن ماركُس أيضًا –فلم توجَد عنه إلّا بعضُ المعلومات في الإنترنت– بل كانا زوجَينِ يُشاركانِهِ اسمَ عائلتِهِ فحسب، ويعيشان في بلدةٍ غير بعيدة. التهمتُ رقائق البطاطا المحمّرة بشراهةٍ كي لا تعتريني نوبة هلع. جلسَ الكلبُ وحدّقَ إليّ فاغرَ الفم.

– «ستمرضين»، قُلت لنفسي، ثُمّ كدتُ أغصّ برقاقةٍ حادّة. فكّرتُ: ‹ربّما يعرفُ ماركُس مكانكِ. ربّما...› –وحشَرتُ بضع رقائق في فمي فتذمّرَ

الكلب واستلقى على ظهره- اكُنتِ برفقتِه. ربّما كانَ هُناكَ مسكنُكِ، وهُناكَ مكثتِ كُلّ تلكَ الأعوام!.

كانت ثمّتَ معلومات عن والِدَي ماركُس في بعض المواقع الإلكترونيّة. معلومات كافية لاقتفاء أثرِه. ظهرت المرأة في موقعِ المدرسة الإلكترونيّ. كانت معلّمة. منخرطةً في نشاطات المدرسة الخارجيّة، وقد نظّمَت مؤخّرًا رحلةً إلى المعرض الوطنيّ، وأخرى إلى مزرعة. لم تَبدُ شبيهةً بماركُس. خابَ أملي. وجدتُ مُراجعةً كَتبَتها لأحد المطاعم في موقع تْرِب-أدفايزَر حيثُ أدلَت باسمِها الكامل وبريدِها الإلكترونيّ كأنَّ مُراجعتَها تلكَ سيرةٌ ذاتيّة لها. كَتبَت: *اأتينا إلى هذا المطعم يوم الخميس كخيارٍ أخير. تناولتُ أنا وجبة دجاج. وتناول زوجي وجبة بولونيز، وكذا أبناؤنا. سنرغبُ في زيارة هذا المطعم مرّة ثانية. احتسيتُ شيئًا من النبيذ، وقد كان جيّدًا. لم يَرُق النادلُ لزوجي،*. لم أجِد عن الرّجُل شيئًا سوى ذِكرِ زوجتِهِ له في المراجعة. لم أجِد لهُ صورةً ولا أيَّ معلومة عن عملِه. إلّا أنّهُ كتبَ مراجعةً لِموقعِ صيانة سيارات، قيَّمَهُ بثلاث نجومٍ وأرفقَ اسمَهُ الكامل.

امن الممكن، بلا شكٍّ، ألّا يكونا والدَيه،، قُلتُ لنفسي بصوتٍ عالٍ. ذهبتُ إلى سيّارتي وتناولتُ الخريطةَ من صندوق التابلوه، وبسطتُها على طاولتي في مطعم مَكدونَلد. تذكَّرتُ كيفَ اعتدتِ أن تقولي إنّنا في اللامكان، خارجَ العالَم. كأنَّ المكان الذين كُنّا نسكُنُه ليسَ موجودًا على الخرائط، وكأنَّ الجغرافيا لا سُلطةَ لها عليه. التهمتُ كيسَ رقائقَ بطاطا ثانيًا، وأطعَمتُ الكلبَ أربع رقائق. *امن الممكنِ ألّا يكونا والدَيه، ولكن...،* انحَنيتُ على الخريطة. *اولكنّهما يسكُنان في بُقعةٍ قريبةٍ من مسكنِنا في النّهر، وقد يكونانِ حقًّا والدَي ماركُس،*. أرأيتِ؟ اتّضَحَ أنَّ ذلكَ المكانَ ليسَ خارجَ العالَم!.

النَّهر

ما ضاعَ في الليل: الوحلُ على حوافِّ ضِفافِ النّهر، والأرانبُ في جحورِها، ودجاجات الماءِ النائمات فوقَ الأغصان الواطئة، والكلابُ الشاردة المتسكّعة حيثُ لا يجبُ أن تتسكّع، وأكوامُ السّمكِ من مخيّماتِ الصّيادين، والخطافات الفضيّة، وقِططُ الجِوار وصَيدُها الذي حظِيَت به: مِن فئرانٍ، ومناجِذ متسكّعة عمياء، وطيور كسيرة الأجنحة.

في اليوم التالي، رأت مارغُت اليابسةَ تغدو ضاجّة بالحياة. والقناةَ تهبِطُ في نهرٍ يُدعى إيزيس[11]. كانَ الطّقس شديد البرودة. جرَّحَ العُلَّيقُ يديها، وحمَّرَتهُما لدغات القُرّاص. نفدَ من جعبتِها الخُبز، فتمنّت أنْ لو اقتاتت عليه بإقلال. كانت أحلامُها، قبلَ هَجرِها بيتَها، دقيقةً كمواعيد حافلة. ملأى بأبوابٍ وجُدرانٍ مُربّعة، وأشياءَ مُنَصَّفة، وأوعية فاكهة. وقد كانَ الحُلم الذي تذكَّرَتهُ من الليلة الفائتة مُلطّخًا بالتّراب، ومتداخِلًا بجذورٍ، ورَطبًا بِماء. أمكَنَها أن تُحسَّ بالأشياء التي أخبرَتها بها فيونا قُبيلَ حثِّها على الرحيل وإعدادِ الحقيبة.

لم تُدرِك إلّا بعدَ مرورِ شيءٍ من الوقتِ أنَّ أحدًا ما يتبعُها. كانَ من ديدنِ النّهرِ أن يحمِلَ الصوت ويُشتِّته. فظلّت تخالُ، بين الفينة والأخرى، أنَّ أمَّها

11- إيزيس – Isis: هيَ إلهةٌ مصريّةٌ قديمة، وإحدى أهمّ شخصيّات أسطورة أوزوريس حيثُ أحيَت فيها زوجَها المقتول أوزوريس وأنجبَت منهُ حورَس. والجديرُ بالذّكر أنّها تُعَدُّ مُرشِدةَ الموتى إلى الآخِرة، ورمزًا للأمومة. وإنَّ لِتسميةِ نهرِ هذه القصّة باسمِها دلالة مهمّة سيُميطُ القارئ عنها اللثام بمرور الأحداث.

تُناديها من خلالِ الأجمات. ندَّ عن خطواتِ الفتاةِ وَقعٌ أصخَب ممّا ينبغي. ولمّا صارت الشّمسُ في كبدِ السّماء، توقّفَت لتستريح. ولكن، في الدّرب وراءَها، استمرَّ صوتُ وقعِ خُطاها لوهلةٍ بعدما توقّفَت.

قضَت حاجَتَها في حُفرةٍ في الأرض. تناهى إلى سمعِها، على مبعدةٍ، صوتُ طائرٍ يزعَقُ من وراءِ الماء. سعلَ أحدُهُم، ولكنّها لمّا التفتت لم ترَ أحدًا. فكَّرَت في لِصّ القناة الذي يسكُنُ الماء ويمشي على اليابسة. تساءلَت كيفَ شكلُه. ظنّت أنّهُ سيكونُ، لا محالةَ، ذا يدينِ ورِجلَينِ مكفّفَتين كي تُيسِّرَا له السّباحة، وأصابعَ نحيلة كي تُيسِّرَ لهُ السّرقة. فكَّرَت في الصيّادين وبتحديقِهِم إليها من خلالِ النار الخافتة، وأيديهِم المفتوحة، وضَحِكِهم.

تابعت سيرَها. ظلَّت تسمعُ وقعُ الخُطى غريبًا عنها، أكثرَ ثباتًا وثِقَلًا من وقعِ خُطاها، كما أنّهُ كانَ يصمتُ بعدَ توقُّفِها بهُنيهةٍ دائمًا، ويصدُرُ بعدَ استئنافِها المسيرَ بهُنيهةٍ أيضًا. فكَّرَت: «هذا دربٌ مستقيمٌ، ولا بُدَّ من أنّنا جميعًا نسيرُ في ذاتِ الدّرب وإلى ذات الغاية»، بيد أنها لم تُصدّق ذلك. لم ترَ طوالَ اليومِ شيئًا سِوى طيورِ البلشونيّات وبضع قوارب راسيات نصفَ غارقات في الماء.

ظلّت تسيرُ حتّى بدأت الشّمسُ تنغمسُ في الماء. نَمَت مخاوِفُها حتّى أمسَت في طولِ شوكِ أجمةِ العُلّيق. تمنّت أنّها تعلَّمَت أكثرَ قبلَ خروجِها: عن كيفيّةِ التخلّص من الخوف، وإشعالِ النّار والحديثِ إلى الغُرباء. تمنّت أنّها تعلّمَت ما تفعلُ حينَ يتعقّبُها أحدٌ ما. انحسَرَت الشّجيراتُ في جهةٍ، وأشرَعَت بابها. فالتفَتت الفتاة ومضَت نزولًا الضفّة، مُنزلقةً وتكادُ تقَع، مُكوّرةً قبضتَيها على جنبَيها. وقعَت مُرتميةً على بطنِها. نظرَت إلى المُنزَلَق، والتفتت ناظرةً إلى الدّربِ المحاذي للنّهر.

أبصَرَت ثَمَّ أحدَ الصيادين. لم تُميّز وجهه، بل ميّزَت فقط لونَ مِعطفه. كانَ يحملُ صندوقًا حديديًّا تصدُرُ منهُ خشخشة. تريَّثَ في الدّرب، وبدا كأنّهُ يتفحّصُ آثارَ الأقدام في الأرض. اعتراها خوفٌ من جسَدِهِ العَضِل. كانَ يشغَلُ حيّزًا أكبرَ بكثيرٍ من الذي خالَت أنَّ من حقّهِ أن يشغَلَه. أراحَت رأسَها على الأوراقِ الرّطبة أرضًا، وحبسَت أنفاسَها. كانَ قد تبِعها لمسافةٍ طويلة.

وقد مكثَ رفاقهُ الآخرون -كما ظنّت- في مكانِهم ينتظرونَ عودتَهُ بِها. كانَ شبيهًا بلِصِّ القناة: في أنّهُ يأخذُ ما يُريد، ويسكُنُ الماءَ والآنَ خرجَ منهُ سائرًا على اليابسة كي يُمسِكَ بها.

لتُهدهِدَ نفسَها، راحَت بخيالِها تجوبُ منزلَها الذي أحبَّته وتتفقّدُ تفاصيلَه: أزرار جلّاية الأطباق وغسّالة الثياب، وحوافّ لبّيسة الأحذية، والتّفاحَ العسير على القَضم من فرطِ صلابتِه والذي يقعُ عن الشّجرةِ ساعةَ هبوبِ ريحٍ شديدة. تحرّكَ شيءٌ على اليابسة. تخيّلَت أنَّ للرّجُلِ عينين كرُخامَتينِ خضراوين، ويدَينِ كطَرَفي ملقط مستدقّين. سمِعَت ضجيجًا، يدنو منها أكثر. رفعت رأسَها إلى فوقِ يديها، فألفَت الرّجل قد رحل، ولكنَّ مخلوقًا سواهُ كانَ حاضِرًا. كانت بقيّة الشّمس قد توارَت خلفَ الشّجرِ فمَدَّت للجذوعِ والمُنحدَرِ وذلكَ المخلوق ظلالًا. أمكنَها شَمُّ رائحة صمغ اللّحاء. وكانت الأرض تنغُلُ بقَملِ الخشب وذوات الأربعة والأربعين والعثّ إذ أمسَت كلّها تزحفُ على ذراعِ الفتاة. كانَ المخلوق أطوَلَ من الإنسانِ العاديّ، واقفًا على أربع. أغمَضَت عينيها وفكّرَت في تناسُقِ الإشارات الضوئية، وألبابِ الفواكه، وعقارب الساعات. ولمّا أرجعَت النّظر، كانَ المخلوق الذي رأتهُ قبل قليلٍ -أيًا كان- قد اختفى. ظلّت مارغُت مُستلقيةً في مكانِها لمدّة طويلة، حتّى أحسّت بالبردِ قد أنشبَ أظفارَهُ في أوصالِها حتّى أصابعِها. حاوَلَ عقلُها مَنطَقَة ما حدَث، ففكّرَت: «ما كانَ ذاكَ إلّا غُريرًا، أو ثعلبًا، أو محضَ ظِلّ شجرة». بيدَ أنّها علِمَت في قرارةِ نفسِها أنَّ المخلوق الذي رأتهُ لم يكُن أيًا مما ذَكَرَت. لقد كانَ ذاكَ لِصَّ القناة.

وفي لحظةٍ ما، نهَضَت من مكانِها، وحمَلَت حقيبتَها السّمينة، ومضت مبتعدة. كانَ الوقتُ ظُهرًا حينئذٍ، وكانَ في اليومِ شيءٌ مختلف، شيءٌ مستحيل. فبَدَت كُل شجرةٍ كأنّها المخلوق الذي أتى، وكذا بدا كُل رجُل. أخفضَت رأسَها في معطَفِها مُعتمرةً القلنسوة، ومضَت. اعتراها دُوارٌ بينما تسير، فدَارَ النّهرُ كسيخِ شواء، وبدا كأنّهُ ارتفعَ فوقَ رأسِها، ثُمَّ بدا كأنّهُ سيسقُط.

كانت ثَمَّ علائمُ عودةٍ بطيئةٍ للمصانع: مستودعاتُ غازٍ غائرة في هياكلِها المعدنيّة، ومداخِنها الإسمنتيّة. كما كانت ثمَّ ضواحٍ وَسِخة لمدينةٍ أو بلدة:

منازل صغيرة مُسيّجة وسِكّة حديدٍ تمُرُّ حذاءَ نوافذها، وماءُ نهرٍ وسخٌ وغائرٌ في التّربة، وقواربُ عالقة بالكامل، وشَجَرٌ نحيلٌ عارٍ.

ظلّت تسيرُ لساعات، فكَفَّت ساقها المُصابة عن الخضوعِ للأوامِر، فأوقَعَتها قُربَ السياج النباتيّ. كانَ ثمّتَ دُخانٌ يصعدُ من بعضِ القوارب. وكانَ الصّقيع المُقبِلُ بأناةٍ قد جمّدَ الشّجر. فأمكنَها أن تسمع طقطقة الأشجار بعضها ببعض.

– «احمرارُ السّماءِ في المساء...»، قالَ الرجلُ على القاربِ الأقربِ إليها. «لقلبِ الرّاعي شِفاء»[12]! إنّي أشُمُّ الخيرَ قادِمًا».

ضمّت ساقَيها إلى صدرِها. كانَ الرجلُ واقفًا في مؤخّرة القارب، لا يُراقبُها بل منشغلًا بشيءٍ ما في يديه. أمكنَها، أسفلَ طرفِ قبّعته، أن ترى ظِلَّ أنفهِ الدّقيق، والتهدُّلَ تحتَ عينيه. كانَ الماءُ مُعتِمًا أسفلَ هيكل القارب. حاولت ألّا تنظُرَ إليه، وألّا تفكّرَ فيما قالَهُ الصيادونَ عن لِصّ القناة، وألّا تفكّرَ فيما رأتهُ بأمِّ عينيها بينَ الشّجر.

– «ليس الطّقسُ دافئًا»، قال بينما هوَ منشغلٌ في العمل على الشيء بينَ يديه. «لديَّ يخنة لحم وشيء من الخُبز صنعتهُ بيديَّ منذ وقت. كما يُمكنني أن أعِدَّ لك الشاي إن أحببت».

لم تكُن غِرّةً تنطلي عليها تلكَ الحِيَل. فبدأت تُلملمُ أطرافَ الحقيبة وتقرُصُ ساقَيها كي تُعيدَ لهُما الحياة. تركَ الرّجُل ما كانَ منشغلًا به. وأمالَ رأسهُ إلى جهةٍ، كأنّهُ يستمعُ إلى صوتٍ غائبٍ عنها. أنهَضَت نفسَها، ومضَت مُبتعدة.

– «لا داعي لذلك»، قال، داخِلًا القارب.

وقفَت مُنتظِرَةً، غيرَ واثقة. كانَ أحدُ المصانعِ وراءَها يُصدِرُ صوتًا صاخِبًا. فأمكنَها أن تشمَّ رائحة السكّر المحروق. حينَ وقَفَت، بانَ جوعُها جليًا، وأحسَّت كأنَّ في معدتِها ثُقبًا عظيمًا. كانَ طلاءُ قاربِ الرّجُل متقشّرًا لدرجةِ

12– هذا مثلٌ إنجليزي قديم (Red sky at night, shepherds' delight) ومعناهُ أنَّ احمرارَ السّماءِ في أوّل الليل، بُعيد الغروب، فألُ خير للرّعاة. لأنّهُ يدُلُّ –حسب الاعتقاد القديم– على أنَّ طقسَ اليوم التالي سيكون لطيفًا.

أنّها لم تدرِ ما لونُه: كانَ متهدّمًا، وصدِئًا مِن مقدّمتِهِ ومتقشِّرًا حتّى أسفلِه. ورغمَ ذلك، كانَ ثمَّت نورٌ كافٍ لترى قِدرَينِ مُعلّقينِ في جهةٍ منه، ولكن لا طعامَ فيهِما. خرجَ الرّجُلُ إليها. كانَ يجدرُ بها أن ترحَلِ، أدركَت ذلك. فاستأنفَت سيرَها، حاثّةً الخُطى، جارّةً ساقَها المُصابة، خائفةً من أن يُطارِدَها مثلَما فعلَ ذلكَ الصيّاد.

– «لا بأس. سأضعُ ما في يدي أرضًا»، قال. «وسأرجعُ إلى الخلف. سأظلُّ أرجعُ حتّى أعودَ إلى مكاني الأوّل في القارب».

توقّفَت عن المسير. فأقبلَ الرّجُلُ -بحرجٍ- من طرفِ القارب، متقدّمًا بضعَ خطواتٍ إليها فانحنى ووضعَ القِدرَ الذي كانَ يحملهُ بينهُما، ثُمَّ تراجَع. صعدَ من القِدرِ بُخار. تقدَّمَت الفتاة، مُحدّقةً إليه، ثُمَّ أخذت القِدر وتراجَعَت إلى الأجمة. لسَعَت حلقَها ولسانَها اللّقيمات الأولى. فحشرَت في فمِها شيئًا من الخُبز كي تُداويهِما. وجدَت اليخنةَ لذيذةً وساخنة، وقطعَ اللّحم كبيرةً ومُزدانةً بالدّهن، والخُبزَ مُحمَّرًا وسمينًا كإبهامِها وطَرِيَّ الجَوف. التهمت كُلّ شيء، ولمّا فَرَغَت رفَعَت القِدرَ إلى وجهها وراحَت تلعقُهُ حتّى بانَ لها الخزَف في قعرِه. جلبَ لها الرّجُل كوبَ شاي وهي غير منتبهة، ووضعهُ على مبعدة بضع خطواتٍ منها. أخذَتهُ، وجلسَت قابضةً عليهِ بإحكام حتّى كادَ يلسعُ أطرافَ أصابعِها.

– «ألهذا الحدّ بلغَ بك التّعب؟»، قال.

هزَّت برأسِها.

– «ماذا؟».

– «لا».

– «لا أفعلُ شيئًا سِوى الأكل»، قال. وطوَّقَ أحدَ مِعصَميهِ بأصابعِ يدِهِ الأخرى. «كانَت يدايَ نحيلتَينِ كأنبوبٍ معدنيّ. ولكنّي كنتُ، ولا أزال، حينَ أفرغُ من الصّيد أطبُخُ كُلّ النّهار، ثُمَّ آكُلُ كُلّ المساء. آكُل شِبَعَ خمسة رِجال. خمسة أو ستّة. أحيانًا أحسُّ بأنَّ في جوفي ستّة رجال، كالعصافير، ينتظرونَ الطّعامَ فاغِري الأفواه. وأنا آكُلُ وآكُل، بنهمٍ، كي أطعِمَهُم، ولكنَّ جسدي لا يزيدُ على وزني الحاليّ هذا. أتفهَم؟»، التقطَ الشيءَ الذي كانَ منشغلًا به،

وأراها إيّاه. «إنّهُ شَرَك. وقد لبثت أعملُ عليهِ منذ مدّة. تعرف ما هوَ، أليسَ كذلك؟».

- «لا».

دلّكَ الشَّرَك بيديه، وقلّبَهُ بين أصابعه، وقال:

- «هو بمثابةِ إغواء، طُعم. يوضعُ في ذيل الصّنارة فيصطادُ السَّمَك. قد أعملتُ فكري في هذا الشَّرَك تحديدًا. هوَ كبيرٌ، كما ترَى»، وصارَ يَزِنُهُ في يديه المَهزولَتين. «وإنّي أصنعهُ لاصطيادِ مخلوق أكبَر حجمًا. أبريهِ على مهل»، وحمَلَ سكّينهُ ليُريَها إيّاها.

لم تعُد تخشاه. فقد بدا متوفّرًا على كلماتٍ فائضة لم يسَعهُ إبقاؤها مكنونةً في نفسِه، ولم يكُن ثمّت أحدٌ يبوح لهُ بها.

- «تُريدُ مزيدًا؟»، قالَ مومئًا، قاصِدًا الشاي.

- «نعم»، قالَت دافِعةً الكوبَ إلى بُقعةٍ بينهُما. اقتربَ ماشيًا، بغرابةٍ، كأنّهُ ينسلُّ مُجانِبًا، مُقدِّمًا إحدى رِجليهِ أوّلًا كأنّما يختبر صلابة الأرض أمامه. تساءلت ما إذا كانَ يُقلّدُ مِشيَتها هازئًا أم لا. فقد فعلَ ذلكَ غيرُه من قبل. لمَست قدمُه الكوب، فكادت توقِعُه. وبينما سارَ عائدًا إلى قاربِه حاملًا الكوب في يدِه، تناهى إلى سمعِها صوتُ أنفاسهِ تُخشخشُ في ظهرِ حلقِه. فقدَ الماءُ لونه، وكذا السّماء كادَت تفقدُ لونها. وبدأ الجوّ يَبرُد أكثر، كأنَّ أحدًا ما قد أشرَعَ بابًا.

- «أعددتُهُ لك أثقلَ هذه المرّة»، قال واضِعًا الكوب بينهُما. «لا أعرفُ أيّ صنفٍ تُفضّل، الشايَ الخفيف أم الثّقيل. ولكن أؤكّد لك أنّهُ لن يُنبِتَ شعرًا على صدرِك. لم أعُد أومِن بذلك! نعم، لا أعرف أيّ صنف تفضّل. اسمي تشارلي. فما اسمُك؟».

تردّدَت. إذ لم تكُن راغبةً في إخبارِهِ باسمِها، لا لسببٍ واضِح. فقالَت: «ماركُس». بدا كأنّهُ لم يسمعها. كانَ متأبّطًا كتابًا، فأراها إيّاه. ولكنّ الظلامَ كانَ قد أغرقَ المكانَ كُلّه، فلم تقدر على قراءة العنوان.

- «لستُ ماهرًا في هذه الأمور. حتّى لو استطعتُ قراءتَها»، قال.

- «ما هيَ تلكَ الأمور؟».

- «الأسئلة، والألغاز. فلمّا كنت في مثلِ سنّك كُنت أستطيع الإجابةَ عليها بسُرعةٍ فائقة»، ورفعَ إحدى يديهِ وفرقع بوسطاهُ وإبهامِه معًا. «فإنَّ الفتيانَ ماهرون بمثلِ تلكَ الأمور: المسائل المنطقيّة، وإيجاد حلول للألغاز. لم أحظَ بفتى من صُلبي قطّ، ولكن لو تسنّى لي ذلك لكانَ ابني ماهرًا في حلّ الألغاز».

عادَ الرّجُل إلى حافّة القارب، قابضًا على الكِتاب بيدٍ، وباحثًا عن متشَبَّثٍ بالأخرى. أدرَكَت الفتاة، لحظتئذٍ، أنّه أعمى. جلسَ الرّجُل بغرابةٍ، مُدلّيًا ساقَيه الطّويلَتين.

- «هل أنت ماهرٌ بمثلِ تلكَ الأمورِ أيضًا؟»، قال.

- «لا أدري»، قالَت.

- «لقد حفِظتُ شيئًا منها. جرّب هذه: في غابةٍ واقعةٍ على مقربةٍ من مدينة بواتييه الفرنسيّة، ثمّت حظيرة. كانت فارغةً من سِوى رجُلٍ مشنوقٍ يتدلّى -مَيْتًا- من السّقف. كانَ الحبلُ المعقودُ حولَ عنقه في طولِ عشرة أقدام، وكانت رِجلاهُ تبعُدانِ ثلاثةَ أقدامٍ عن الأرضيّة. وكانَ أقربُ جدارٍ إليه على مبعدة عشرين قدمًا منه. وقد تبيّنَت استحالَةُ تسلُّقِ الجدران أو الدّعامات. ولكنَّ الرّجُلَ، رغمَ ذلكَ تمكّن من شنقِ نفسِه. فكيفَ فعلها؟».

- «وما أدراني!».

هزَّ الرّجُل برأسِه وقال:

- «وما أدراني أنا أيضًا»، وضربَ بقدمِه حافّة القارب. «ولكن أترى؟ صعبةٌ هذه الألغاز!».

- «ربّما. هل تذكُرُ لُغزًا ثانيًا؟».

ألفَت اللّغزَ الثاني أصعَبَ من الأوّل. فلم تعرف له جوابًا. وكذا هو. أمسَكَ بالشَّرَك مجدّدًا، وشَرَع يبريه بالسّكين. صحيحٌ أنّهُ كانَ مهزولًا، ولكنَّ يدَاهُ كانتا قويّتين وماهِرَتينِ في تشكيلِ القطعة الخشبيّة. لاحقًا، جلبَ الرّجُل ألحفةً ووضعها على الأرض.

– «لا أتذكّرُ أيَّ ألغاز أخرى»، قال. «فهلّا قرأت لنا شيئًا منها؟».

وضعَ الكِتاب بينهُما. أشعَّ من القارب نورٌ مُربّعُ الشّكل، فدَنَت منه آخِذةً الألحفةَ معها، ثُمَّ فتحت الكتاب وبدأت تقرأ منه ببطء.

– «في قديم الزّمان، عاشَت أختان. الأولى ولَدَت الثانية، والثانية ولَدَت الأولى. فمَن الأختان؟».

أراحَت رأسَها على ذراعَيها. فاحَت الألحفةُ برائحة الدّخانِ والبصل. خالَت أنّها عرفَت الجواب، رغمَ أنّهُ أبى الرّسوخ في عقلِها، وظلَّ ينزلقُ ويُخشخِشُ في جنَباتِها.



المُطاردة

بدا الميكانيكيُّ كأنّهُ يعاني اضطرابًا في الوزن، مِثلَ شخصٍ عائدٍ للتوّ من الفضاء، وساقاهُ مَهزولَتين. خِلتهُ سيمتنع عن إعطائي العنوان، بيد أنّهُ أبدى قبولًا، فكتبه لي على ظهرِ قُصاصة صحيفة. بدا، حتّى الذّهابُ إلى الإسطبلات حيث كُنّا نسكُن، مُختلِفًا عمّا سبق. كأنّي لم أقترب من إيجادِكِ بَعدُ قيد أنمُلة.

طُفنا، أنا والكلب، حول الحيّ عدّة مرّات، في محاولةٍ لبثِّ الشّجاعة فينا. بدَت المنازل كلّها كما كانت. انتبه الكلبُ إلى سنجابٍ، فانطلقَ صوبَه. مشيتُ مُسرعةً في أثرِه، فرأيتُ رقم المنزل المطلوب. لم يعُد ثمّت مجالٌ للتّراجُع. بانَ الرّجُل الذي فتحَ الباب وذراعاهُ تحمِلانِ دُمى وألعابًا، واضِعًا نظّارتهُ مائلةً قليلًا، وشعرُهُ قد انحسرَ من مقدّمتِهِ مُشكّلًا مثلّثًا. كانَ يتصبّبُ عرقًا، وأومأ لي أن أدخُل، فتَبِعتُهُ من غير أن أفسّرَ لهُ غايةَ وجودي. ربّما كانَ وجهي من صِنفِ الوجوه التي لا تبثُّ في مُتأمّليها الشّكوك. أقبل الكلبُ مُسرِعًا ورائي، فاستقبلَنا حشدُ أطفال. ترقّبتُ، في خشيةٍ، أن يعضّ الكلب واحدًا منهُم فنُطرَدَ كلينا من المنزل. «غْرافَلو!» هتفَ أحدُهم. قادني الرّجُل إلى المطبخ وأغلق الباب. عرضَ عليّ القهوة، ثُمَّ أعَدّ شايًا غيرَ مُختمرٍ وجُلّه حليب. لم يبدُ شبيهًا بِماركُس. بدَت العروقُ في وجنتيهِ مقطوعة، وأنفهُ مُتربّعًا على مُحيّاه. ندّت عنهُ زفرَة.

– «إنَّ غسّالة الثياب معطّلة منذ أسبوع تقريبًا، وأخالُ المشكلةَ في الأنبوب»، قال ونظرَ إليّ بشكلٍ مباشرٍ للمرّةِ الأولى. كانَ ثمّتَ مخاطٌ يُلطّخُ ثوبي الكتّانيّ، وشيءٌ عالقٌ على حذائي. «لم تأتِ إلى هُنا لتُصلّحي الغسّالة؟».

- «لا. آسفة!».

- «لا تتأسّفي. كانَ من المفترض أن يأتي المُصلّح يومَ أمس، ولكنّهُ لم يفعل. هل عرضتُ عليكِ القهوة؟»

رفعتُ كوبي كي يراه، وشرَعتُ في الحديث بغتةً من غيرِ أن أتمكّن من الصّمت، قائلةً:

- «كُنت أعرفُ ابنَك. التقيتُ بهِ عند القناة، ولكنّي لم أرَه منذ زمن. أتساءلُ إن كانَ قد عادَ إلى هُنا. فأنا أبحثُ حاليًّا عن أمّي، وأخالهُ يعرفُ مكانها».

بدأ الرّجُل يهزُّ برأسِهِ حتّى قبلَ أن أفرَغَ من حديثي. كما انتبهتُ إلى ارتعاشةٍ قد اعترَت يديه، كالاختلاجة التي تسبِقُ الزّلزال.

- «أخطأتِ العنوان!». قالَ، مُشرِعًا بابَ المطبخ، ومومئًا لي أن أخرج إلى حُجرة الجلوس. ألفيتُ الأطفال كُلٌّ مُلصِقٌ مؤخّرتهُ بالأرضيّة، ووجوهُهُم المُشرئبّةُ مُشعّة بانعكاسِ ضوءِ الشاشةِ المُمرِض، إلّا أصغرهُم إذ كانَ منبطحًا على الأرضيّةِ برفقةِ الكلب وحفاضتهُ مرتخية. أشارَ الرّجُل إليه وقال: «اسمُه آرثَر، تيمّنًا بجَدّي. أمّا البقيّة فبَنات».

- «ليسَ لديكَ أبناء آخرون؟ أكبر سِنًّا من هؤلاء؟ كانَت في مِشية ماركُس عَرجَة»، وجدتُني أقلّدُ عَرجَتهُ فكَفَفت. «وقد كنت واثقةً من أنّهُ ابنُك. ولكن لا بأس»، صفَّرتُ إلى الكلبِ أن يأتي، ولكنّهُ لم ينتبه لي. «لا بأس. معك حقّ. ربّما أخطأت العنوان. سأتركك وشأنَك».

كِدتُ أصِل إلى الباب. ثمَّت كلمة روسيّة تعني قفزَ أحدٍ وراءَ أحد: بُفْزكاكات - **ПОВСКАКАТ**. وحتّى الآن ما انفككتُ أقفزُ وراءكِ، بلا وعي. وصلتُ إلى الباب، وهممتُ بفتحِه مناديةً الكلب الذي لا أعرفُ لهُ اسمًا. «يا كلب»، ناديت.

- «عَرجَة؟»، قالَ الرّجل.

التفتُّ إليه. ألفيتُ الأطفال قد اجتمعوا، شابكينَ أيديهِم.

- «نعم»، قُلت. «في ساقه اليُسرى. كان يجُرّها على الأرضِ جرًّا».

عرفتُ أنَّ اسم الرّجل هوَ روجَر، وأنّهُ يُريد منّي أن أمكثَ حتّى تعودُ زوجته – التي قالَ لي إنَّ اسمَها لاورا. كما أنّهُ أمرَ صِغارَهُ أن يُكرموني قدرَ ما يستطيعون: فجلبوا لي أقداحَ ماء، وقِطَع خُبز بزُبدة. راقَبتهُ إذ يتحرّك، مُجَمّعًا بعضَ الثياب للغسيل، والحفاضة الوَسِخة، والدّمى المبعثرة. حاولتُ جاهدةً رؤيةَ أثرِ ماركُس فيه. هل تَذكُرينَ شَكله؟ كانَ أطولَ منكِ، مُحدَودِبَ الكَتِفَين، أسود الشّعر (قصّتهُ دائريّة قصيرة)، وقَلِق العَينين. طالَما قُلتِ إنّ عينايَ تُشبِهان عينيه، منتفختا الأجفان، ومتجعّدتا المُحيط قبلَ الأوان. تكلّمَت إحدى البنات، وكانت واقفةً عند مِرفَقي، بصوتٍ عالٍ.

– «ماذا؟».

– «ما اسمُ كلبِكِ؟»، قالَت البِنت. كانَ شعرُها مضفورًا في أربع أو خمس خُصَل بارزة من قمّة رأسِها. كانت على ثوبِها صورةُ شاةٍ غريبةِ المنظر.

– «ليس لهُ اسم»، قُلت مُحاولةً التّفكيرَ جاهدةً كيفَ ينبغي لشخصٍ بالغٍ أن يُحدِّثَ طفلةً صغيرة. «ماذا تُحبّين أن تُسمّيه؟».

بدَت حيرى من ثِقَل المسؤوليّة التي ألقيتُها على عاتِقها، فلم تُحِر جوابًا. قدَّمَت الأخريات اقتراحاتٍ، هاتفات معًا. كانَ روجَر واقفًا قُربَ النافذة، مُحدّقًا إلى الشارع. وكانَ الشَّعرُ على مؤخّرةِ عنقِه طويلًا شيئًا ما. لم يسبِق لي أن كُنت ماهرةً في التعامل مع الأطفال، وكانوا دائمًا يَبدونَ كأنّهُم يُدركون ذلك، فيُراقبونني وفي أنفسِهم خيفة. كتبنَ قائمةً مختصرةً فيها أسماء مُقترحة للكلب، وكانت طويلةً للغاية وجُلُّ أسمائها مُشَكَّلَة من أسماءِ حيوانات: كَلبوب، هرهور، خَنزور. حاولتُ تفريقَهُنَّ وإشغالَهُنَّ عنّي. كانت ثمّت دُمى في كُلِّ مكانٍ توضَعُ فيه –عادةً– قناني النّبيذ. كما كانت ثمَّتَ أقفال على كُلِّ خزانةٍ، ولكنَّ شيئًا لم يكُن مخبّأً فيها. شدَّتني إحدى البنات من يدي، وقبضَت عليها بيدٍ من حديد بينما حاولتُ أنا إفلاتَها بحزمٍ رقيق.

– «أوتَر؟»، قالَت. «ماذا عن أوتَر؟».

– «هل تُريدين الذهاب إلى الحمّام؟»، سألتُها. لم تُجِب، ولكنّنا صعدنا السلالِمَ رغمَ ذلك، يدًا بيد. ولمّا وصلتُ الطابقَ العلويّ راودَتني فكرةٌ مُقلِقَةٌ مباغتة أنّي أسأت الفَهم، وخلطتُ الأوراق. كَم طفلًا يضيعُ، ويَهجُرُ

منزله، كُلّ عام؟ كانت ثمَّت آثار خراب، دُمى منزوعة الرّؤوس، ثُلَم في الجُدران، مقابض أبواب مكسورة. قادَتني الطفلة إلى حُجرتِها، وأرَتني بعضَ الأغراض. سِرتُ في الممرّ قاصدةً حُجرة النّوم الرّئيسة في آخِره، ثُمَّ أوقفتُ نفسي. رأيتُ صورًا للرّجُل والمرأة التي لا بُدَّ أنّها لاورا. كانا يافِعَين في تلك الصّور، يرتديان ثيابًا مُبهجةَ الألوان. مرّرتُ يديَّ على علّاقات خزانة ملابسهِم. ورأيتُ على الجدارِ البعيد صورةً صغيرةً أخرى مُعلّقَةً في إطارٍ أخضَر. دَنَوتُ منها. كانَ الطّفلُ فيها مُنصرِفًا برأسِه عن الكاميرا، ومادًّا يدهُ صوبَ العدسة كي يحجبَ وجهه. رغمَ ذلك، كانت واضحةً تمامًا، تُظهِرُ جُزءًا من الوجه، وطرفًا من الأنف والفم، وحتّى هيئة الكَتِفَين. كانَ ذاكَ ماركُس. شعرُهُ أكثرُ تموُّجًا وأطوَل ممّا كانَ لمّا التقيناه.

– «هذه حُجرة نومِ بابا وماما»، قالت الطّفلة في الممرّ.

– «أعرف»، قُلتُ مُتنفِّسَةً بِعُمق.

عُدنا إلى السلالِم. فقرّرَت البنت –متأثّرةً بقوّةِ إيحائي لها– أنّها تُريد الذهاب إلى الحمّام قبلَ هبوطِنا إلى الطابق السفليّ، ولن تسمح لي بالهبوطِ وحدي.

– «لم يسبق لكِ أن زُرت منزلنا، صحيح؟» قالَت.

لا أذكُر أنّي كُنتُ في مثلِ حصافةِ تلك البِنت حين كُنتُ في مثلِ سِنّها. تذكَّرتُ أنّكِ وصَفتِني مرّةً بالكاذبةِ الباردة، وأنّي ذُهِلتُ لوصفِكِ. إذ لم يخطُر لي ببالٍ أنَّ ما كُنت أفعلهُ كَذِبٌ أصلًا. ربّما كانَ هَجرُكِ شبيهًا لذلك: ربّما لم يخطُر لكِ ببالٍ أنَّ ما فَعَلتِهِ هَجْرٌ أصلًا.

– «صحيح».

– «هل ستمكثين إلى الغد؟».

– «لا أعتقد ذلك».

– «يُمكنك أن تأخذينا إلى المدرسة؟».

– «سيُمكنني ذلكَ إن بقيت هُنا إلى الغد».

– «اسمي ڤيولِت. ما اسمُكِ؟ هل أنتِ مارغُت؟».

– «من تكونُ مارغُت؟»، قُلتُ وفتحتُ الخزانةَ فوقَ المَغسَل.

- «يا غبيّة»، قالَت مأرجِحةً رُكبَتيها المكسوّتين بالدّمامِل بينما تجلسُ على مقعد المرحاض تتلوّى. «مارغُت هي الابنة الأولى لأمّي. هي كبيرة ورَحَلت. ولكنّها كانت ستحبّنا. هل تحبيننا؟».

التفتُّ ونظرتُ إليها. كانت تحدّقُ إليَّ بحزم، مُريحةً مِرفقيها على ساقَيها. قالَت:

- «أريد أن أنظّف نفسي الآن!».

- «فلتفعلي إذًا. هل التقيتِ بمارغُت من قبل؟».

- «وهل التقيتِ أنتِ بها؟»، قالَت.

- «أخالُني فعَلت!».

سحَبَت ورقَ تنظيف كثيرٍ من اللّفافة يكفي لتنظيفِ ثلاثة فِتيان. دهَمَتني فِكرةٌ: أنّها ربّما لم تتعلّم بعدُ كيفيّة تنظيفِ نفسِها، وأنّي كُنت أسدي لوالِدَيها معروفًا تطوّعيًّا بمكوثي معها.

- «نحن لم نلتق بها قطّ لأنّها رحَلت»، قالَت.

- «تعنين بِرَحَلَت أنّها ماتت؟».

هبَّت البنت واقفةً ورفَعَت لباسَها التحتيّ بسُرعة وقالَت مُحدّقةً إليّ:

- «من التي ماتت؟».

تظاهرتُ أنّي لم أسمعها. ولمّا وصلنا الطابق السفليّ، وقفتُ حذاءَ روجَر عند طاولة المطبخ، نُحدّق إلى أصابع السّمك المقرمشة التي أعَدَّها لأبنائِهِ عشاءً إذ تختفي واحدةً تلو الأخرى تحت الطاولة حيثُ كانَ الكلبُ منتظِرًا.

- «أوتَر»، ظلَّت ڤيولِت تقول. «أوتَر، هل تريد إصبعًا آخر؟ أوتر، أوتر، أوتر!».

جَثَوتُ على رُكبتيّ بجانبِ الكلب وقُلت: «ما رأيك يا أوتو؟»، فنظرَ إليَّ ثُمّ ابتعَدَ كأنّهُ ليسَ متأكّدًا من رأيه. صارَ روجَر صافي العينين، وقد انزاحَت الحُمرةُ عن وجنتيهِ شيئًا ما. انتبهتُ إلى يديهِ ترتعشان وتساءلتُ عمّا إذا كنتُما -أنتِ وهو- ستفهمانِ بعضكُما، كما يفهَمُ الشّخصانِ اللّذان يمتنعانِ عن الشّرب في الحانة بعضهُما؟.

- «مارغُت هيَ ماركُس»، قُلت.

لم يبدُ متفاجئًا ممّا قُلت. لا تظلُّ الأسرارُ -في هذا المنزلِ- مكنونةً لمدّة طويلة. أمكَنَتني رؤية ڤيولِت إذ تُراقبُني بينما تتناوَل عشاءَها. أدركتُ أنّها لا بُدَّ خالَتنا صِرنا شَريكَتين.

- «لا أدري»، قال. «ربّما. كانت في مِشيَتِها عَرجة. كانت مُلازِمَتَها منذ البداية. مُذ عثرنا عليها».

- «ماذا تعني بِـ: «عثرنا عليها»؟».

أغمضَ عينيه بأناةٍ، وأبقاهُما مُغمَضَتين. صدَرَ صوتُ أنين الباب إذ يُفتَح. فهَبَّ الأطفالُ كفريق رُغبي وانضمَّ إليهِم أوتو نابِحًا. سمِعتُ صوتَ امرأةٍ تسأل: «كلب من هذا؟». وانتبهتُ إلى وجه روجَر قد تغيّر، وتحلحلَ قليلًا. ذهبنا إلى حُجرة الجلوس. وضعَت المرأة حقيبتها أرضًا، وحدَجَتني بنظرةٍ متفحّصة من رأسي حتّى قدَمَيّ. وقالَت: «ما الخطب؟». تجمهرَ الأطفال حولنا، جالِسينَ على أطرافِ الأرائك.

- «أنت هُنا سائلةً عن مارغُت»، قال روجَر. «كانت تعرفُها».

- «مارغُت!»، صاحَت إحدى البنات، وحذا حذوَها سائرُ الأطفال. رفَعَت المرأةُ يدَها في الهواء وصاحَت بِهم قائلةً:

- «اذهبوا جميعًا إلى أسِرَّتِكُم!».

مكثتُ وحدي في الطابق السفليّ لساعةٍ تقريبًا. خرجتُ برفقةِ أوتو إلى الحديقة، وجلستُ على أحدِ المقاعد وأرهفتُ السّمع إلى الضّوضاء الخافتة الصادرة من داخل المنزل. طالَما أحسستُ بأنَّ حياتَينا كانَ يُمكن أن تسيرا في دروبٍ عدّة، وأنَّ الاختيارات التي اتّخذناها أرغمَتنا على سلوكِ الدّروب التي سلكناها. ولكن ربّما لم تكُن ثمَّت اختيارات أمامنا، وربّما لم تكُن ثمّتَ دروب أخرى مُتاحة. ولكنّي، على أيّةِ حال، لم أتصوّر أنّنا قد ننتهي إلى مثل هذا المكانِ قطّ، رغمَ أنَّ ذلك كانَ يخطر ببالِكِ بينَ الحين والآخر: أن نسكُن منزلًا حذاءَ سكّة حديد، للمنزل حديقة، وأنتِ تنتظرينني فيها بعد المدرسة. لوهلةٍ، خِلتُني رأيت نورًا يُضاء في السّقيفة الواقعة في مؤخّرة الحديقة، ولكنّ النّور لم يلبث حتّى اختفى، فقرَّرتُ أنّهُ كانَ ولا بُدَّ محض انعكاس لأنوار المنزل.

خرجَت لاورا، ووقفَت حذاءَ مقعدي. نظرتُ إليها، فأدركتُ أنّها أكبرُ سنًّا ممّا تخيّلت، قد جاوَزَت تلّةَ الخمسين، وأكبرَ من أن تكون قد أنجبَت أولئكَ الأطفال الصّغار.

– «تساءلتُ عمّا إذا كانَ أحدٌ سيأتي أم لا»، قالَت. «ليُخبرني أمرًا لا أوَدُّ معرفته! أتعرفين إحساسَ العَدْوِ فوق قضيبِ سكّة حديد واحِد؟».

وددتُ أن أخبرَها أنّها لن تُصدِّق كم أعرفُ ذلكَ الإحساسَ حقًّا، ولكنّي عِوَضَ ذلكَ قُلت:

– «أخالُني أعرفه».

– «لم ينتهِ الأمرُ قطّ. ولذلكَ أخبرنا الأطفال عنها. لأنّنا ما انفككنا نُفكّر فيها كُلّ الوقت».

– «لم تكُن فتاةً لمّا التقيتُ بها»، قُلت.

– «أكانَت في مِشيَتِها عَرجة؟ تجُرُّ رِجلَها جرًّا؟»، سألَت هازّةً برأسِها.

– «نعم».

– «أنتِ أصغر منها سِنًّا»، قالَت بينما تتأمّلُني.

– «كُنت صغيرةً، في الثالثة عشرة من عُمري إن لم تَخِب حساباتي. كنتُ أعيشَ مع أمّي على ظهرِ قارب. وقد مكثَ معنا ماركُس، مارغُت، لشهرٍ ذات شتاء».

– «إنّها هي».

– «ربّما»، قُلت.

رانَ صمت، فصارَ غيرَ مُريح. ابتعدَ الكلبُ مُحاولًا اصطيادَ شيءٍ في الأجمات المُعتمة.

– «لديكِ أطفال كثر»، قُلت وتمنّيتُ أنّي خرِست ولم أقل شيئًا.

جلسَت على حافّة المقعد. دَنَت منّي كثيرًا، وضمّت يديها في حِجرِها. وقالَت:

– «حاولنا، بعدَ رحيل مارغُت، إنجابَ أطفالٍ من صُلبِنا. ولكن أوانَ الإنجاب كانَ قد فات، أو ربّما كُنّا عاجزَين عن ذلك. لم يكُن حالُنا جيّدًا من غيرِهم. مضى وقتٌ طويل حتّى أدركنا ذلك. لذا، لجأنا إلى التبنّي. اعتدتُ

على التّفكيرِ كُلّ ساعةٍ (لم أعُد أفكّرُ بذلكَ الآن، إلّا بين الحين والآخر) في أنَّ مارغُت ستعود ذاتَ يومٍ وتجِدُ أنّنا استبدلنا بها أخريات!».

نهضَت واقفةً، وصفَّرَت لِأوتو أن يأتي إلى بُقعةِ تُرابٍ في أحد أحواضِ الزّهور، ضرَبَت البُقعةَ بنعلِها مرّاتٍ حتّى وصلَ الكلبُ وشرَعَ يحفر فيها. دسَّت يديها في جيبَيها، وراحَت تُراقِبُه. رُحتُ أنا أفكّرُ في ماركُس والوقت الذي أمضيتهُ بصُحبته على النّهر، وراحَت هيَ تُفكّرُ فيهِ -لا محالة- لأنّها قالَت:

- «ماذا حلَّ بِها؟».

تنفَّستُ بعُمقٍ، وحاولتُ التّفكيرَ بشيءٍ حَسَنٍ أقوله (أحسَن ممّا جرى)، شيءٍ مُرضٍ على الأقلّ، فيهِ قبَسٌ من عزاء. ولكنّي لم أجِد شيئًا، فقُلت:

- «لست أدري!».

النَّهر

في الصّباح، خرجَت مارغُت وتشارلي إلى الدّرب المحاذي للنّهر، وأكلا فطائرَ بانكيك سميكة طغَت فيها الصلصة الحارّة لدرجةِ أنَّ لونَ العجينةِ استحالَ أحمرَ، والدّموعَ انهمَرت من عَيني مارغُت شلّالًا لساعةٍ تقريبًا. تكلَّمَ هوَ جُلّ الوقت، وأنصتت هيَ إليه مُستمعة. أخبرَها عن شبابه وكيفَ أفناهُ في جَوبِ القَنوات، صعودًا إلى بوّاباتِ بيرمِنغَم، عبورًا مِن تقاطُع مصبِّ نهر سِفِرن، نزولًا جنوبًا إلى أبعدِ بُقعةٍ ممكنة، وصعودًا شمالًا إلى أبعد بُقعةٍ ممكنة أيضًا. غالبًا ما كانَ يبقى في تلكَ البُقعة، جائيًا وذاهبًا عبرَ الدّروب القديمة.

انطفأ نورُ البصَر في عينيهِ شيئًا فشيئًا. قالَ إنّهُ، باديءَ ذي بَدء، ألفى لطخةَ ضبابٍ قُرب الزاوية السفليّة لعينه اليُسرى. وظلَّ كُلّما انتبه إليها يخالُها، لمُدّةِ أسبوعٍ ربّما، مخلوقًا يُطارِدُهُ في النّهر، يُبحِرُ قُربه، أو لطخةً في المشهدِ الطبيعيّ تتبعُهُ أينما ذهب. إلّا أنَّ ذات البلاء نزلَ بعينهِ اليُمنى. اتّسعَت رقعة الضباب، فتشتّت انتباهه ذاتَ مرّةٍ، وبدل أن يَحيدَ في أثناءِ إبحارهِ أكملَ دربَه قُدُمًا، فارتطمَ بقاربٍ آخر. أدركَ، لحظتئذٍ، أنَّ فَقدَهُ بصرَه مسألةُ وقت. فثبَّتَ القنديل على مقدّمة القارب، وأبحرَ خلالَ العتَمَة والأيام. ما خَشِيَهُ كان!. فعزمَ أمرهُ على العَيشِ والإبحار حتّى آخر خيطِ نورٍ في عينيه.

وذات صباحٍ، استيقظَ أعمى، غيرَ قادرٍ على الإبحار مجدّدًا.

طوّقَ بأصابع يدهِ مِعصَمَه، وأراها نحولتَهُما، وتكلّمَ مرّةً أخرى عن الشَّرَكِ الذي يصنعه. وأخبرَها أنّهُ يفتقد الإبحارَ بقاربِه.

– «لماذا؟»، قالَت.

– «لماذا ماذا؟».
– «لماذا كُنت تُفرِطُ في الإبحار بقاربِك؟».
خالَته لن يُجيب، فاعتراها حرج من سؤالِها.
– «أبحرتُ كثيرًا، لأنّي كُنت أبحث عن شخصٍ ما»، قال أخيرًا. «سلختُ أعوامًا طويلةً في البحث عن ذلكَ الشّخص!». لم يَزِد على ذلك. همسَ بشيءٍ مُتذمّرًا، ثُمَّ انثنى.
– «أمُصابٌ بالبَرد؟»، قالَ حينَ سمِعَها تتنشَّق.
– «نعم».
– «انتخِع على الضفّة».
ففعَلَت، مُحنيةً ظهرَها إلى الدّرب الموحِل وضاغطةً على إحدى فتحَتي أنفِها.
– «ما لونُها؟»، قال.
– «أخضر».
– «أنتَ مُصابٌ بالتهابٍ إذًا. اصعد إلى القارب».
نهضَ ويدأ يسيرُ صوبَهُ من غير أن ينتظرَها. لم تعُد خائفةً منه. أزالَ خوفَها شيءٌ ما في كونِهِ أعمى، أو في الأسى في قصّةِ بحثِهِ عن شخصٍ لأعوامٍ وأعوام من غيرِ أن يعثرَ عليه. كانَ القاربِ آيةً في التّرتيب، وكُلُّ شيءٍ فيه موضوعٌ في مكانِه. كما كانت ثَمَّ أربع مقالٍ معلّقة على أحدِ الجُدران، وكوبانِ فيهِما الملاعق والأشواك. كان التواجُد في القارب باعثًا على الارتياح. ولصُّ القناةِ يسكُنُ الماءَ ويسيرُ على اليابسة، ولكنّها اطمأنّت إلى أنّهُ لن يتمكّن من صعود القارب. فَعَلت مثلما أمرَها، فوَضعَت الإبريق على النار، وملأت بمائِهِ المغليِّ قِدرًا، وثبّتت وجهها فوقَه لتتنشّق بُخاره.

لاحقًا، بدأ الرّجُل يطبُخ بينما هيَ جالسة تُشاهده. طبخَ التوابلَ في الزيت، فاستحالَ الجوُّ حارِقًا حتّى غصَّ القاربُ كُلّه بشَواشِ الحرارة، فطَفِقا كليهما يسعلانِ ويُجمجِمان، فارَّينِ إلى ظهر القارب كي يلتقطا أنفاسهُما. قال إنَّ ما طبخَهُ هوَ معدة خنزير، وأراها الدّهن. كانَ يُناديها بِـ 'يا ولَدي'، أو 'يا فتى'، غيرَ مُدركٍ أنّها فتاة. ذاتَ مرّةٍ، لما كانت صغيرةً، وضعَ والدُها –روجَر– قِدرًا

فوقَ رأسِها (بدل أخذِها إلى حلّاق) وجزَّ شعرَها بشكلٍ دائريّ. فظلّت هيَ لأسابيعَ بعدها -لمّا تُبصِرُ صورَتها الغريبة في المرائي- ترتاع. صارَت تُشبِهُ الفتى الذي كان يقطنُ المنزل المُجاور لمنزلِهم، وقد أشبَهَتهُ بمجهودٍ قليل.

جلسا على ظهرِ القارب، وشربا الشايَ الذي أعَدَّتهُ هيَ لهُما.

- «أبحثُ عن ابنتي»، قال في منتصفِ حديثٍ آخَر. جلسَت الفتاة ساكنةً تمامًا. وبدا هوَ مُنهمِكًا فيما قال، متمايلًا حتّى تمايلَ القاربُ على وقع تمايُلِه كأنّهُما مُتصلانِ بِصِلَة. «ظللت أبحثُ عنها لعشرة أعوام. وربّما أكثر. لقد اختطفوها منّي. كانت صغيرةً، ولم تكذِب قطّ. اختطفَتها أمّها منّي».

أفرَغَ بقيّة شاي كوبِه في الماء. رأت في السّماءِ، ليلتئذٍ، بروجًا. كانت أمُّها -لاورا- قد حاولت تعليمَها أسماءَ البروج مرّةً، بيد أنّها لم تحفظها جيّدًا، فلم تتذكّر منها سوى شذرات: بُرج الدّب، بُرج الكلب، بُرج المُنعزِل. افتقدَت والديها. أحسَّت بألم الفَقْدِ في عظامِ مِعصَميها وكاحِلَيها، وبمرارتِهِ في ظهرِ لسانِها. بالكادِ سمِعَتهُ إذ كانَ يُحدِّثُها.

- «ماذا؟».

- «سألتُكَ: إلى أين أنتَ ذاهب؟».

دَنَت منها السّماء ثانيةً. لم ترغب في إخبارِهِ بما قيلَ لها، وبما كانَ مقدورًا عليها أن تفعلَهُ إن هيَ بقيت في منزلِ أبوَيها. ولكن، كان صعبًا عليها تركُ الرّجُل من غير شيءٍ في المقابل.

- «هل تعتقدُ»، قالَت. «بأنّكَ -لو علِمت بما سيحدثُ في المستقبل- ستقدِر على تفاديه؟».

- «ماذا تعنين؟».

أحسّت بالفِكرة مبعثرةً في رأسِها. لم تدرِ كيفَ تُعبّر عنها بصوتٍ عالٍ. لم تخَل أنّها قد تُعبّرُ عنها يومًا، أن تُفصِحَ عنها. تُرى، هل يقذِفُ الإفصاحُ عن الشيء بهِ إلى أرضِ الوجود، بعدما كانَ غيرَ موجودٍ بالكامِلِ قبل ذلك؟.

- «هل تعتقدُ بأنَّ الحياة خطٌّ مستقيم؟».

- «خطّ؟»، بدا كأنّهُ يُعمِلُ فِكرَهُ في الأمر. «لا. ليسَت خطًّا».

- «هل كُنتَ»، قالَت وتساءَلت ما إذا كانَ الأجدر بها أن تخرَس. «ستُغيِّرُ ما وقعَ لو علِمتَ مُسبقًا بأنَّ ابنتكَ ستُختَطَفُ منك؟ لو أنَّ أحدًا أخبركَ بما سيحدُث».

- «نعم»، قال. «كنتُ سأمنعُها».

أمكنَها رؤية النَّفَس الخارِج من رئتيه في الجوّ بينهُما. والتقطَت ساقُها المُصابةُ وخزَ البَردِ، فتناغَمَت معه.

- «إنَّ الحياةَ كما أراها»، قال. «أشبَه بقُرصٍ دَوّار. كَكَوكبٍ، أو كقمَرٍ يدورُ حولَ كوكب. أتفهم؟».

- «نعم»، قالَت. رغم أنّها لم تكُن واثقةً من ذلك.

- «الحياةُ كذلك. أحيانًا تُطِلُّ على جهةٍ ما، ولكن لوهلةٍ فحسب، ثُمَّ تدورُ وتدور على مِحوَرِها بسُرعةٍ جنونيّة حتّى لَتتعذَّرُ رؤيتُها. بيد أنّك - أحيانًا- تلمحها فتجلس مُدرِكًا أنَّ تلكَ الصّورة التي كانت ستكونُ لو جرَت الأحداثُ على نحوٍ مختلف، أنَّ تلكَ هيَ الصّورة المُحتَمَلة التي كانَ يُمكِنُ أن تكون».

كذلكَ ظلّا جالِسَين. لم يكُن الجوّ هادئًا، بل ضاجًّا بخريرِ النّهر، وصخبِ طَيرٍ لم تتسنَّ لها رؤيته، وفوضى أناسٍ في قواربَ أخرى. أمكَنَتها رؤية المصانع شامخةً بقرونِها صوبَ السّماء المُظلمة، ومشارِفِ المدينة.

- «ما الأمرُ الذي كُنتَ ستفعله؟»، قال.

ضمَّت الفِكرةَ بحِرصٍ في عقلِها. فألفَت أشواكًا منبجسةً من الكلمات حتّى غدَت مُقَلقِلَةً كجمرٍ حارّ.

- «تنبَّأ أحدهُم بأنّي سأؤذي والِدَيّ إن لم أهْجُرهُما»، قالَت.

تأمَّلَ الرّجُل الفِكرة لثوانٍ، ثُمَّ بصقَ كُتلةً كرويّةً من فمِه في الماء.

سلَكَ النّهر طريقَ القِطار ذاته، فأيقظَها في خيمتِها صوتُه. كان من الأصعبِ عليها -وهي تستلقي يَقِظَةً تُحسُّ بالبردِ يتغلغلُ من تحت الألحفة- ألّا تفكّر في السبب الذي حدا بِها إلى هَجْرِ منزلِها. نهضَت، وأنزلَت سحّاب الخيمةِ قليلًا كي ترى السماء شِبهَ غاصّة بالنّجوم فوقها وقد اقتحمَها تلوّثٌ من مكانٍ ما قريب، والدّربَ مُظلمًا كماءِ النّهر.

كانت ستُغادِرُ من غير أن تقولَ شيئًا، عائدةً إلى المنزلِ عند النّهر، وطرفُ حديقتِه مُنحدِرٌ كمِخرَطَةٍ صوبَ القناة. لم يكُن ما قيلَ حقيقةً، بل محضَ احتمال، دربًا قد يُسلَك. وقد كانت واثقةً من أنّها، لو علِمَت بما سيحدُث، ستتفاداه مثلما قد تتفادى حادثَ سَير.

مرَّ قطارٌ ثانٍ، من مقربةٍ حتّى لَأحسَّت بدُخانِه، وبحُجُرات عرباتِهِ المُضاءةِ بنورٍ أبيض، والوجوه المُطلّة منها.

أعادَت رفعَ سحّاب الخيمة. ودثّرت نفسَها، حتّى رأسِها، بالألحفة. طالما اعتقَدَت أنَّ بعضَ الناسِ ينطوونَ على علمٍ مكنونٍ ليسَ لغيرهِم، وقد أخبرَها أحدُ أولئكَ بما ستقترفُهُ في المستقبل: فقد كانَ مكتوبًا على مارغُت أنّها إن عادَت إلى منزلِها، فستقتُلُ أباها. وأنّها إن عادَت فسَـ... لم تجرؤ على استذكارِ ما ستقترفُهُ ثانيًا. لم تكُن ثمَّت لغةٌ يُمكنُها أن تتسعَ للبَوح بذلك. فقد كانَ لذلكَ الكلامِ مذاقُ الرّماد، واللّبن الفاسِد، والخُبز المحروق.

المُطارَدة

جلستُ إلى طاولةِ مطبخ لاورا وروجَر، مُنصِتةً إليهما إذ يتحدّثان. صدرَ صوت تشويشٍ من جهاز مراقبة الأطفال، يعلو ويخفت. وطغى على الجوّ إحساسُ تطهيرٍ وارتياح. فطالَما انتظَرَ الوالِدان أن يبوحا بما في صدريهما، أن يسكُباه على الطاولة، أن يُحدّقا إليه.

حين كانت لاورا في مطلعِ العشرين، ماتت جدّتُها المُسِنّة مُخَلِّفَةً صناديقَ ملأى بأعدادِ مجلّة برايِڤت-آي، وأكياسَ شايٍ متهالكة، ومراحيضَ ملطّخة، ومنزلًا. كانَ المنزلُ رطبًا وبعضُ أبوابِه مُقفلةً أو خَرِبَة. وكانت في بهوِه أطباق فيها مفاتيح بدا أنّها لا تفتحُ بابًا. وكانت في حديقتِهِ شجرة تفّاح جذورُها ضاربةٌ حتّى لتكاد تَهوي بالسّور، وفيها أيضًا سقيفة صغيرة متهالكة. أحبَّ روجَر الحُجرات الصّغيرة، والحَيِّزَ الضيّقَ في العِليّة، وخريرَ ماءِ النّهر المُجاور لجُدرانِ الحديقةِ البيضاء. قالَت لاورا إنّهُما كانا يعيشانِ حياة بؤسٍ: في منازل مُستأجرة، ووظائفَ مؤقّتة. كانا يعيشان في فقرٍ مُدقِع. وقالَ روجر إنّهُما كانا في مثلِ فَقْر فئران الكنائس.

أمكنَني تخيُّلُهُما. بشعورهِما الطويلة، يدًا بيد، يقرآنِ قوائم الطعام المعلقة على نوافذ المطاعم، ولكن من غير أن يدخلا، ثُمَّ يعودان إلى بيتهما متأخّرَين، مُستدِلَّينِ بمصابيح الشوارع. لم يكُن لديهِما أطفال بعد، بيد أنّهُما -في بعضِ الأحيان: في الصباحات وهُما بعدُ لم يستيقظا تمامًا- يتجادلانِ في الأسماء التي قد يُطلِقانها على أطفالهِما.

مكثا ثلاثة أشهُر، فغصَّت متاجرُ التبرّعات الخيريّة بكُلّ ما رتّباه في

صناديقَ وتبرّعا به. كان زُجاجُ نافذةِ حُجرة نومِهما رقيقًا كصفحةِ جليد. وكانت ثمّتَ بوماتٌ مسطّحة الوجوه تصطادُ على مقرُبة، وقِطط تتنازعُ على الجسرِ المقوَّس الذي كان يقصدهُ المشرّدونَ وينامونَ تحته.

«هذا صوت حيوانٍ ما لا محالة!» غمغمَت لاورا لمّا سمِعا صخبًا ذات ليلة. انقلبَت إلى الجهة الأخرى من السرير، واستأنفَت نومَها. أمّا روجَر فلم يستطِع النّوم. فقد استمرّ الصخب، بعِناد. فانتعلَ خُفّيه، وارتدى عباءةَ لاورا العتيقة، واعتمر قبّعةً وجدها عند الباب الرّئيس. كانَ الدرب المُحاذي للمنزلِ مُفضيًا إلى الجسر، ثُمَّ نزولًا إلى ضفّتي النّهر. وقفَ روجر في الدّرب مُرهِفًا السّمع. لم يكُن ذلكَ نعيقَ بوماتٍ أو مواءَ قطط. بل كانَ ذلكَ –حسبما ظنَّ– صوتَ طفل.

كانت العَتَمة طاغيةً، فلم يقدِر على تبَيُّن الدّرب، ولا على تبيُّنِ منبع الماء. تبِعَ الصّوت، خطوةً بخطوة. خشيَ أن يتعثّر فيسقُط مؤذِيًا رأسَه، أو يسقُطَ في النّهر فلا يعثرَ عليه أحد أبدًا. واصَل مسيرَه. ألفى سلّة قمامة، نصفُها مخبّأً في الأجمة، قاطِعًا الدّرب. وألفى في داخلها طفلةً، مُدثَّرةً بلِحاف، تمصُّ قِشرَ برتقالٍ وتبكي. قال روجَر إنّهُ أحسَّ بشيءٍ إنجيليّ حيالَها، شيءٍ أسطوريّ. حملَها، وضمَّها إلى صدرِه، وعادَ بها إلى المنزل.

أتت الفتاة إليهِما. فكانت تكُفُّ عن البُكاء فورَ أن يحمِلَها أحدُهُما، وتلتهم أصابع السّمك التي يطبخانِها التهامًا، وبدَت كأنّها تستمعُ مُنصِتةً إليهِما حين يُكلّمانِها، وتبكي حينَ يُغادِرانِ حُجرتَها. وفي الليل، حينَ تشرَعُ في البكاء، كانَ روجَر يدخُل حُجرتَها ويقفُ عند سريرِها. وكانت هيَ تتصلّبُ عند حضورِه، متيقّظة. وكذلك يظلّان، مُستمِعَينِ إلى خرير ماءِ النّهر عند جُدرانِ المنزل، وصخبِ غسّالة الصّحون في الطابق السفليّ، وصرير الفِئران في العِليّة. قالَ روجر إنّهُم كانوا جميعًا يهبطونَ متدَحرِجين صوبَ تلكَ اللّحظة، مُتدحرجينَ بلا انتباهٍ إلى سفوحِ التلال قبالتهُم.

مرَّت إجراءات التبنّي بسُرعةٍ مُفاجئة. فلَم يظهَر أحدٌ ليُطالِبَ بالفتاة. لم يرغب بِها أحدٌ سواهُما. زارتهُم المرأة المسؤولة عن وكالة التبنّي مرّتين كُلّ يومٍ في أوّل أسبوع. وكانت امرأةً ضخمةً تُدعى كلاوديا، حاجِبُها مثقوبٌ،

ولا تفعلُ سِوى أن تجلسَ بهدوءٍ كُلّ الوقت حتّى كانا -غالبًا- ينسيانِ وجودَها أصلًا. كانَ من العسيرِ عليهِما أن يريا أحدًا سوى الفتاة، وكيفَ كانت عيناها تتبعُهُما في أرجاء الحُجرة. وفي زيارتِها الأخيرة، رافق روجر المرأةَ إلى الباب مودّعًا. كانَ يشغلُ بالَهُ، ويُقلِقُهُ، أمرٌ ما.

- «لِمَاذا لم يُطالِب بالفتاةِ أحد حسبَ ظنّكِ؟»، سألَها.

كانت توشِكُ أن تصِلَ إلى سيّارتِها. فعادَت ببطءٍ، وأجابَت:

- «الأسبابُ عديدة».

- «ما السببُ الذي تظنّينه؟».

- «أمضيتُ بعضَ الوقتِ عند القنوات في بداية عملي»، قالَت مُشيرةً صوبَ النّهر. «وليسَ ذلكَ بالأمر الهيّن. فإنَّ لدى الناسَ هُناك مُجتمعاتهم الخاصّة، وقوانينهم الخاصّة. فلا يستعينون بالشّرطة أو خدماتِ الأطفال حينَ يطرأ عندهم أمر. إذ إنَّ لديهِم سُلطتهُم الخاصّة. عالمُهُم مختلفٌ تمامًا عن عالمِنا. ولقد تركوا الطّفلة في الدّرب لأنّهُم أرادوا لشخصٍ آخر أن يعثُر عليها. ولم يُطالب بها أحدٌ لأنَّ أحدًا لا يبحث عنها».

ظلَّ الزّوجانِ يطرحان عدّة أسماء للفتاةِ كُلّ أسبوع، وكُلّ يوم. قالت لاورا بأسى: إنَّ الوقتَ لم يتسنَّ لهُما كي يُحضّرا لها اسمًا على مهل. لم يكونا مُستعِدَّين. وذاتَ يومٍ ناداها بِـ «مارغُت». فالتصقَ بها الاسمُ كدبّوسٍ في حائط. مارغُت.

- «خشيتُ أنَّ ثمَّت خطبًا ما بِها»، قالَت لاورا.

- «خطبًا مثل ماذا؟»، قُلت.

- «أيّ شيء. حرَمني ذلكَ النّوم»، قالَت. «فأغرقتُ في التّفكير بهِما».

- «ماذا تعنين؟ من هُما؟».

- «والِداها. والداها البيولوجيّان. فقَد يكونُ ثمّت خرابٌ مكنونٌ في جيناتهما التي أورثاها الفتاة. إذ إنّ الناس لا يُورّثون أبناءهم لونَ الشعر والعَينين فحسب، أليس كذلك؟ إنَّ الأطفال خرائط جينات آبائهم».

صدرَ تشويشٌ من جهاز مراقبة الأطفال، فتصلّب الزّوجان وانتبها، ولكن سُرعان ما ارتاحا حينَ اختفى التّشويش، واستراحا في جلستِهما ثانيةً، واستأنفا الحديث.

كانت مارغُت عريضة الذّقن، مُستقيمة الأنف، مسطّحة اليدين، سميكةَ الحاجِبَين مِمّا جعلها مثارَ شكوك، وأحيانًا، أضفى عليها سَمت فتاةٍ مُتفاجِئة. كانت أكبرَ من سنّها: رُكبتاها مثل رُكبَتي حِصان، وبراجِمُها أكبرَ من أصابعِها. كما تأخّرت في الزّحف، وتأخّرت في المشي أيضًا، وحينَ بدأت في المشي -بعد لَأيٍ- بانَ سببُ تأخّرها جليًّا. كانت في ساقِها اليُسرى عَرجَة طفيفة، فكانت تبدو كأنّها تُجَرُّ وراءَ اليُمنى كمثلِ مقطورةٍ متهالكةٍ تَجُرُّها سيّارة جديدة. كانت لدى الطّبيبةِ ساعةٌ معلّقة في ميداليةٍ تُؤرجحُها أمامَ عيني مارغُت، فتَفزعُ مارغُت منها. كانت الطبيبةُ تضغطُ على ساقِها المُصابة، مُحاولةً إعادتها إلى استقامتِها، حاملةً القدَمَ في يدَيها. كانت لاورا تظلُّ محدّقةً إلى صورة الأشعة، إلى الخطوط البيضاء، ورُقعة السَّواد. كانت الطّبيبة تضعُ قلمَها في فمِها وتُشيرُ إلى العَيبِ الخَلقيّ: الالتواء في عظمةِ ساقِ مارغُت اليُسرى، التي سبّبها ضغطٌ كبيرٌ لا محالة. لمّا صارَت مارغُت في السابعة، أُزيلَت الدّعامة. فصارت تُحِسُّ بعِظامِ ساقِها، في الأشتِيَةِ الطويلةِ، تَكويها ألمًا. وتُحِسُّ، في الأصيافِ، بالماءِ يتجمّعُ في أوصالِها. وتستذكِرُ، في الخُرُف والأربِعةِ، أحاسيسَها تلك وأنَّ السيرَ باستقامةٍ لن يتيسَّر لها أبدًا.

كانت حَذِرةً حدَّ الرّيبة -قالَت لاورا- كأنَّ كُلَّ ما كانا يُحاولانِ تعليمَها إيّاه محض خدعٍ وألاعيب. ولم تُصدِّق بأنَّ بعضَ الكلمات التي كانا يُعلّمانِها إيّاها موجودة أصلًا: بليد، كاتشَب، هِجاء، بُهلول. كما لم تُصدِّق أنَّ المزروعات التي كانا يزرعانِها في الحديقة ستطرحُ ثمرًا أبدًا. ورغمَ ذلك، كانت ماهرةً في العمل اليدويّ، مُستمتعةً بالنّزهات المتأنّيةِ التي كانوا يقومونَ بها في أرجاء البلدة وفي الدّرب المحاذي للنّهر. فبدآ ينسيانِ بمرور الأيامِ -شيئًا فشيئًا- أنَّهُما لم يكونا أبوَيها اللّذينِ أنجباها.

أحيانًا، كانَ روجر يُصادفُها جالسةً على سريرِها تتأمَّلُ السّقف، حيثُ

ألصَقَت لاورا عليهِ نجومًا لامعةً في الليل في صُوَر بروجٍ مختلّة. ‹إلامَ تنظُرين يا مارغُت؟› كانَ يسألها، فما كانت تُجيبُه بِسوى ‹لا إلى شيء›. أحيانًا كانت تُثير حنَقَه. هيَ لم تكُن مثلَ سواها من الأطفال الذي كانت لاورا تتوقّفُ أحيانًا لمشاهدتهِم إذ يتسابقون حولَ الملعب أو يلعبونَ نَطَّ الحبل، أو يركبون الدرّاجات الهوائيّة.

‹ماذا فعلتِ في المدرسةِ اليوم› كانا يسألانِها، فتظلُّ تُفكِّرُ في جوابٍ كُلَّ طريقِ العودة إلى المنزل، وفمُها مشدود، حتّى تُجيبَ أخيرًا: ‹رسَمنا، وركَضنا›.

– ‹وأينَ ركضتُم؟›.

فكانت تعبِسُ، بالكادِ مُصدِّقَةً جوابَها إذ تقول: ‹ركضنا إلى الجدار، ذهابًا وإيابًا›.

لم تُصادِق أحدًا –حسبما رأى أبواها– سِوى الصبيّ الذي كانَ يسكُن في المنزل المُجاور، ذي الشّعر الخفيف واللّسان الثّقيل. كانت مارغُت تذهبُ إليه فيخرُجانِ باحِثَين عن الديدانِ الشاحبة الطريّة، أو مُخرّبَين أعشاشَ قملِ الخشَب، أو بانِيَين حواجِزَ ويُراقبان الماء إذ يتجمّع فيها. وكانَ الصبيّ يُعطيها هدايا: أوراقًا شكّلَت فيها أورِدَتُها أنماطًا غريبة، وتُفّاحاتٍ نخرَتها الديدان، وعُملاتٍ معدنيّة صدِئة لدرجةِ أنّها كانت لا تستطيعُ رؤيةَ رأسِ الملكة عليها.

ذات يومٍ، اعتلى الصبيُّ السياج الفاصل بين حديقَتي المَنزِلَين، وألقى بورقةٍ إلى الفتاة. تأمّلَتها وحملَتها إلى منزلها، وأرَتها لاورا.

– «ما هذه؟».

– «سايمن أعطانيها».

فتحَت لاورا الورقة على الطاولة، وقرأتها بصوتٍ عالٍ: ‹هلّا صِرتِ حبيبتي؟›. حدجَتها لاورا بنظرةٍ متفحّصة، ولم تنبس بكلمة. أخذَت مارغُت الورقة ودفَنَتها في الحديقة، كأنّما ستنمو وتنمو إلى الأسفلِ كشجرةٍ مقلوبة. ولمّا أتى سايمن طارقًا الباب، أبَت أن تراهُ أو تُكلِّمَهُ أبدًا. شاهدَتها لاورا إذ تدفن كُلّ رسالةٍ ظلَّ الصبيّ يُمطرُها بها من وراء السياج، من غيرِ أن تقرأ أيًّها.

ربّما كانت تلكَ شرارةَ البداية. تلكَ الكلمات على تلكَ الصفحات،

تنسكبُ من بعضِها إلى بعضِها. أبَت أن تقرأ، قائلةً لهُما إنَّ الكلمات أشبَه بالنّمل، لا تنفكّ تزحف دونما توقّف. وقد كانت إحدى المعلّمات اليافعات تُمضي مع مارغُت وقتًا إضافيًا، تُحدّثُها بحماسةٍ عن التقدّم الذي تُحرِزُه. باتت قادرةً على قراءةِ كتابٍ كامل. إلّا حينَ يطلبُ منها روجَر ذلك، فيراها قد أغمضَت عينيها وشرَعَت تُردّدُ ما حفظَتْهُ غيبًا. وحينَ يسألُها: «لِمَ لا تقرئينَ من الكتاب؟»، تُقفِلُ فمَها، ولا تنبسُ بكلمةٍ أخرى.

– «لِمَ لا تُحبّين الكلمات؟».

– «لأنّها تتحرّك».

– «ماذا تعنين؟».

– «أعني أنّها ليست لي»، كانت تقولُ بتلكَ الطريقةِ خاصّتها: جامِدَة العَينين حدَّ الإفزاع، كأنّها شابّةٌ تائهةٌ في جسدِ طفلة.

لمّا بلغَت مارغُت العاشرة، انتقلَت عائلةُ سايمن إلى منزلٍ آخرَ بعيد، فأضحى المنزل المُجاور فارغًا لشَهرينِ كاملين قبلَ أن تملأهُ قاطِنةٌ جديدة. وكانَ اسمُها فيونا. لم تحضُر معها مركبةُ نقلِ أثاث، بل ظهَرَت المرأةُ بغتةً – ذات يومٍ– مُرتديةً مِعطفًا مطيرًا أحمرَ، وحاملةً حقيبة. انتبهَ الوالِدانِ إلى انبهارِ مارغُت الغريبِ بِها، وكيفَ صارَت تَعدو صوبَ بابِ الجارةِ الجديدة لدى سماعِها أدنى صوتٍ من جهةِ الشارع، أو تجلسُ قبالةَ نوافذ الطابق العلويّ تراقبُ الحديقة. كانت تستلقي عند السياجِ الفاصِلِ مُنتظرةً فَتحَ الباب، وقد تغلغلَ التّراب في شعرِها وفمِها. وكانت تُلصِقُ أذنَها بالجُدرانِ الفاصلة ما بينَ منزلِهم ومنزلِ الجارة. لم تظهَر الجارة. فكانت مارغُت تُحاصِرُ روجر ولاورا عند المَغسَل، أو في طريقِهما إلى الخارج، أو حينَ يخرُجانِ من حُجرة النّوم، وتسألُهما: «من هيَ؟ مَن تكون؟»، فيُجيبانِها قائِلَين: «لا ندري. لِمَ لا تذهبين وتُلقينَ عليها السلام؟».

أعطياها خُبزَ موزٍ، ودرّباها على ما يجبُ أن تقولَهُ للجارةِ الجديدة: «مرحبًا. أنا أسكن في المنزل المجاور. اسمي مارغُت». وهكذا انطلَقَت، حتّى إذا وصلَت إلى الباب، تجمَّدَت، ووقفَت في مكانِها ترتعش، ثُمّ قفلَت

عائدةً إلى منزلها، وصعدت السلالِمَ إلى النافذة العلويّة حيثُ يُمكنها أن تُراقبَ المُحيط.

أخذَ روجَر خُبزَ الموز بنفسِه إلى فيونا. ألفاها تطلي درجاتِ منزلِها بالأصفَر، وقد تناثرَ بعضُهُ على شعرِها. أعَدَّت لهُ شطائِرَ نقانق وقهوةً حُلوة. وأصرَّت أن تقرأ طالِعَه في أوراق التاروت، ثُمَّ ضحِكَت ملءَ شِدقَيها لحظةَ رأت التّعبيرَ الذي ارتسمَ على مُحيّاه بعدما فَعَلَت. أُعجِبَ روجر بها. إذ إنّها كلَّمَتهُ بلا قيودٍ وضحِكَت معهُ بيُسر. لم يكن لديها أيُّ أثاثٍ تقريبًا، ولمّا فتَحَت الفُرن كي تضعُ فيهِ النقانق، أخرجَت منهُ الأحذية - إذ إنّها كانت تستعمل الفُرن خزانةَ أحذية أيضًا. ألفى روجر نفسَه (وقد تفاجأ لذلك) يدعوها إلى العشاء. لم يكُن لدى روجر ولاورا أصدقاء كثر. عند الباب، أخبرَ الجارةَ أنَّ مارغُت -ابنتهُ ولاورا- مُعجبة بها أيّما إعجاب. أسعَدَها سماعُ ذلك، فضمَّت يدَ روجر في يدِها.

أتت فيونا على العشاء في اليومِ التالي. كانت فارعة الطول كشجرة، ونحيلةَ الجسم، حمراءَ الفَم. في أثناءِ العَشاء، جلسَت مارغُت في مقعدِها ساكنةً فلَم تمسك حتّى بملعقتِها. أمّا فيونا، فأكلَت ثلاث قِطَع بطاطا من طبق السّلطة، والجزء الأوسط من رغيف خُبز، وشربَت كوبَ ماء ثُمَّ عادت إلى منزلها. جثَت مارغُت عند مقعدِها، وحملت رغيفَ الخُبز ونظَرَت من الفجوة في منتصفهِ إلى والِدَيها. تكرّرَت زيارات فيونا لهُم على العَشاء. وكانت مارغُت تخافُ منها قليلًا. كانَت أشبَهَ بساحرةٍ، لها أن تتحكّمَ بالأشياء. ظلَّت مارغُت تتبعُها أينما ذهَبَت، وتشاهدُها إذ تغتسِل أو تأكل تفّاحةً، أو تذهبُ إلى الحمام لقضاءِ حاجتِها. وقد انتبه روجر ولاورا إلى متابعتِها الحثيثة لِفيونا، وأخذا ذلكَ على محملِ الهزل. هُما لم يرياها مُعيرةً اهتمامًا بالغًا كذلكَ لأحد قطّ. وكانت تخافُ من ساعي البريد، ومُصلّح المغاسِل، وكذلكَ كانت في المدرسةِ منطويةً على ذاتِها وقلّما تُكلّمُ أحدًا.

- «ما الذي اعتراها حسبَ ظنّك؟»، قالت لاورا ذاتَ مساءٍ، بعدما خلَدَت مارغُت إلى النوم، مُخاطِبةً روجَر بينما كانا جالِسَين في الحديقة. «لماذا هيَ مفتونةٌ ومُهتَمّة إلى هذا الحدّ برأيكِ؟». فرفَع روجَر رأسَهُ مُحدّقًا إلى السماء، وقال:

- «ربّما أكون مخطئًا، ولكن هل تذكُرينَ كيفَ كانت تتصرّفُ مع السيّدة تْوغ؟».

كانت السيّدة تْوغ مُعلّمَة مارغُت المُحبَّبَة، امرأةٌ مَهيبَةٌ قد نيَّفَت على السّتين، ذاتَ صوتٍ حازمٍ وهادئٍ، بثَّت الخوفَ في صدرَي روجر ولاورا في اجتماعات الآباء، بيد أنّها كانت الوحيدة التي ما انفكّت مارغُت تتحدّثُ عن فضائلها حتّى تقاعدَت تلكَ وسافَرت إلى فرنسا. كانت مارغُت قد فُتِنَت بتِلكَ مثلما بدَت آنذاكَ مفتونةً بِفيونا، كأنَّ تينك الامرأتَين جذبتاها نحوهُما، فانبهَرَت بشيءٍ فيهِما لم يتسنَّ لروجر ولاورا تحديده، غيرَ أنَّ روجَر خالَهُ السّنَّ الكبيرة.

- «يجذبُها من هُم أكبرُ منها سنًّا؟»، تساءلَت لاورا مُرتابةً، فجلسا صامِتَين. استذكَرَت لاورا أنَّ مارغُت، في صِغَرِها، كانت تجلبُ من المدرسةِ رسومات. وكانت رسوماتُها تلك مُختلفةً عن رسومات سواها من الأطفال. كانت رسوماتٍ قاسية، بالبُنّيِّ والأسوَد. ورغم ذلكَ كانا يُعلّقانِها على الثلاجة. كانت قد رسَمَت ثلاثتَهُم في إحدى اللوحات: روجَر ولاورا ونفسَها، وامرأةً أخرى تكبُرُهُم حجمًا فكأنّها تُطِلُّ عليهِم، لها ذراعانِ متدلّيتان وفمٌ واسعٌ لطيف. ولمّا سألَتها لاورا عمّن تكون تلك، قالَت إنّها السيّدة تْوغ. لذلك، لم يكُن موضوعُ انجذابِ مارغُت هوَ السنّ، حسبَ اعتقادِ لاورا، بل السُّلطة، أو بالأحرى: حِسُّ التسلُّط الخَيِّر الذي هدفُهُ منفعة المرء.

ذاتَ مرّةٍ -لمّا صارَت مارغُت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة- أجلسَتها لاورا وأخبرتها أنَّ فيونا كانت فيما مضى رجُلًا.

- «أحيانًا»، قالَت لها لاورا. «نأبى الرّضا بقسمَتِنا. هيّا، كُلي عصيدتَكِ».

ولمّا رأت فيونا بعد ذلكَ في حديقةِ منزلِها تجتثُّ العُشبَ الضارّ، قرَّبَت مارغُت فمها من أذُنِ تلكَ المُثقلة بالقِرط هامِسةً:

- «هلّا أسرَرتُ لكِ بأمر؟».

فأومأَت فيونا، ورفَعَت إحدى يديها ثُمَّ وضعتها بحزمٍ على صدرِها وقالَت: «سِرُّك في بئر!».

أخبرتها مارغُت بِما قالته لها لاورا، إنَّ فيونا امرأةٌ في جسدِ رجُل.

- «تلك هي الحقيقة»، قالَت فيونا. «أنا كسمكةٍ لا تزالُ حيَّةً في بطنِ بلشون».

شُدِهَت مارغُت لسماع ذلك. وظلّت لأسابيع تُفكّر في السّمكة، إذ تُجاهدُ في جوفِ البَلَشون باحثةً عن ماءٍ مالح. كانت فيونا تجلسُ -صباحًا- في حديقتِها، فتأتيها مارغُت بكوبِ شاي، وتقولُ لها: «هلّا زيّنتِني؟»، فتستلُّ فيونا المِروَدَ من جيبِها وتنحني، وترسُمُ شارِبًا رفيعًا فوقَ شفةِ مارغُت.

كان روجر ولاورا غالبًا ما يرَون فيونا بصُحبة مارغُت، وأحيانًا لا: فيجدونها قد ذهبت إلى مطعمٍ صينيّ أو في نزهةٍ في أرجاء البلدة. ولكنّهم، في الغالب، كانوا جميعًا على وِفاق، رغم أنّ فيونا كانت في بعضِ عُطَل نهاية الأسبوع تظلُّ صامتةً جُلّ الوقت أو تُقابلهُم مُطرِقَةً أو لا تَحضُرُ أصلًا. كانت دائمًا ما تحمِل ورقَ التاروت في جعبتِها، وتعتمرُ قبّعةَ نمرٍ تُغطّي حتّى حاجِبَيها. وغالبًا ما كانت تُرسِلَ لهُم بطاقاتٍ بريديّة -مُوجَّهةً دائمًا إلى مارغُت- من أيِّ بلدٍ تزورُه. وتكتبُ عليها: *الطّقسُ هنا سيّئٌ اللّحظةَ، بيدَ أنّي موقنةٌ من أنّهُ سيتحسّن*.

كانَ جَليًّا كالشّمس في رابعة النّهار حُبُّ مارغُت لها، وقد كانَ حُبُّها مُتّقِدًا وراسِخًا. فكانت تتبعُها في أرجاء المنزل، وتجلسُ مُنصتةً بهدوءٍ إليها كُلَّما تكلَّمَت، وتضحكُ ملءَ شدقيها -بطريقةٍ خليعةٍ لم تكُن تصدُرُ منها قطّ- على نِكاتِها. ولمّا كانت فيونا تقومُ بحِيَلٍ بالورَق، أو تُخبِرُ مارغُت بأنها تعرفُ متى ستُمطرُ السماء أو متى سيفقسُ البيض، تُصدِّقُها مارغُت مباشرةً وتأبى الإنصاتَ إلى روجر إذ يُحاولُ أن يوضّح لها ألّا أحدَ قادرٌ على إماطة لِثام الغَيب حقًّا قبلَ أوانِه.

- «بل فيونا تقدِر»، كانت مارغُت تقول. «فيونا تعرِف».

كانت مؤمنةً بذلك، حسبَ اعتقادِ روجَر، بحماسةٍ وحزمٍ رهيبَين، بدَيا غَريبَين على طفلةٍ في مثلِ سِنِّها. وذاتَ مرّةٍ، جلَسَت بهدوءٍ قبالتَهُ إلى الطاولة، وتحدّثَت بتردّدٍ عن القَدَر. «أتعرفين معنى القَدَر يا مارغُت»، سألَها.

فأجابَتْهُ: «نعَم، أعرف. معناهُ ألّا خيارَ لنا، إنّنا مسيَّرون». كانَ ذلكَ يوغِرُ صدرَ روجَر على فيونا، رغمَ أنّها كانت، حينَ يُكلِّمُها في الأمر، تُدافع عن نفسِها قائلةً إنّها لا تغرسُ فيها هكذا أفكار، وإنَّ مارغُت هي من تبتدعها من تلقائِها. خالَ روجَر ابنتهُ فتاةً من عصرٍ آخر، أو من طائفةٍ دينيّة أو عائلةٍ ذات جذور دينيّة متطرّفة. كان يتنبهُ إلى فكِّها يتصلّب حينَ يُحاولُ مناقشتها بلُطف. كانت راسخةَ الاعتقاد. وتقول: «إنّي مؤمنةٌ بالقَدَر».

وذات أسبوعٍ، حينَ بلغَت مارغُت الثالثة عشرة، لم يرَوا فيونا مُطلقًا. ولمّا ذهبَ روجر إلى منزلها ألفاهُ خاليًا، وألفى بابهُ غيرَ مُقفَل، وقوابس الكهرباء ومحابس الماء مُقفلَة. وفي اليوم التالي وُضِعَت على واجهة منزلِها المكسوّة بالعُشب الذابل لافتة «للبيع». وبعد ذلكَ ببضعة أسابيع، اصطفَّت مركباتُ نقل أثاث عندَ بابه، تحملُ أثاث عائلةٍ جديدة. ما فعلَت مارغُت إلّا أن تسمَّرَت عند النافذة تُراقِب.

مرَّ عامٌ قبل أن تعودَ فيونا ثانيةً. كانت المنازلُ عند ضفّة النّهر قد فاضت بالماء، فحمل الناس أمتعتهُم وفرّوا صعودًا التلّة. غصَّ الشارع بظلالِ أناسٍ يحملون مقاعِدَ أو أسطوانات موسيقيّة على رؤوسِهِم. لم تقرع فيونا الجرس، بل أتت إلى مؤخّرة المنزل وراحت تسترق النّظر من النافذة. أصبحَت نحيلةً، وأصابَ مِعطفَها المَطَرِيَّ تمزُّقٌ واتّساخ. أصابَها مُصابٌ ما رغم أنّها لم تُفصح عنه. صعدَ روجر برفقة مارغُت إلى الطابق العلويّ ليُعدّا للزائرةِ سريرًا في الحُجرةِ الإضافيّة. أراد أن يقولَ لها شيئًا، توضيحًا أو مواساة، بيدَ أنّها بدَت –للغرابةِ– هادئةً بينما تُرتّبُ غطاءَ السّرير. لم تكُن تلك المرّة الأولى التي يتساءلُ فيها عن المكان الذي أتت منه، وعمّا جلبَت معها من هُناك.

في الليل، سمِعا فيونا تتجوّل في المنزل، وتتحدّث إلى نفسِها بهدوء. اعتراهُما قلقٌ عليها. لم يخطُر لهُما أن يطلبا منها أن ترحل، ولكنّهُما –لاحقًا– تمنّيا أنْ لَو فعلا. كانت مارغُت تحمِلُ كُلّ صباحٍ كوبَ شايٍ، وتصعدُ به إلى حُجرة فيونا، فتتركُهُ على الباب، ثُمَّ –عند الظّهيرة– تُرجعُه إلى المطبخ باردًا

وغيرَ مشروب. مرَّت ثلاثة أو أربعة أشهُر قبلَ أن تشربَ فيونا أوّلَ كوب شاي، وأكثر من ذلكَ قبلَ أن تُشاركهُم وجباتِهم. وشيئًا فشيئًا، صارت تكتسبُ وزنًا، وتنامُ الليل كلّه، وتتحدّث إليهِم مُجدّدًا لا إلى نفسِها.

بعدَ يَقظَتِها تلك، عادَت فيونا ومارغُت شَريكَتين ومُراوِغَتين ماهرتَين وخَليلَتَين مُقرَّبتين أكثرَ من ذي قبل. وعادت مارغُت تتقبَّلُ من فيونا حقائقَ لا تتقبّلُها من سواها. وعادَت تُصدّق فيونا إذ تُخبرها عن التيارات، والمياه الجوفيّة، وحركةِ الأرض. وعادَت تُنصِتُ إلى فيونا إذ تشرحُ لها كلماتٍ مثل: برّانيّ وأملاك منقولة. كما كانت لمّا يعتريها كابوسٌ، تهرعُ إلى حُجرة فيونا. وكان روجر غالبًا ما يجدُ كلتيهِما -قُبيل الفجر- تتهامسان تحت الألحفة. اعتراه شيءٌ من القلق حيال تلك المحادثات الصباحيّة المبكّرة، بخاصّةٍ حين تلتمع في ذهنِهِ صورةُ فتاتِهِ التي لم تتجاوز الثامنة من عُمرِها جالسةً إلى الطاولة تُحدّق إليه وتُحدّثه عن القَدَر، وعن حقيقةِ أنّنا مسيَّرون لا مُخيَّرون. بيدَ أنَّ فيونا بدَت كأنّها صارت أليَنَ نوعًا ما، وأهدأ، وأسكَن. فصارت تنام كثيرًا وتُجادِلُ قليلًا، وبدا جليًّا أنَّ مارغُت تُحِبُّها لا تزال.

لم يُخبرا فيونا عن أصلِ مارغُت، وكذلكَ لم يُخبرا مارغُت. كانا قد اتّفقا -ذات ليلةٍ خرجا ليتنزّها في ساعةٍ متأخرّةٍ منها- على أنَّ من شأنِ البَوحِ بذلكَ المكنونِ أن يجرحَ مارغُت جُرحًا لن يُطيقا احتمالَه. صحيحٌ أنّها أتت من مكانٍ آخر، من أبوَين آخرَين، ولكنّها باتت الآن تنتمي إليهِما.

النَّهر

إلى حضنِ الشَّجَر، أوَت الغِربانُ، ثُمَّ تفرّقَت كقِطَع أحجية. كانَ من الأسهَل على مارغُت –حينَ تسيرُ غيرَ راكِضة– أن تتصوّرَ لها حياةً هُناك، وجسَدًا جديدًا كامِلًا تنتقلُ إليه. تصوَّرَت نفسَها ابنَته، أو بالأحرى ابنةَ أختِه، إذ إنَّ زوجتَهُ كانَت مَيْتة، وأنَّها تنتظرُ ريثما تصيرُ بالِغةً كي ترحَل، ولكنّها حتّى بعدما ترحَل، ستظلُّ تزورُه وتُساعده. ستمُرُّ الأيّام كعادتِها: بطيئةً ويسيرة. وسيُعلِّمُها الطّبخ وإعدادَ الشِّراك واصطياد السّمَك بها. ولربَّما، ذات يومٍ، يُحرّكان القارب. ربّما سيُعلِّمُها قيادتَه، ولمّا يسأمانِ من السُّكنى في ظلّ المصنع والبلدة يرحلانِ بالقارب بعيدًا. متى يتخلّى المرءُ عن حياتِه المعهودة برُمّتِها؟ حينَ يجدُ حياةً أخرى يستبدلها بِها. كانَ يُناديها ‹يا بُنيّ› أو ‹يا ولد›، ففكَّرَت: ربّما. ولِمَ لا؟.

أخبرَها عن ابنته التي وُلِدَت على متن قاربِه ذاك. وكيفَ حملَها في ذراعيه وقرَّبَها من وجهه، وكيفَ أحسَّ بالبلل الذي غمرَها فبدَت كأنّما غُسِلَت في ماءٍ شاطئ. ابنة. ابنتُهُ الأولى. كما حَلُم تمامًا. وكيفَ بدأت تُوَلّي وجهها إليه، ذلكَ الوجه الجادّ العابِس. وكيفَ نما شعرُها بسُرعة، وصارَ في لونِ العُشب الجافّ، ثُمَّ استطالَت وثَقُلَت وزنًا. أخبرَها عن يديها المكوّرَتين، ورأسِها المُستدير كقُبّة. وكيفَ استيقظَ ذاتَ صباحٍ، فلَم يجِدها. لم يجِدهُما كِلتاهُما: البِنت وأمُّها. كانَ لَن يكون ثمَّت أثرٌ على وجودِهِما أصلًا، لولا أنّهُما تركَتا الجواربَ الصغيرة، وكومة الألحفة الصّغيرة التي كانت الطفلة تفترشُها في أحد الأدراج. وتركَتا أيضًا كُلّ الكلمات التي لم تتسنَّ للطفلة تعلُّمُها، وكُلّ الحِوارات التي لم يتسنَّ لهُ الخوضُ فيها معَ طفلتِه.

مكثَت مارغُت بدلَ اليومين، ثلاثة. التهما فيها الفطائرَ والبيض فطورًا، وأعَدَّا الشَّرَك الذي ما انفكَّ الرّجُل يُخبرها بأنَّه مُعَدٌّ لاصطيادِ مخلوق أكبر. كانت تجلسُ محتارةً أمام الكُتُب التي أعطاها إيّاها، أو تُراقبهُ إذ يصطاد السّمك. خيَّمَت عليهِما سكينةٌ رائقة.

كانت في الليالي نسماتٌ مُختلفة: حبائكُ لِما قد يحدُث، للمُمكِنِ الرَّهيب. كانت مارغُت لا تزالُ قلِقَةً من النّوم في القارب، ولذلكَ نصَبَت خيمةً لها في الدّرب المُحاذي للنّهر، وفي الصّباح تُنزِلُها وتُخلي الدّرب. كانت الحجارة الناتئة في الدّرب توجِعُ ظهرَها. ظلّت تستيقظُ قبلَ بزوغ الفجر لثلاث ليالٍ متتالية. يُوقِظُها، إلى جانبِ الوجع، صوتُ خنفرةٍ وراءَ الخيمة، وحركةٍ في الطّريقِ أو الضفّة. ولأنّها كانت مستلقيةً، ساكنةً، لم تُدرك أنّها عُضّت بقوّةٍ في وجنتَيها إلّا لحظةَ عادَ الهدوء وكانَ الفاعِلُ، أيًّا كان، قد فَرّ.

– «سمِعتُ صوته أنا أيضًا»، قال لها حينَ أخبرتهُ بتَرَدُّدٍ عن الأصوات. «خِلتهُ غُرَيرًا أو ثعلبًا بادئ الأمر. فإنّهُما حيوانانِ مُتقمّمان. ولكنّي لا أدري. ربّما أكون مخطئًا. يُقال إنَّ ثمّتَ مخلوقًا يسكُن النّهر»، وأخرجَ الشَّرَكَ من جيبِه ورفَعَه. «أخالُ أنَّ له يدَي إنسانٍ وفَمَ سمكة».

أدركَت أنَّ ذلكَ المخلوق هوَ لصُّ القناة لا محالة. ذلكَ المخلوق الذي يعيشُ في النّهر ويسير على اليابسة. لا بُدَّ أنّه تبِعَها إلى مُستلقاها. أغمَضَت عينيها، فأبصَرَت في قلبِ العتَمة مخلوقًا مكسوًّا بالحراشِف يتحرّكُ في ظُلمةِ قاعِ القنوات. لم تكُن لديهِ يدا إنسان، ولكنّهُ إن وقفَ فسيكونُ في طولِ إنسان، كما كانَ متوفّرًا على عقلٍ ألمعيّ يسرِقُ بِهِ ما يشاء. ومن وراءِ جَفنَيها، أبصَرَت مارغُت أنَّ لِلصِّ القناةَ وجهَ فيونا.

أيقظَتها الأصوات مُجدّدًا في الليلة الرابعة. فاعتدلَت جالسة. ألفَت ماءً قد تسلّلَ إلى داخِلِ الخيمة، وبعضَهُ مُلتمِعًا على جُدرانِها ما بلّلَ يدَيها حينَ استنَدَت إليها. وخارجَ الخيمة ألفَت المشهدَ قد انزاحَ شيئًا ما. سحَبَت اللّحافَ سادّةً بِهِ أذُنَيها كي تصمّهُما عن سماعِ كُلّ صوت. لم ترغب في أن

تسمع شيئًا، أو تعرف شيئًا. تحرّكَت الخيمةُ قليلًا، واهتزّت. (ذلكَ فِعلُ الرّيح. ربّما). إلّا أنَّ زمجرةً صدَرَت، وصخبَ حركةٍ على سطحِ القارب. مدّت يدَها صوبَ أيِّ شيءٍ تجدُه -حقيبة أوتاد إضافيّة للخيمة- ثُمَّ أنزلَت سحّاب الخيمة وخرجَت منها زاحفةً على رُكبَتَيها في الوحل. سمِعَت مُواءً. بثّت فيها فِكرةُ وجودِ تشارلي وحدَهُ في القارب -أعمى- جسارةً لم تعهَدها من قبل. اعتلَت ظهرَ القارب الخشبيّ، وأشرَعَت البابَ المزدوَجَ بقوّة، وهبطَت الدّرجاتِ الثلاث، مُرتميةً في القاع، فوقَعَت من يدِها حقيبة الأوتاد وتناثرَت على الأرضيّة. صدَرَ صوتُ صُراخٍ، وكَسْر. تسلّلَ شيءٌ من نورِ مصابيح الشارع، ولكنّه لم يَكُ كافيًا لرؤيةِ أيِّ شيءٍ بوضوح. فما تسنّت لها رؤيةُ سِوى ومضاتِ تحرُّكات. وأحسَّت بفمِها يتمدّد، وأدركَت أنّها -هي الأخرى- تصرُخ. كانَ موجودًا هُناك. لِصّ القناة. اندفعَ صوبَها شخصٌ، لَحيمٌ، أقحَمَ أصابعهُ في شعرِها مُحكمًا عليهِ قبضتَه.

- «اخرُج من هُنا يا لعين»، صاحَ، وأزاحَها جانبًا، فسقَطَت أرضًا بقوّة. ألقَى النور المتسلّل من النافذة خيوطًا على وجهٍ فأبانَهُ، وأبانَ يدينِ طويلَتَين -كأسلاكِ أبراجِ الكهرباء- مرفوعَتين، وفمًا متعطّشًا وعَينَين مُطفأتَين خائِفَتَين. رفَعَت مارغُت يديها، وتدَحرَجَت مُحاولةً التشبّثَ بساقَيه اللّتين راحَتا تمشيانِ قُدُمًا بخطواتٍ مدوّية. نظَرَت أمامهُ إلى العَتَمة علّها ترى من هُناك، مَن صاحبُ الصّوت. فلَم ترَ شيئًا. لم يكُن ثَمَّ لِصُّ القناة.

- «اخرُج»، ظلَّ تشارلي يصيح. «ابتعِد». وظلَّ يرتطُم بالجُدران، هامًّا -كُلّما دَنَت منه- أن يضربَها.

- «نحنُ على ما يُرام»، قالَت له، فتَبِعَ صوتَها مُنهالًا عليها ضربًا بيديه، وراكضًا في أثرِها مادًّا ذراعَيه مُطوّقًا عُنُقَها بيديهِ يُريد خَنقَها. فتحَت فمَها تُريدُ أن تُخبرَه بأنّها ليست الوحشَ الذي يظُنّ، ليست لِصَّ القناة. فتحت فمَها لتُخبره بأنّها ليست قادرةً على التنفّس، بيدَ أنَّ أنفاسَها القليلةَ لم تُسعِفها لقولِ أيّ شيء. مدَّت يديها إلى أسفل، باحثةً عن أيّ أداةٍ تُساعِدُها، فلم تجِد شيئًا. بدأ نظرُها ينطفئ، كأنّما يُغشّيهِ تُراب. لمَسَت أصابِعُها شيئًا، فقبَضَت عليهِ بيدِها، ورفَعتهُ بلا وعيٍ وضربَت بِهِ الجِهةَ التي خالَت تشارلي واقفًا فيها بكُلِّ ما تبقّى لديها من قوّة.

أمكَنَها سماعُ وجيفِ قلبِها. وأحسَّت بأنفاسِها حَرَّى وموجِعةً في فمِها وصدرِها. كما أحسَّت بحرارةٍ في يديها، وبرطوبة. كانت مُستلقيةً، ساكِنة. وكانَ الهُدوءُ مُخيِّمًا. تسلّلَت إلى أنفِها رائحة البطاطا والبصل الذي طبخَهُ تشارلي في وقتٍ سابق. وأنارَ لها الضّوء المتسلّل من النافذة أجزاءَ من القارب. ماذا حدَث؟ كانت نائمةً، فأيقظَتها أصوات. أمّا ما حدثَ بعد ذلك فبدا في عقلِها فراغًا، فأرعَبَها. أحسَّت بثقلٍ جاثمٍ على ساقَيها. أمسكَت بمقبَضِ خزانةٍ ورفَعَت نفسَها جالسةً. ولمّا أراحَت يدَها على الأرضيّة ألفَتها حادّةً، حديديّة. وألفَت حقيبة الأوتاد مفتوحة. وضعَت يدَها المفتوحةَ على فمِها فأحسَّت بها دافئةً ومالحة. كانَ الثّقل على ساقَيها هوَ تشارلي. استلَّت ساقَيها من تحتِهِ وضمَّتهُما. كانت عيناهُ مَفتوحَتينِ كعادتِهِما، كصورَتين عتيقَتينِ بيضاوَين. أحسَّت بالذُّعر يعلو في صدرِها كموجٍ مُزبِدٍ، لا يُحتمَل. تحسّسَت بيدَيها وجههُ ومِعصَمَيه العارِيَين. كانَ جسدهُ قد أضحى بارِدًا. ضغطَت بقَبضَتَيها على صدرِه النّحيل، فلم يستجِب. أحسَّت بيدَيها أنهما ثقيلتان بالنّسبةِ لجسدِها. ألصقَت فمها بفمِه مُحاوِلةً ضخَّ الهواء في مجراهُ كما كانت قد شاهدَت في التلفاز. فانبجسَ الدّم من أنفِه، ما جعلها تظنُّه لا يزال في قيدِ الحياة. وضعَت قبضَتَيها على صدرِه ثانيةً، وراحت تضغطُ وتضغط. لم تفهم. سمِعَت صوت السيارات إذ تمُرُّ في الدّروب القريبة، وصوتَ جرسِ المصنع، وأصواتَ أهلِ القوارب الأخرى. حاولَت تفادي النّظر إلى وجهه، ولكنّها لمَحَته: لونَ بشرتِه الذي استحالَ أرجوانيًّا، وجَورَبه في إحدى قدَمَيه قد انزلقَ إلى ما دونَ كاحِلِه.

أخيرًا، أنهضَت نفسَها، وأسدلَت الستائر، وأغلقَت الباب، وفتَّشَت في خزائن المطبخِ ثُمَّ التهمَت عُلبة فول وجدَتها. أخذَت لحافًا من حُجرة النوم، وغطَّت بِهِ الجثّة. أخطأت إذ ظنَّت أنَّ تغطية الجُثّة تسهِّلُ تقبُّلَ مُصابِ المَوت. إنّما تُسَهِّلُ فقط تَخيُّلَ أنَّ المَيْتَ في قيدِ الحياة لا يزال.

لا بُدَّ من أنّها نامَت بعضَ الوقت، لأنّها ألفَت العَتَمَة قد اشتدَّت من غيرِ أن تنتبِه إلى مجيئَها. تهادى القاربُ قليلًا إلى الضفّة، كأنَّ قاربًا آخرَ قد مرَّ حذاءَه. كانَ تشارلي تحتَ اللّحاف. أدركَت لحظتئذٍ بوضوحٍ للمرّةِ الأولى،

أنّهُ مَيْت. ولمّا وقَفَت رأت طرَفَ وتدِ الخيمة المُلقى على الأرضيّة بِجانِبِه، فعادَت لها بعضُ ذِكرى ما حدَث: أنَّ يدَها امتدّت صَوبَ الوتَد، فأحسَّت بملمس المعدَن، ورفَعتهُ ثُمَّ انهالت بِهِ على رأسِ تشارلي. وضَعَت يديها –بذهولٍ– على طَرَفَي وجهها. وثانيةً، مرَّ الوقتُ من غيرِ أن تنتبِه. ولمّا نظَرَت، ألفَت الهدوء قد عمَّ الأرجاء في الخارج، حتّى لكأنَّ القاربَ طفا مُبتعدًا مُتحرّرًا من حدودِ المدينة بأسرِها. نهَضَت، وفتحت الأبواب، وخرجَت مُغلقتَها وراءَها بإحكام. اشتَمَّت رائحةَ دواليب ساخِنة، ورأت المصابيح على بُعدِ شارِعَين قد أوشكَت على الانطفاء، والدَّربَ والنّهرَ قد ابتُلِعا في جوفِ الظلام. وقفَت تنتظرُ قدومَ أحد، ولكنَّ صوتًا لم يصدُر، ولا حرَكَة.

إنَّ غريزة البقاءِ حَقّ. ستتذكَّرُ ذلكَ لاحقًا وتعجَبُ لنفسها. قصَدَت الدّرب، وانحَنَت مُتحسّسَةً أثرَ حِجارة، فحمَلَت بعضَها وخبَّأتها في ثنايا بُلوزَتها. ولمّا عادَت إلى القارب خَطَت بأناةٍ حولَ الجثّة –حريصةً على ألّا تَمَسَّها– داسّةً الحجارةَ في جيوبِ رداءِ النّوم الأصفر الذي كان يرتديه. ألفَتهُ أثقلَ ممّا يبدو، فتمَنَّت أنّها دسّت الحجارةَ في جيوبِه لاحقًا. كان الوقت متأخّرًا. رفَعتهُ –مُضناةً– واضعةً يديها تحتَ إبطيه، منتبهةً إلى كوكَبَي عينيهِ الأبيَضَين، وشامّةً رائحةَ شعرهِ المُلامِس لوجهها. صعَدَت به الدّرجة الأولى، ثُمَّ ترنَّحَت. أحسَّت بجِلدِه في يديها طريًّا. ركَلَت البابَ فانفتَح، وأخرَجَت الجُثّة جَرًّا إلى السّطح، ووقفَت لتلتقطَ أنفاسَها في البَرد. رفَعَتهُ قليلًا، ووضعتهُ على حافّةِ القارب. تريَّثَت لحظةً، ثُمَّ أفلَتته، فهَوى.

(3)

الطّقسُ هنا سيّئ

الكوخ

تُخبرينني بأنّكِ تكادين تُجَنّين من فرط الملل، وأنْ ليسَ من حقّي أن أحبِسَكِ هكذا، وأنّكِ بحاجةٍ ماسّةٍ للخروجِ من البيت.

أضعُ الإبريق على النار وأُشيرُ صوبَ الباب: «أنتِ لستِ حبيسة. فلتخرُجي إن شِئتِ».

– «ليس هذا ما أعنيه. بل أعني إنّني أريدُ أن نخرُجَ كِلتَينا، الأمّ وابنتها في نزهة قصيرة».

لا أدري أتمزَحينَ أم لا. ولكنّكِ تهبّين واقفةً، فأنتبهُ إلى أنّكِ حزمتِ حقيبة يدٍ قديمة كُنتُ قد ابتعتُها منذ أعوامٍ ولم أستعمِلها. وترتدينَ تنّورة ضيّقةً، حتى لتَبدو غير قادرة على احتواء وَرِكَيكِ ومؤخّرتكِ. كُنتُ لم أذهب إلى عملي منذ شهرٍ تقريبًا، منذ اليوم الذي سبقَ زيارتي المشرحة للتّعرف على جثّتكِ، وما تلا ذلكَ من بحثي عنكِ. وقد حانَ وقت رجوعي. ‹اصطحِبي أمّك المخبولة معكِ إلى العمل› قُلت لنفسي.

– «حسنٌ»، أقولُ لكِ. فتنفرجُ أساريرُكِ.

– «إلى أين سنذهب؟» تسألينني مرّةً، وثانيةً بعدما ركِبنا الحافلة. تجلسين في المقعد جوارَ النافذة، وتشيرين إلى المارّة والسيارات المُصطفّة. بدا أنّ الخروج من البيت أثّرَ فيكِ سلبًا، فصارت جُمَلُكِ ملأى بالأخطاء والعثَرات التي رُحتُ أصحّحُها لكِ بهدوء. أصبحتُ فمَكِ. استمرّت الرّحلة في الحافلةِ ساعةً تقريبًا. سلَختِها تُحدّثينني تارةً، وتقبضين على يدي تارةً، وتُخرِسينني قائلةً ‹هُششش› تارةً! ثمّت ابتداعٌ في طريقة كلامِكِ، مُحاولةٌ دؤوبةٌ لإخفاءِ أو تزويقِ العثَرات. جلبتِ معكِ

أحدَ الدفاتر التي كُنا قد ابتعناها، ودسَستِه في حقيبتِكِ، فرُحتُ أشاهدكِ إذ تهمّين -بين الفينة والأخرى- برسم إحدى الكلمات التي تُقلِقُكِ. تأبين أن أساعدَكِ، وتمتعضينَ حين أهمُّ بمَلء فراغٍ أو توضيحِ كلمة. «اصمُتي» تقولين. «اخرَسي!». نحنُ لسنا صديقَتين، بل أنتِ أمّي. ولا يحقُّ لي أن أشفِقَ عليكِ.

نترجّلُ من الحافلة ونسيرُ صوبَ المكتَب. هذه أيّامُ عُطلة الصّيف، والشّوارع مكتظّة بالبَشَر. تبتعدين عنّي صوبَ متاجر الجُبن أو الكُتُب. تُشيرينَ إلى كُلِّ مارٍّ وتهمسينَ ساخِرَةً مِنه. «انظري إلى قبّعته. ما أعجبَها من قبّعة! أتِلكَ تنّورة أم نِطاق؟» غدَونا، لوهلةٍ، متآمِرَتينِ على مَن حولَنا مثلما كُنّا أيّامَ النّهر. يُشبِهُ تركيزُكِ شُعاع منارَة، يترُكُني دائمًا ذاهلَةً وعاجزةً عن التعبير. أفكّرُ في انطباعِ من قد يمرّونَ بِنا عنّا، كما مرَّ بِنا ماركُس قديمًا. كُنّا، آنذاك، ملوكَ ذلكَ المكان، نفعل ما نشاء. كُنتِ إلهةً صغيرةً، وقورة. لا عجبَ أنّنا فعلنا ما فعلنا. ولا عجبَ أنّنا أبصَرنا بوناك في قلبِ الليل.

أفكّرُ في الأيام التي افترَش فيها ماركُس ظهرَ قارِبنا، مُلتحفًا بأغطيةٍ كثيرة، شديدَ القُربِ حتّى كُنت أحسُّ بحرارة أنفاسِهِ على وجهي وبعَينيهِ تتحرّكانِ تحتَ سِتارة جَفنَيه. كُنتِ تنامينَ كمَيْتةٍ، أمّا هوَ فكانت تعتريهِ كوابيسُ فتدفعُهُ ليتقلّبَ على الفراش ويرتطمَ بالجُدران ويُكلِّمَ نفسهُ بكلامٍ غامضٍ حتّى لأعتَدِلُ جالسةً وأنصِتُ إلى ما كانَ يقول. مكثَ هكذا لليالٍ طويلة -حسبما أظنّ- فصارَ استيقاظهُ معنا جُزءًا من نظامنا اليوميّ: إذ تقِفينَ أنتِ كُلّ صباحٍ على درجاتِ القاربِ -خارِجَه- برفقةِ سيجارةٍ وفنجان قهوة (فطور العواهِر، كما كُنتِ تُسمّينه). وإذ يُولَدُ هوَ كُلّ صباحٍ من رحم كابوسٍ ما، مثلما يولَدُ الرّبان من رحم العاصفة. «بمَ حلُمتَ؟» كنتُ أسألُه، بيدَ أنّهُ لم يكُن يذكُر شيئًا. كُنتِ تُطفئينَ سيجارتَكِ، وتمُدّينَ ذراعَيكِ البيضاوَينِ فوقَ رأسِكِ، فأنتبهُ إلى عينيهِ قد انصرَفتا إليكِ.

يبدو المبنى مَهيبًا من الخارج، بحَجَرِهِ الأبيض، وبوّابته العالية، ونوافذه العريضة. أتوقّفُ عند الرّصيف وأُشيرُ إليهِ قائلةً:

- «تعملين هُنا؟».

- «نعم»، أجيبُكِ فَخورةً للحظة، حتّى ألمحَ طرفَ ابتسامتِكِ الهازئة فأُدرِكُ أنّكِ إنّما تسخرين منّي.

نصعدُ إلى طابقِ مكتبي، فأخشى أن تصرُخي، أو تُحدِثي جَلَبة، أو تَفِرّي.

- «عليكِ أن تظلّي هادئة»، أقول لكِ.

تنظرينَ إليَّ، وترسُمينَ بأصابعكِ على فمِكِ خطًّا. ندخُل المكتبَ مُتّجِهَتين صوبَ مقصورَتي. أُلفيهِ كما تركتُه، ما زالت الاقتباساتُ الصّفراء مبسوطةً، والأقلام في حافظتِها، وحاملة الورق فائضة به. ليست ثمّت صورٌ أو بطاقات بريديّة. تفتحينَ الأدراجَ وتختلسينَ النّظرَ فيها. أرى شفتيكِ تتحرّكان، ولكن لا أسمعُ كلامًا يخرجُ منهُما. مِن فوقِ المقصورات أرى جِنِفَر، رئيستي، تلوّح لي. وحينَ وصلنا إليها فتحت ذراعَيها كأنّنا ستعانَق، ولكنّ ذلكَ لم يكُن. إذ إنَّ المُعجَمِيِّينَ قلّما يتعانقون.

- «من هذه؟»، تسألُ، مادّةً يدَها صوبَكِ. تعتريني لحظةُ بؤسٍ أتساءلُ فيها عمّا إذا كان يجدرُ بي أن أكذبَ أم لا. أن أقول: ‹هذه صديقتي›، ‹هذه عمّتي المعتوهة›، ‹هذه امرأةٌ كنت أبحث عنها›. أيَّ شيءٍ سِوى تلكَ الكلمة -الحقيقيّة- الدّافئة. غيرَ أنّكِ التصقتِ بي، وطوّقتِ ذراعي بذراعِكِ مُقرِّبَتَني منكِ حتّى قرعَ نعلُكِ نعلي، ومدّدت يدكِ الأخرى صوبَ يدِ جِنِفَر مُجيبةً:

- «أنا أمُّها. أنا سارة».

أعتذرُ لِجِنِفَر عن غَيبتي الطويلة.

- «خُذي ما تحتاجينَ من الوقت».

إنَّ شَفَقَةَ الآخرين ثُقبٌ أسوَد. أشكرُها، وأسألُها كيفَ سارَ العملُ خلال الفترة الماضية. ولمّا نظرتُ حولي، لم أجِدكِ. طفقتُ أبحثُ عنكِ في أرجاء المكتَب. سجّادتهُ مُهترئةٌ من دَوسِ الأقدام الدّؤوب. وبعضُ ألواحِ سقفِهِ مُنزاحةٌ عن أماكِنِها -تمامًا كما رأيتُها في حُلُمي. لا أصرُخ مُناديةً عليكِ. أبحثُ في الزوايا وتحت الطاولات وفي الحمّام. فلا أجِدُكِ. أصعدُ وأهبِط. أضعتُكِ ثانيةً. ألهذا ألححتِ عليَّ تُريدينَ الخروجَ من البيت؟ تذوبينَ بسهولةٍ مُفرِطة. أحسُّ بأسى ثقيلٍ يملأ معدتي. فإنّكَ لم تبوحي بسوى القليل، ولم تُفسّري سِوى القليل. لن أفهم ما وقعَ أبدًا. وأُدرِكُ- وهذا الإدراكُ سكّينٌ

حادّة – أنّي سأفتقدُكِ إن كُنتِ قد رحلتِ، وأنَّ رحيلكِ هذه المرّة سيكونُ موجِعًا أكثر، وأشدَّ قسوة.

أسمعُكِ قبلَ أن أراكِ. أسمعُكِ تنتحبين، تعِبةً، مُنحنيةً إلى طاولة مقصورَتي. يحومُ حولَكِ متدرّبٌ متوتِّرٌ، يقبضُ يديه ويبسطهما في الفراغ. أُبعِدُه.

– «ما الخطب؟»، أسألُكِ حانقةً. أُمسككِ من كتِفِكِ بقوّةٍ وأحاوِلُ رفعَكِ، ولكنّكِ تتشبّثينَ آبية، تركلينَ الطاولة. تنقضّينَ على الاقتباسات فتمزّقينَها. بدأت الرّؤوس تُطلّ من فوقِ مقصوراتِها، والكراسي تُدفَع إلى الوراء. أرى بينَ أصابعكِ جُمَلًا للكلمةِ التي كُنتُ أعملُ عليها قبل غيابي: *انجَرَح / تعطَّلَ / سَلَوِيّ*. تُمزّقينَها، ولمّا اقتربتُ منكِ حَشَرتِها كلّها في فمِكِ، مُحاولةً ابتلاعَها، ساعِلةً مِزَقًا من الورقِ الأصفَر. فغرَ المتدرّبُ فاهُ كسمكة. ورأيتُ جِنِفَر تدنو ببطءٍ منّا، هامَّةً بالعَدْو. تحشُرينَ آخِرَ مِزقةٍ في فمِكِ، فتَبدين قد هدَأتِ بغتة. أرى دَربَينِ قد شقَّهُما الدّمعُ في وجنتيكِ المُغبَرَّتين. وأراكِ إذ تدسّين المِثقَب في جيبِكِ، ثم تلتفتين إليّ مادَّةً يدَكِ، فأُمسِكُها إذ لم أدرِ ما أفعل سوى ذلك.

– «لا بأس الآن»، أقولُ للمتدرّب وجِنِفَر وسائر الحاضرين. «كُلُّ شيءٍ بخير الآن».

نعودُ صوبَ السلالم، فنهبِطُها. أجِدُني أرتجِفُ، بينما أنتِ ساكِنة، ومُشِعَّةٌ نوعًا ما، تمسحين البُصاقَ عن طرفِ فمِكِ، وتُربّتين على كتِفي.

– «ماذا فعلتِ؟»، أسألُكِ. «ماذا فعلتِ بحقّ الله؟».

لم أتذكَّر تلك الكلمة، بيد أنّي أتذكَّرُها الآن.

أتوقّفُ، فتسبقينني عامِدةً، مؤرجحةً ذراعَيكِ. ثمّت طفوليّةٌ في منطقِكِ، ويداكِ تحشُرانِ الكلماتِ المكتوبةِ بين أسنانِكِ، ولسانُكِ يُطالِبُ بحقّهِ فيها. كذلكَ كانت حالُنا على النّهر: إذ نقتاتُ على قلبِ حيوانٍ كي نسرقَ قوّتَه.

أذكُرُ –بغتةً– رجُلًا بادرَني بالكلام عند محطّة قطار، وكان يرتدي قميصًا أرجوانيًّا، إذ يحملُ في يدِهِ مِزقةَ ورقٍ أرادني أن أكتُبَ عليها معلوماتي. وضعَ

برتقالةً كبيرةً في يدي المفتوحة، وقال إنَّ المصابَ بالزهايمر يفقِدُ جُزءًا من دماغهِ في مثل حجم تلك البرتقالة. أفكِّرُ في ذلك. كان ثمَّتَ جزءٌ في حجم برتقالةٍ مفقودًا من دماغِكِ.

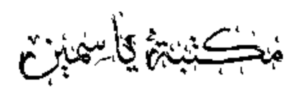
أنشبَ الجوعُ، بغتةً، أظفارهُ فينا. فجُبنا أرجاءَ المتجر، نملأ عرَبةً عن آخرِها. أراقبُكِ إذ تضعينَ دجاجةً بأكملِها دون أن أنبسَ بكلمة. تذوي لُغتُكِ من غيرِ أن أحاوِلَ سقايتَها. تخلطينَ الجُمَلَ ببعضِها. تُشيرينَ إلى الخُبز وتُسمّينهُ بيضًا. تبدينَ مخمورةً، تندُّ عنكِ نبضات صوتٍ كهربائيّة. تتحدّثينَ عن نفسِكِ بلسان الغائب، وتَبدين قد نسيتِ حرف الميم تمامًا.

«لقد أفزَعتِني»، أقولُ لكِ في ممرّ المثلّجات. «لقد أخزَيتِني هُناك!».

تنظرينَ إليَّ بثبات، بينما تحملينَ كيسَ النقانق المُجَمَّدة وعُلَبَ البوظة، بعَينَيكِ اللّتينِ يُشبه لونُهُما لونَ عينيّ: ذلكَ اللّونُ الرماديُّ، السَّفاحُ عديم الرّحمة.

– «ولكنّي أحبُّكِ»، تقولين.

لم أدرِ بِمَ أجيبُكِ بعد الذي قُلتِ!



المطاردة

أيلول. ذكرى ميلاد روجَر. كان العام 1997. وكانت مارغُت في السادسة عشرة، وقد شاهَدَت مَطلعَ العام الشَّمسَ تتحرّكُ بجُملتِها حاجبةً القمَر.

كانت فيونا مُرتديةً مئزرًا، ومُنشغلةً في طَهوِ لحمٍ مع الموزِ والشيكولاته، تسبُّ وتتحرَّكُ في المطبخِ قارعةً بعضَ المقالي ببعضِها، يسُحُّ من إبِطَيها العرق، ثُمَّ يئسَت، وطلبَت طعامًا جاهزًا.

وكانت مارغُت مُنشغلةً بالتّزيين، متحرّكةً بأناةٍ، مُزيِّنةً قُضبان الستائر بلؤلؤِ فيونا، ومُضيئةً الشموع على رفّ المَوقِد. شَرِبَت، يومئذٍ، نصفَ قَدح نبيذ. وقد استذكَرَ روجَر اللون الذي كسا وجهها، وحبّات الجَوز التي جمَعَتها وطَلَتها بالألوانِ احتفالًا به، ثُمّ حزَمَتها ووضعَتها حيثُ سيجِدُها لا محالة. كما استذكَرَ هيئتَها تلك التي لم تتغيَّر في مخيّلتِهِ قطّ، كأنّها فقدت القُدرة على التقدُّم في السنّ وظلَّت في تلكَ الهيئة التي كانت عليها ليلتئذ: بشعرِها القصيرِ -الذي يُشبه القبّعة- مُنسدلًا على وجهها، وأنفِها المستقيم، وحاجِبَيها السّميكَين قد غضَّنَهُما فرطُ التّركيز.

أمّا لاورا، فكانت جُلُّ ذكرياتِها عن تلكَ الليلة لِفيونا: إذ كانت هادئةً أكثرَ من المُعتاد، تذهبُ إلى الحمّامِ وتجيء منه مرارًا، تُبدِّلُ ثوبَها أكثرَ من مرّة، وتقفُ إلى النافذة وتنظُر متأمِّلةً مؤخّرةَ الحديقة. حتّى أنّها خرجَت، لمرّةٍ واحدةٍ، من الباب الخلفيّ إلى مؤخّرةِ الحديقة ووقفَت قبالةَ السّقيفة الصّغيرة الخضراء. استذكَرَتها لاورا وقد أدرَكَت -بعد فوات الأوان- ما كانت فيونا تُخطِّطُ لِفعلِه، واستذكَرَتها إذ تُفرِغُ آخِرَ النّبيذِ في جوفِها من غيرِ أن تعرِضَهُ على الآخرين أوّلًا، وإذ تتعثَّر قليلًا وهيَ تجمعُ الأطباقَ وتحملُها إلى

المَغسَل. كانت قد طلبَت طعامًا صينيًّا للجميع، وخابَ أملُها بمذاق السپرِنغ رُلز. (ليست مُقرمِشة)، قالَت. ثُمَّ أكّدَت على ما قالَت ثانيةً. (ليست لذيذة).

(لا عليكِ)، قالَ روجَر ضاحِكًا، ثمِلًا. (لا تهتمّي بالسپرِنغ رُلز).

وللحظةٍ حدَجَتهُ بنظرةٍ مُخيفة، مُبرِزَةً فكَّها، فتراجَعَ روجَر مأخوذًا، ولاذَ البقيّة بالصّمت. (صحيح)، قالَت هازَّةً بذراعَيها ومُشرِعةً بابَ فمِها في ابتسامةٍ عريضة أبانَت أسنانَها: (لا تهتمّوا بِالسپرِنغ رُلز! أنت مُحِقّ أيّها المُسِنّ. أنت مُحقّ!).

أبقاهُم أثرُ السُّكر، صباحَ يومِ الأحد، في أسِرّتهِم. ثُمَّ استيقظَت لاورا متأخّرة وأعَدَّت الشاي في المطبخ. حملَت أربعة أكواب على صينيّة، وتركَت كوبًا لِفيونا في الرّدهة خارجَ حُجرتِها، ودخلَت لترى مارغُت. ألفَت سريرَها مُرتّبًا، ولمّا راحت تبحثُ عنها ألفَت عدّة أشياء مفقودة: بُلوزةَ مارغُت ونعلَيها. لم يعترِها الفزَعُ لحظتئذٍ رغمَ دُنُوِّه. رحَلَت مارغُت. لم تُختَطَف بالطريقةِ التي رأتها لاورا عدّةَ مرّاتٍ في كوابيسِها الطويلة المُلتوية، بل رحَلَت فحسب، بمَلئِها.

حينَ يستذكرانِ تلكَ الليلة لا يملكانِ إلّا أن يتساءلا عمّا كانَ سيحدُث لو أنّهُما بدّلا في وقائعها قليلًا. لو أنّهُما لم يُفرِطا في الشُّرب، ولو أنَّ اليوم التالي كانَ يومَ عمَلٍ لِلاورا فاستيقظت فيهِ باكرًا ووضعَت الإبريق على النار في المطبخ البارِد، ولو أنَّ روجَر ذهبَ ليتفقّد الأبواب كعادتهِ كُلّ ليلة.

***

إنَّ الصَّفح، كما قالَت لاورا، ليسَ أمرًا في ميسورِها أن تمنحَه. فإنّهُ لا يتحقّقُ إلّا حينَ يُنهِكُ المرءَ التّعب فلا يعودُ قادرًا على حَمل الضّغينة.

ذرَعَ روجر البلدةَ على قدميه، بَحثًا، ثُمَّ عادَ وأصابعهُ زرقاء من فرطِ البرد، وفمُهُ أرجوانيّ. أمّا لاورا ففتّشَت حُجرة مارغُت بحثًا عن علامة، أو رسالة أو ترميز سرّي معناهُ أنّها أُرغِمَت على الرّحيل وستعودُ عمّا قريب. أمّا فيونا، فجلسَت إلى الطاولة تشربُ القهوة بالحليب، مُنتعلةً نعليها ومُرتديةً مِعطفَها، بيد أنّها لم تهُبَّ لتقديم يدِ العون أو التحدّث إلى الشّرطة عبرَ الهاتف. كما كانت تضعُ أحمَر الشفاه منذ الليلة البارحة.

- «هل رأيتِها؟»، سألَها روجِر. «هل سمِعتِها وهيَ تهمّ بالرّحيل؟».

- «أبصرتُ أمرًا»، قالَت فيونا بعد لحظة. «أبصرتُ أمرًا. وكانَت معرفَتي بهِ أشبه بالدّوخة بعدَ النّهوض الفُجائيّ».

كانت فيونا قد أبصَرَت شيئًا، وأخبرت مارغُت به.

- «وما هوَ؟»، قالَت لاورا. «بِمَ أخبرتِها؟».

أغمَضَت فيونا عينيها. فانتبهَ روجَر إلى أنّها تبكي، فأخرَسَهُ الذُّعر.

- «أخبرتُها بأنَّ عليها الرّحيل»، قالت فيونا. «أمرتُها بأن ترحَل».

ألصقا صورَها على أعمدة الإنارة ونوافذ المتاجر وزجاج السيارات. وخرجا إلى العلن في محطّات الأخبار المحليّة. وظلّ روجَر يذرعُ الشوارع جيئةً وذهابًا علّهُ يرى علامة وَحدَهُ يقدِرُ على تمييزِها. أمّا لاورا فجابَت الطُّرقات بسيارتِها، متوقّفةً عند محطات الوقود، عارضةً صورَة مارغُت لكُلّ أحد، منتظرةً رؤيةَ هيئتِها قد أطلّت من بينِ السيارات المُسرعة رافعةً إبهامَها تُريدُ توصيلة. ولمّا عادَت لاورا إلى المنزل، قصَدَت حُجرة فيونا وفتّشَتها. كانت فيونا منظَّمَة: سريرُها مُرَتّب، وعلى أحدِ الجُدران رفُّ كُتب أنيق، وأغراضُ حمّامِها مرتّبة. دسّت لاورا يدَها أسفلَ الفَرشِ، رافعةً إيّاهُ، وأوقعَت الكُتُب أرضًا وراحت تهُزُّها كي تُفرغها ممّا قد يكونُ فيها، وفتّشَت الملابس في الخزانة. كانت هيَ وروجَر قد سلخا النهارَ كُلّه مُحاوِلَين إرغام فيونا على البَوح بِما قالَتهُ لِمارغُت، بيد أنّها امتنعت، والآن لم تعثُر لاورا على أثرٍ أو علامةٍ في حُجرتِها أيضًا. لم تجِد شيئًا ذا دلالة. فحزَمَت كُلّ شيء في حقائبَ، وتركَتها خارجَ الحُجرة. وفي الصّباح، حملَت فيونا أمتعتها ورحلَت.

انضمَّ الزّوجان إلى مجموعاتِ دعمٍ للأهالي الذين تركَهُم أبناؤهُم. والتحقَ روجَر عدّة مرّاتٍ باجتماعاتٍ لأهالٍ ماتَ أبناؤهُم، ولكنّهُ كان يُلفي نفسهُ غريبًا بينهُم. إذ إنَّ طفلتهُ لم تختَر البقاءَ معهُما. ولم تكُن حتّى ابنتهُما.

بدأت لاورا تعمَلُ عِوَضًا عن التفكيرِ المستمرّ: فأدارت نوادي دراسيّة، وحصّلَت شهادةَ مُعَلِّمةٍ معتمدة حتّى تقدرَ على الالتحاق بمهنة التعليم، وصارت ترتادُ المقاهي بعد العمل فتجلسُ قُرب النافذة.

أمّا روجَر، فأدمنَ الشُّرب. صارَ يشرُب، غالبًا، البيرة. ولم يكُن يشربُ في الحانات أو في حضرةِ آخرين، بل كانَ يشربُ وحدهُ في الحمّام، أو يأخذُ عُلبًا (ويضعها في جيوبِه) حينَ يُريد أن يتنزّه خارجَ المنزل. ثُمَّ بدأ ينخرطُ في الحياة الاجتماعيّة قدرَ استطاعته. استحالَت الأيّامُ إلى محض فراغاتٍ ما بينَ أوقاتِ النّوم. تذكَّرَ مارغْت، حينَ كانت أحدثَ سِنًّا، وهيَ تُحدّثه بثقةٍ وإيمان راسِخَين عن انعدامِ الخيارات أمامَ الإنسان، وعن حقيقةَ أنّهُ مُسيَّر. وتخيَّلَ -وهذا أسوأ ما في الأمر- أنَّها رحَلَت لأنّها ظنَّت ألّا خيارَ آخرَ أمامها، وأنَّ قدرَها منذ البداية كانَ هوَ الرّحيل. لم يقدِر على احتمال ذلك. وفَضَّلَ أن يسلَخَ أيّامهُ ثمِلًا على أن يسلخها مُفكّرًا في ذلكَ الأمر.

عادَت فيونا أخيرًا. وكانت الأعوامُ التي تلَت رحيلَها قد مضت بطيئةً وطويلةً، حافلةً بسُكرِ روجَر ومحاولاتِهِ إنجاب طفلٍ أبي المجيء. أجهَضَت لاورا مرّةً، وتسبّبَ روجَر بحادث سيرٍ إذ كانَ يقودُ سيّارته ثمِلًا. كما مرَّت ستّةَ أشهرٍ أمضتها لاورا مُقيمةً في منزلٍ آخر. وأيضًا كانَ ثمَّت سلامٌ، وأوبةٌ بطيئةٌ لِطَيفِ سعادة كفى أحدهُما أن يتخلّى عن صاحبِه. ولمّا عادَت فيونا، ربّما بعد سبعة أعوام ممّا حدث، كانا قد تبنّيا طِفلَينِ من الأربعة الذين تبنّوهُم لاحقًا. وكانَ روجَر قد مرَّ بفترات متقطّعة من الإقلاع عن الشُّرب، بيدَ أنّهُ لم يتركهُ جُملة. وكانَ في المساءات أو الصباحات الباكرة يدفنُ عُلَب البيرة أو قناني النبيذ في أُصص الزّهور، ويستعيدُ وعيهُ ويقْظتهُ دافنًا رأسهُ في العُشب البارد. كانت ثمَّت رؤىً تعرِضُ لهُ -من قبل- في أثناءِ الشُّرب: رأى مارغْت مُحلّقةً في الجوّ، وسمِعَ أصواتًا أدرَكَ أنّها مُتوَهَّمَة. وكانَ ليلتئذٍ قد رأى ضوءًا منبعثًا من خلالِ نافذة السّقيفة، فتحسّسَ ما حولهُ بحثًا عن سلاح، فلم يُلفِ غيرَ قنّينة النّبيذ، فحملَها واقتحمَ الباب. لم يكونا يستعملانِ السّقيفةَ كثيرًا، فظلَّت لأعوامٍ غاصّةً بمقاعِدَ مكسورة، وجزّازة عُشب وصناديق زينة كرِسمَس. ألفى روجَر داخلَ السّقيفةِ كُلَّ ذلكَ مرتّبًا في أكوام، كما ألفى ثمَّ كُرسيًّا من كراسي الحديقة عليهِ لِحاف، وفيونا في وسطِ السّقيفة جاثمة. تشبّثَ بمقبضِ الباب، ورفعَ القنّينة عاليًا. بدَت فيونا -حسبَ قولِه- أبشعَ منظرًا وهيئةً ممّا سبق. كانت، أحيانًا، تُحدّق إليه، ولكنّها كانت تُحدّقُ جُلَّ

الوقت إلى شيءٍ خلفَه أو إلى السّقف. كانت نحيلةً للغاية، ولمّا مرّرَت يدَها المُرتعشةَ في شعرِها انتُزِعَ خُصلةً خُصلة. مرَّ روجَر بلحظةٍ -حسبَ اعترافِه- فكَّرَ فيها بأن ينهالَ على رأسِها ضربًا بالقنّينة. إلّا أنّهُ أدرَكَ أنَّها لن تتمكّن بعدَها من إخبارهم بمكان مارغُت.

أبقى روجَر أمرَ فيونا سِرًّا لِنحوِ شهر، وظلَّ يُمرّرُ لها -خلسةً- خُبزًا وأطباق معكرونة، ويجلسُ ليُشاهدها إذ تلتهمُها بلا وقفاتٍ للتنفُّس حتّى. لم تنبس ببنتِ شفةٍ لمدّة، بل اكتفَت بمراقبته، والتهامِ ما يأتيها به، والنّوم على كُرسيّ الحديقة. أحيانًا، كانَ يسألُها، مُطالبًا، صارِخًا. وأحيانًا، كانَ يتوسّلُ إليها. بيدَ أنّها لم تمنحه شيئًا. فكَّرَ كثيرًا بالبطاقات البريديّة التي كانت تُرسِلُها في أثناءِ فترةِ غَيبتِها. *الطّقسُ هُنا سيّئ.* وبصوت سقوطِ تلكَ البطاقات بهدوءٍ على الفراش، وبطريقة قراءته لها بينما يشربُ قهوةَ الصّباح. ولمّا أطلَعَ لاورا على الأمر، في نهاية المطاف، خالَها ستُلقي بِهما كليهِما في الشارع وتُبدِّلُ أقفال أبواب المنزل كلّها. إلّا أنّهُما -روجر ولاورا- كانا يُدركانِ أنَّ قاطِنَةَ السّقيفة في مؤخّرة حديقتِهما هي الإنسانة الوحيدة التي تعرفُ مكانَ مارغُت.

النَّهر

الجسورُ الحجريّةِ الوطيئة فوقَ النّهر، والبيوتُ المُلتصقةُ ببعضِها، وحواجِزُ الضّفاف المتداعية. أوَت مارغُت إلى ظلِّ أجمةٍ، وراحت تُراقبُ مجموعةَ ضبّاط شُرطة سمينين واقفينَ في الدّرب يستجوِبون المارَّة. كانت ثمَّت لطخات وحلٍ على ثنايا سراويلاتهِم. تخيّلتهُم مُتجمهرينَ حولَ القارب، مُلصِقينَ وجوههُم الشاحبة بالنوافذ. انتظرتهُم أن يسيروا في الدّربِ صوبَها، ويحملوها من تحتِ إبطَيها، ويُخبروها بأنّهُم عثروا على جثّةٍ ويظنّونَها الفاعلة. كانت قد أخذت كِتابَ الألغاز من القارب، فتخيّلتهُم قد وجدوهُ في حقيبتِها فقطعوا الظنَّ باليقين. حلَّت ومكَّنَت رِباط نعلِها الأيسَر. وركَلَ أحدُ الضبّاطِ بعضَ الحصى إلى النّهر، وشاهدها إذ تغرقُ فيه. أغمَضَت عينيها، وتذكَّرَت كيفَ كانَ تشارلي يُناديها: «يا ولد»، «يا بُنيّ»، وكيفَ جزَمَ أنّها ولدٌ لا بِنت. فكَّرَت في أهل القواربِ الأخرى، الذين رأوها -لا محالةَ- تهبط الأدراج أو تجلسُ على السّطح برفقة تشارلي. فكَّرَت فيهِم إذ يُخرجونَ جُثّتهُ من النّهر، مُثقَلَةً بالماءِ والأعشاب، وبالحِبال الرّافعة التي يربطونَها حولَه. ولمّا فتحَت عينيها، ألفَت رجال الشُّرطة قد غادروا الدّرب وركِبوا سيّاراتِهم مُنطلقينَ في الشارع، والمارَّةَ قد انفضُّوا. فنهَضَت من مكانِها، ومضَت.

ذِكرى: حينَ كانت فيونا تسكُن في المنزل المُجاور، كانت مارغُت تزورُها وقت الفطور، ثُمَّ -بعدما تتناوَلُ شطيرةَ الموز وزبدة الفول السودانيّ- تُشاهِدُها وهيَ تحلق شعرَ جسمِها. وتُراقبُ الشّفرةَ إذ تنزلقُ

ببطءٍ على بشرتِها، والشّعرَ الأسوَدَ الكثيفَ إذ يملأ المَغسَل، ووجهَ فيونا إذ تُحدّقُ إليها في المرآة قائلةً: «يشتدُّ سوادُهُ كُلّ مرّةٍ، وتشتدُّ كثافتهُ أيضًا».

وصَلَت إلى باحةِ مراكِب، فيها قوارب عتيقة أخرِجَت من النّهرِ كي يُعادَ طلاؤُها، وقوارب راسية للإيجار مُخزَّنة لفصلِ الشتاء. كما كان ثمّت متجر على ضفّة النّهر وقَفَت قبالتَه. كانت تتضوّرُ جوعًا. دخلت إلى المتجر. كان يبيعُ براميلَ زيوتِ قوارب، وبطاطا مُعَفَّرَة في أكياس، وخرائط مطويّة للنّهر.

وعلى لوحة الإعلانات، رأت مُلصقًا لقطّة ضائعة، فدَنَت من اللّوحة أكثر. وجدَت عليها سبعة أو ثمانية مُلصقاتٍ مشابهة، جُلُّها لكلابٍ وقطط ضاعَت من القوارب أو البيوت المُطلّة على القوارب، غيرَ أنَّ مارغُت وجدت مُلصقًا لمعزةٍ كانت تعيشُ في حقلٍ قريب. حمَلَت سلّةً، وراحت تتسوّقُ مُقتصِدَةً، مُعيدَةً نصفَ ما أخذته.

فضلًا عن الخُبزِ والمُربّى وعُلب الماء، فقد ابتاعَت ورقًا حراريًّا، وشفرات حلاقة، ومقصًّا. وفي طريقِ خروجِها من المتجر، ألقت نظرةً ثانيةً إلى لوحة مُلصقات الحيوانات الضائعة. تُرى، أين اختفَت؟ لا بُدَّ من أنّها ضاعَت في الليل، مثلما ضاعَت هيَ، ومثلما ضاعَ تشارلي. في الطّريق، التهمَت أربع قِطَع خُبز بشراهةٍ وخوفٍ، واستأنفَت سَيرَها.

***

لمّا خلَدَت إلى النوم ليلتئذٍ، راودَها الرّجُل الذي قتلتهُ في منامِها، ولم تقدِر على إبعادِه. كما رافقَها طيلةَ اليومِ التالي، جاثمًا وراءَ ستارةِ جَفنَيها، مُطلًّا بوجههِ ثُمَّ مُختفيًا كلَمبةٍ خَرِبَةٍ يُضيءُ نورُها وينطفئ. لمّا رأتهُ، لم يكُن أعمى أو مَيّتًا. بل كانَ يافِعًا، قد اختفت التجاعيدُ من وجهه، رافِعًا يدَهُ صوبَها.

عزَمَت أمرَها دونما تراجُع، أنَّ الأمرَ سيسهُلُ عليها إن تحوَّلَت إلى فتى. أدركَت ذلكَ من غيرِ أن يُخبرَها بِهِ أحد. لم تكُن معها مرآة، فانحنَت فوقَ الماء واستعانَت بانعكاسِها. ألفَت شُعيراتٍ شقراء فوقَ شفَتِها، وعلى ذقنِها. حلَقَتهُ، فصارَ وجهُها ناعِمًا، أحمرَ. كانَ شعرُها طويلًا، كما أحبَّهُ

أبوها، مُنسدلًا أسفَلَ كتِفَيها، أشعثَ. قصَّت جُلَّهُ، فلم يبقَ سوى أقلّه، وأجعَده. ولكن ظلَّت المُشكلة أنَّ قميصَها الفضفاض لم يقدِر على إخفاءِ ثديَيها المُختبئين تحته. صحيحٌ أنّهُما لم يكونا متكوّرَينِ أو وافِرَين، ولكن موجودَينِ على أية حال. نزعَت قميصَها فزِعَة. كان الهواءُ قارسَ البرودةِ حتّى انغرزَ في بطنِها، وأفرَغَ رِئتيها من الهواء. طوَّقَت صدرَها بالورق الحراريّ مرّةً، واثنتين، وثلاثًا.

أكملت سيرَها. ألفَت ثمَّ حبلًا معقودًا إلى قاربٍ نصفِ غارِقٍ في النّهر. لو أنّها أفرطَت في التّفكير لقَتلَت نفسَها. كانت في الرابعة من عُمرِها، تلعبُ في الحديقة رافعةً ذراعَيها بينما يمرُّ العالَمُ حذاءَها. كانت في العاشرة، تدفن رسائل الغرام من المنزل المجاور في تُربة الحديقة. كانت في الرابعة عشرة، تُزيلُ الفلفلَ من خليط الكيك بعدما تضعُهُ فيونا فيه. كانت في السادسة عشرة، وقد صارَت شخصًا مُختلفًا عمّا كانت عليه فيما مضى. صارت في السادسة عشرة، وصارت بحاجةٍ إلى اسمٍ جديد.

المطاردة

في الصباح، وضعوا جميعًا أحذيتهُم في صفٍّ عند الباب. أخبرني روجَر بأنّهُم كانوا ذاهبين إلى المتنزَّه، وأنَّ ثلاجة المنزل طوعُ أمري إن احتجتُ شيئًا. وسألَتني لاورا إن كُنتُ أمانعُ وضع الملابس في الغسالة. رانَ هدوءٌ طاغٍ بعدما خرجوا. نظرتُ من النافذة. فرأيتُ الحديقة ممتدّةً طولًا وضيّقةً عرضًا، والسّقيفةَ في آخرِها. قطعتُ شرائحَ صغيرة من قالب الجُبن، وأطعمتُها أوتو. خِلتُني سمَعتُكِ تتحدّثين بهدوءٍ ورائي. *'يجبُ أن نصطادَه'*، قُلتِ. *'ولسوفَ نفعل!'*.

'سنصطادُ ماذا؟'، سألتُكِ. ولكن لم أسمع جوابًا.

بحثتُ عن الهاتف، فوجدتُه. كانَ أحدَ الهواتف عتيقة الطّراز، فيهِ دولاب أرقامٍ دوَّار بدلَ الأزرار. هاتفتُ المكتب.

– «غْرِتِل؟»، أجابَت المرأة المسؤولة عن طابق القاموس، واسمُها جِنِفَر، وكانَ يعلوها دائمًا سمتُ فَزَع.

– «أعتذرُ لعدم اتّصالي»، قُلت. «فقد مررتُ بظرفٍ طارئ، وأحتاجُ إلى التغيُّبِ عن العمل ليومينِ إضافيَّين».

لم أسمع سِوى الصّمت في الجانب الآخر من المكالمة.

– «أفي ذلكَ بأس؟»، قُلتُ، وسمِعتُ صوتَ نَفَسِها. «جِنِفَر؟ لن أحتاجَ إلى سوى بضعة أيّام إضافيّة».

– «وصلَتنا رسالةٌ موجهةٌ لكِ»، قالَت. «وقد راسلتُكِ عبر البريد الإلكترونيّ بخصوصِها. هاتفَنا أحدهُم في منتصف الليل حينَ لم يكُن ثمَّت أحدٌ في المكتب، وتركَ رسالةً صوتيّة».

– «من الذي ترك الرسالة الصوتيّة؟».

– «لا أدري. أعدتُ مهاتفةَ الرّقم المُتَّصِل، ولكنّهُ كانَ رقم هاتف عموميّ. خِلتُكِ تُهاتفينني بخصوصِ ذلك».

– «هلّا شغَّلتِ الرسالة الصوتية فأسمَعها؟».

– «حسنٌ. لا بُدَّ من أنّه مجرّد مقلب. مزحة. ولكن، سأشغّلها لكِ الآن».

سمِعتُ صوتَ خبطةٍ حينَ ألصَقَت السمّاعةَ بمكبّر الصّوت، تلاهُ صوتُ قارئ الرسائل الصوتية إذ يعُدُّ الرسئل الموجودة، تلاهُ صوتُ ‹بيب› حينَ راحَت جِنِفَر تتنقّل بينَ الرسائل صوبَ رسالتي، ثُمَّ بدأت الرسالة.

طغى على الرسالة الصّمت، وضوضاء في الخلفيّة صادرةٌ عن الشارع خارجَ مقصورة الهاتف العموميّ: صوت مرور سيّارة أو شاحنة، ووقع خُطى على الرصيف، وطقطقة كطقطقة المطر أو الحصى تحتَ عجلات السيارات. ثُمَّ حلَّ صمتٌ طويل، فخِلتُ جِنِفَر أخطأت فأطفأت الهاتفَ أو أبعدَت السمّاعة عن المكبّر. فتحتُ فمي كي أنادي عليها، فسَمِعتُ صوتكِ قد تسلّلَ إلى أذني.

– «غْرِتِل»، قُلتِ. «غْرِتِل. أنا تائهة».

كانَ أوتو في الحديقة يحفرُ ثقوبًا في التّربة، ولكنّهُ لحظةَ رآني سارعَ في النّهوض. كانت الأرضُ تحتَ العُشب صُلبةً. وعلى الرّغم من أنَّ ثمّتَ مُلصقاتٍ تدعو إلى ترشيد استهلاكِ الماء كانت معلّقةً في الحيِّ كُلّه، فإنّي سمعتُ صوت رشّاشات الحدائق صادرًا من كُل اتجاه. كنتُ قد حزمت حقيبتي في الداخل، وأخذت مفاتيح السيارة، وعَدَوتُ حتّى وصلتُ إلى السيارة، قبل أن أدرِكَ أنّي لا أعرفُ بعدُ أينَ مكانُكِ. حتّى أنتِ، حسبما بدا، لم تعرفي أينَ مكانكِ. ذهبتُ إلى السّقيفة وقرعتُ بابها بكلتَي يديّ، ورُحتُ أصرخ وأصرخُ حتّى انفتَح. ظللتُ أصرُخُ للحظاتٍ رافعةً ذراعَيَّ ومُرجِعةً رأسي إلى الخلف قليلًا حتّى بعدما انفتَح. ولمّا فتحتُ عينَيّ ورأيتُها، أدركتُ أنّها كانت مذعورةً منّي. ‹هذا جيّد›، فكّرْت. ‹يُسعِدُني ذلك. يُسعِدُني أنّكِ مذعورة›.

لم تأذن لي فيونا بتجاوُزِ العتبة، وجلبَت لي كوبَ ماءٍ تظاهَرتُ بشُربِه. كانَ مِعصماها نحيلَين، وكانَ في السَّقيفة سريرٌ فرديٌّ عليهِ ألحفة، وفُرنُ غازٍ عليهِ مقلاة. كما وُضِعَت في إحدى زواياه عُلَب فول فارغة. لا أكثر. بدَت فيونا كأنّها كانت تزحفُ في منجم، تحفرُ فيه بأظافرِها كي تخرُج، عطشى إلى شيءٍ من النّور. لم تكُن فارعةَ الطول، بل حدباء. بدَت كإحدى العجائز اللاتي كُنَّ يُراهِنَّ على الأحصِنة في المتجر عند الناصية، على مقربةٍ من المكتب. ما كُنت سأقدِرُ على إبرازِ عينيها الغائرَتين ولو غرزتُ أصابعي في محجَرَيها وسحبتُهُما من رأسِها. رأيتُ شعرًا كثيفًا أسودَ فوقَ شفتِها، وبين عينيها، وعلى طرفِ ذقنِها. وكانَت السقيفة فائحةً برائحتِها، كأنّها تُمضي كُلّ وقتها هُناكَ ونادرًا ما تخرُج. لم تكُن السقيفة وسِخة، ولكن مُثقَلَة. تساءلتُ ما إذا كانت تغتسِلُ ليلًا باستخدام خرطوم الماء الخارجيّ -كما كنّا نفعل على النّهر- والأطفال يختلسونَ إليها النّظَر من نوافذهِم بينما الماءُ البارد يغسلُها من رأسِها. أم إذا كانت تتسلّل إلى داخل المنزل حينَ ينامُ أهله، حافيةَ القدمين، تاركةً بقعَ الوحل أثرًا وراءها، كي تغتسلَ وتنهبَ ما في الثلاجة من طعامٍ منتهي الصلاحيّة. لم تبدُ جائعة، كأنّها أكلَت كفايتَها. كنتُ أعرفُ إحساسها ذاك.

حينَ حدَّقتُ إليها فهِمت، بغتةً، لِمَ كانَ ماركُس مأخوذًا بكِ؟. لِمَ كانَ يتبعُكِ أينما ذهبتِ، ويراقبُكِ بحذرٍ ليعرفَ ما تفعلين، ويسمعكِ بإنصاتٍ حينَ تتكلّمين؟. كانَ روجَر ولاورا مُحِقَّين فيما قالاهُ عن تلكَ المعلّمة، أنَّ ماركُس ينجذبُ دومًا إلى النساء القويّات، اللاتي يكبُرنه سنًّا. أحبَّ ماركُس فيونا، ثُمَّ أحبَّكِ. لا بُدَّ من أنّهُ كانَ كذلك.

- «كنتُ أعرفُ ماركُس»، قُلت.

- «لا أعرف أيَّ أحدٍ بهذا الاسم».

كان جلدها يذوي. فكَّرتُ في المكالمة الهاتفيّة، في المرأةِ التي أخبرتني -عند الاصطبلات- أنّكِ كنت تظهرين هُناك وتختفين. لم يكُن لديَّ وقتٌ كثيرٌ أضيّعه. أردتُ أن أمسكَها من كتِفَيها وأهُزَّها حتى تسقُطَ منها كُلّ معلومة تعرفُها فورًا.

– «كُنتِ تعرفينهُ باسم مارغُت، وأنتِ من أمرَها بالرّحيل»، قُلت. «وبعد رحيلها بفترةٍ وجيزةٍ، ظهَرَت في المكانِ الذي كُنت أعيشُ فيه على النّهر مع أمّي».

دخلتُ السّقيفة. فوضعَت السّرير حاجزًا بيننا، وجلسَت مُقفلةً فمَها. بدأت أعي أنَّ ذِكْرَ اسم مارغُت لهُم يُشبهُ ذِكرَ اسمِكِ لي: ذلكَ الشّبح الجالس إلى طاولتي، ملتهمًا كُلّ الطعام. انتبهتُ إلى أنَّ شعرها قد تساقطَ جلُّه، حتّى بانَت القشرة من تحته.

– «ما أريد إلّا معرفة ما حدث»، قُلتُ وأدركتُ أنّي رافعةٌ يديَّ إلى السماء. فأنزلتُهُما برَوِيّة.

– «لماذا؟»، قالَت.

– «لأنَّ ذلكَ قد يُعينُني على إيجاد ماركُس، مارغُت. يجبُ أن أجِدَها».

– «لماذا؟».

حدّقتُ إليها، فألفيتُ في وجهها سِمَةً شبيهةً بحائط الطّوب، فكانَ مصقولًا، لا ثُلمة فيه. ظلَّت محتفظة بأسرارِها لزمنٍ طويل.

– «لأنّني»، قُلت. «أظنُّ أنَّ أمّي واقعة في مشكلة عويصة. أنا لم أرَها منذ ستّة عشر عامًا، ولكنّي يجبُ أن أجِدَها الآن، وربّما يكونُ ماركُس على علمٍ بمكانِها. ما أريدُ منكِ إلّا أن تُخبريني بما قُلتِهِ لها ليلتئذ».

– «وتعِدينني بأنّكِ لن تُخبريهما؟»، قالَت بصوتٍ ضعيفٍ، لم يُستخدم منذ زمن. وقالَت ذلكَ مُشيرةً صوبي بإصبَعيها، فأدركتُ أنّها تهدّدُني.

– «عِديني أنّكِ لن تُخبريهما»، قالَت ثانيةً.

– «أعِدُكِ».

حدّقَت إليّ، وقالَت:

– «وماذا ستُعطينني؟».

– «ماذا؟».

– «لم أخبر أحدًا بهذا السّرّ قطّ. أبقيتُهُ مكنونًا في صدريِ. فلِمَ أبوحُ لكِ به الآن؟ أريدُ شيئًا لقاءَه».

أخرجتُ المال الذي لديَّ من جيبي، ورقَتين من فئة العشرين، ومددتُها إليها. فهزَّت برأسِها رافضةً وقالَت:

- «وماذا عساني أفعل بها؟».

- «لا أدري ما أعطيكِ».

- «ذات الشيء الذي سأعطيكِ إيّاه. أريدُ أن تُخبريني بما جرى»، قالَت وهيَ ترتعشُ قليلًا.

- «ما جرى؟».

- «عندما التقيتِ بها، وعندما أقامَت معكما، ماذا جرى؟».

- «لا أذكُرُ كثيرًا مما جرى. أرغمتُ نفسي على نسيان جُلّ ما جرى. سامحيني».

لم تفُه بكلمة. أخذتُ نفسًا عميقًا ورُحتُ أخبرُها عن النّهر والقارب الذي عشتُ فيهِ معكِ، وعن ماركُس الذي ظهرَ ذاتَ يومٍ مع خيمتِه ومكثَ معنا لشَهر. وبينما أنا أتحدّث، أدركتُ أنّي أتذكّرُ أكثرَ ممّا أظنّ، وأنَّ الذكريات بدأت تتسلّلُ إلى عقلي من غيرِ أن أنتبه لها. أخبرتُها عن لُعبة سكْرابِل، وقراءتِنا الموسوعة، وإعدادِنا أجراسَ الريح والمصائد. وعن وقوعي في حُبّ ماركُس بطريقةٍ طفوليّة، مُخلِصَةٍ، ورعناء. كما أخبرتُها عنكِ، وعن دروسِكِ من الموسوعة، وعن مزاجِكِ الحادّ وعاطفتِكِ الشتائيّة الطويلة.

- «كُنّا خائفين من شيءٍ ما، ولكنّي لا أذكُر ما كان»، قُلت.

ولمّا كففتُ عن الحديث، أحسستُ بإرهاق، وبشيءٍ من العار. أترينَ كيفَ تقتحمينَ كُلّ مشهدٍ ذا قيمةٍ، حاجبةً ماركُس وحتّى أنا. وعلى أيةِ حال، هزّت فيونا برأسِها غيرَ راضية.

- «ماذا؟».

- «ليسَ فيما قُلتِ كفاية»، قالَت.

النَّهر

حقائق جديدة. صارَ اسمُها بِن أو جِيك أو ماثيو. صارَ اسمُها لِنَرْد وصارت فتى. صارَ اسمُها بيرس أو جوني أو موسى. صارَ اسمُها جو أو ديفِد أو بيتَر. لم تعُد هاربةً من منزلِها. ولم تلتقِ برجُلٍ اسمهُ تشارلي فقَتَلَته. صارَ اسمُها آرُن أو بْرَاد أو مارتِن أو رِتشَرد. صارَ اسمُها ألَستِر أو جاك أو هاري.

اقتحمَ النّهرُ اليابسة. لم يكُن ذلكَ خيرًا. ظلَّت تمشي وتمشي حتّى خطفَتها يدُ الوسَن. انتبهَت إلى الناسِ في القواربِ المارّةِ والراسيَةِ يُحدّقون إليها، فأدركَت أنّها لا تبدو فتى، بل شخصًا بينَ الفتى والفتاة، صِنفًا غيرَ محدّد لم يكتمل صُنعُه. بدَت فَتاةً قتلَت رجُلًا، وستحمِلُ جريمتها تلكَ في جيوبِها وعلى طرَفَي فمِها ما بَقيَت. أسندتَ رأسَها بصدرِها، ومضَت متثاقلة. أحيانًا، كان الدّربُ يشُقُّ عليها حتّى لتُضطرَّ إلى المُجاهدة في المسير، مُجرِّحَةً ذراعَيها، ومُلوِّنَةً الأجماتِ البُنّية ببعضِ دمِها قاني الحُمرة.

مرَّت ببلدةٍ ألفَت فيها فِتيةً يركبون درّاجاتٍ هوائيّة، يصيحونَ ويُنادي بعضُهم بعضًا. ورجالًا يَعْدون، لهُم أفخاذ طويلةٌ ورشيقة، ويرتدونَ سراويلات خضراء قصيرة. ومارّةً يركلونَ بُرازَ الكلابِ صوبَ السياج، ويفتّشونَ جيوبَهُم بحثًا عن عِلكةٍ يمضغونَها، أو عن هواتفِهم المحمولة أو مفاتيحِهم. ومُسنّينَ يعتمرون قبّعات، يُبحرونَ بقواربِهم في الأيام الدافئة، ويحتسون القهوة ويومئونَ للمارّةَ ترحيبًا. أرادَت أن تجِدَ لها جسدًا ومِشيَةً تُلائمُها. بيدَ أنّها لم تُحسِن اختلاقَ أيٍّ منهُما.

تمنَّت خروجَه. تمنَّت انبثاقهُ مِنها. فتى لهُ وجهُها ويداها، فتى يُخبّئُ مارغُت وراءَه. فتى لم يقتُل رجُلًا. فتى ليسَ لهُ أبوان.

قلَّدَت مِشيَتَهُم -أولئكَ الرّجال- مؤرجِحةً ذراعيها، وضارِبَةً الأرضَ بقدَميها بحزم. راقبتهُم بعناية، وقلَّدَت حركاتِ شفاهِهِم، وضِحكاتِهِم، وكلامِهِم. حاوَلت استحضارَ جسدِها كي يتصرَّفَ مثلهُم، حاوَلَت قلبَهُ ظهرًا لبطنٍ، ورؤيتهُ من خارِجِه. تذكَّرَت التهديدَ الضمنيَّ لصائدي السّمك، وتذكَّرَت كيفَ كانَ روجَر يبتسِم، وكيفَ كانَ الفتى الساكِنُ في المنزل المُجاور يعبِس.

وأخيرًا، تذكَّرَت الرّجُلَ في القارب، تشارلي. واستذكرَت مِشيَتَه -بتردُّدٍ أحيانًا وثِقَةٍ غالبًا- في المطبخ، وكيفَ كانَ يمدُّ يديهِ صوبَ السكاكينِ وفصوص الثّوم. واستذكرَت طريقةَ حديثِه، والألغازَ التي كانَ يطرحُها. أغمَضَت عينيها، وحرَّكَت ساقَيها، متخيِّلَةً شكلَ تشارلي وهوَ شابٌّ ومُبصِر يقفزُ واثقًا من حافّة القارب إلى الضفّة. سيكونُ تقليدُها لهُ -حسبما ظنَّت- لونًا من إكرامِ ذِكرى الميْت، واعتذارًا. انحنَت وضغَطَت بيديها على التّربة الرّطبة. أحسَّت بِمارغُت تُفارِقُها. فتوقّفَت ذاهِلةً في الدّرب، وانحنَت أكثر. أحسَّت بحُزنٍ عظيمٍ قد باغتَها، وحسرةً على ما فات، على ما خلَّفَتهُ وراءَها، على ما ستُبقيهِ مكنونًا في صدرِها ولن تبوحَ بهِ أبدًا.

***

صارَ اسمُها ماركُس. ولم يكُن ماركُس يذكُرُ والدَيه. كانَ يمشي بمحاذاة القناة من غيرِ أن يُكلِّمَ أحدًا. كان يُحبُّ العَدْو، وصيد السّمك، والاستماع إلى الألغاز. وكانَ يمشي مِشيةَ الفِتيان، ويتوقّفُ ويستمعُ كما يفعلُ الفِتيان، ويتحدّثُ كما يتحدّثُ الفِتيان.

حينَ يوضَعُ شيءٌ مرّةً أمامَ الملأ، فلن يوضَعَ هُناكَ ثانيةً. كانَ الورقُ الحراريُّ مشدودًا حولَ صدرِ الفتى، والعرقُ يتجمَّعُ في طيّاتِه. وكانَ الفتى حينَ يُمرّرُ راحتهُ على وجهه، يخالُ أنّهُ يُحسُّ ببعضِ الشَّعر قد بدأ ينمو، خشِنًا شيئًا ما. التقطَ حجرًا، وحاولَ أن يُنطِّطَه على صفحة الماء مثلما يفعل

الفِتيان. إنَّ الفتى لا ينشغلُ بما يُمكِنُ أن يجِدَهُ في النّهر، ولا بِما جرى في ذلكَ القارب. وإنَّ الفتى ينامُ قريرَ العين من غيرِ أن يحلُمَ بوجهِ تشارلي النّاظِرِ إليهِ من الأرضيّةِ بسكونٍ وترقُّب، إذ لم يعُد البَردُ يؤذيهِ كما كان، ولم يعُد الجوعُ يقضُّ استقرارَ معدتِه. إنَّ الفتى يأكُلُ حينَ يُقدَّم له الطعام، باقتصادٍ واشتهاء. إنَّ الفتى لا يُلفي نفسهُ باكيًا، ومادًّا يديهِ صوب الجهةِ الخالية التي كانَ فيها وتدُ الخيمةِ ذاك فيما مضى.

المطاردة

هاتفتُ المكتبَ ثانيةً، ولكن لم تكُن قد وصلتهُ رسائل جديدة. فاستعنتُ بالماسح الضوئيّ الخاصّ بروجَر ولاورا كي أطبعَ خمسين مُلصقًا وضعتُ فيها وجهَكِ وكتبتُ فوقَهُ كلمة «مفقودة». حملتُها كلّها إلى باعَة الصُّحف، والحانات، ومراكز الشّرطة. بِمَ عساني أخبرهُم؟ بأنّكِ مفقودةٌ منذ ستّة عشرَ عامًا. توقّفتُ بسيارتي في شارعٍ سكنيٍّ وارف الظلال، ووضعتُ بعضَ الإعلانات على زُجاج السيارات الأماميّ. وبينما أنا أفعلُ ذلك، أدركتُ سُخرية القَدَر هُنا: إذ إنّي أضعُ إعلانات البحث عنكِ في ذات الأماكن التي وضعَ فيها روجر ولاورا -لا محالةَ- إعلاناتِ البحث عن ماركُس بينما كانَ هوَ طوال ذلكَ الوقت بصُحبتِنا على النّهر. عرفتُ أنّي لا محالةَ ذاهبةٌ إلى هُناكَ عمّا قريب. فقد كان هوَ المكان الوحيد الذي لم أفتّش عنكِ فيه، والمكانَ الوحيد الذي طالما ظننتُكِ ماكثةً فيه. كُنتِ أنتِ النّهرَ المُضطرب، والصّنوبرات اللاتي يُسقِطنَ اللحاءَ في الصيف، والأرض التي كُنتُ أملؤها بمصائدي الحديدية. رفعتُ ماسحة زُجاجٍ أماميٍّ ودسستُ إعلانًا تحتها. لم أكُن مستعدّةً للعودة إلى النّهرِ بَعد.

اشتدَّت الحرارةُ أكثر، فاقترحَ روجَر أن نذهبَ إلى البِركة. أعَدَّ لنا القهوة، فشرِبناها جلوسًا إلى الطاولة. كانت كُلّ النوافذ مُشرَعة، وأوتو منبطِحًا على الأرضيّة عند قدَميّ، مُدليًا لسانه.

حاولتُ ألّا أنظرَ إلى السّقيفة. كانت الذكرياتُ قد بدأت تعودُ إليَّ شيئًا فشيئًا، ولكن ليسَ بالقدر الكافي والمُرضي بالنسبةِ لِفيونا. عادَت إليَّ ذِكرى

عامَ كُنتُ في الثامنة أو التاسعة، والطائرة الورقية التي صنعتِها لي ذاتَ صباحٍ قائظ، وشعرُكِ معقودٌ في ضفائر، وخيطُ الطائرةِ في فمِكِ. أخذنا الطائرةَ إلى سطحِ القارب، فرَفعت ذراعَيكِ فوقَ رأسِكِ وأطلقتِها برفقةِ صَيحةٍ بدَت كأنّها هيَ من حملَتها عاليًا، فدارَت كدوّامةٍ فوقَنا مُشتبكةً مع الرّيح. وعادَت لي ذكرياتُ صمتِكِ الطويل، والأيام التي كانت تمرُّ من غيرِ أن تنبسي بكلمة مُستلقيةً على سريرِكِ أو جالسةً على سطحِ القارب تُراقبين التيّار. والأيّام التي كانت تُختَتَم بجدالاتٍ وصراخ وأطباق مكسّرة وشتائم. أخالُكِ، حينَ أنظُرُ إلى ذلكَ الماضي أحيانًا، كُنتِ بذيئةً لا لشيءٍ سِوى أن تُثبِتي أنّكِ مُحقّة. مرّةً حلَقتِ شعرَ جِسمَينا كُلّه. وأخبرتِني مرّاتٍ أنّي أشبهُكِ وأنَّ ذلكَ ليسَ أمرًا حسنًا، ولا يصبُّ في مصلحتي. «تغيّري»، كنتِ تقولين. «أغرقي في التّفكيرِ بالتّغيير، حتّى تستحيلي إلى ابنةِ امرأةٍ سواي!». كنتِ لا تنفكّينَ تتحدّثين عن الفضاء، وترتيبِ الكواكب، والكلب الذي أرسلوهُ إلى أحدِ الكواكب ولن يعودَ إلى الأرضِ أبدًا. لم يكُن هذا العالَمُ كافيًا لكِ قطّ. طالَما أردتِ المزيد، وانتظرتِ حياتكِ كلّها مجيءَ شيءٍ ما.

نقرَ روجَر على يدي، وقالَ شيئًا.

– «ماذا؟ أعتذِر».

– «يبدو أنّكِ كنتِ مسافِرة! مرحبًا بعودتِكِ!»، قال. «هل تودّين أن تستعيري من عندنا ثوبَ سباحة؟».

– «أخالُني سأظلُّ ماكثة داخل المنزل».

– «حقًّا؟ إنَّ البِركة جميلة جدًّا».

الحقُّ أنّي كنتُ خائفةً قليلًا من الماء. نهضتُ وأعدتُ مَلءَ فُنجاني كي لا أضطرَّ إلى النّظر في عينيه.

كانَ ثمَّتَ حرَجٌ لوجودي في منزلِ عائلةٍ غريبة، وكان ذلكَ شيئًا لم أعتَده. كُنتُ قد حاولتُ جهدي في اليوم السابق أن أساعدهُم. فنظّفتُ المطبخ وكَنَستُ حُجرة الجلوس. لم أحاول أن أطبخ شيئًا، ولكنّي قصَدتُ البقّالةَ وابتعتُ منها أغراضًا كانت مكتوبةً في قائمةٍ بخطِّ يدِ لاورا الأنيق: حليب، مَندرين، معجون أسنان، فُوَط. جلستُ على الأريكةِ مُحاطَةً بأجسادٍ صغيرة،

ورُحتُ أقرأ كتابًا مُصوَّرًا أُعطيتُه. كانَ الرّضيع لا يزالُ غيرَ قادرٍ على الكلام، ولكنَّ البقيّة كُنَّ يتكلّمنَ بكلماتٍ بعضُها خاطئ وبعضُها مُختَلَق. ضغطَت ڤيولِت على ذراعي وحشرَت وجهها في صدري.

– «أستطيع سماع نبضِكِ!».

– «سماع ماذا؟»

فأشارَت إلى موضع الشرايين في ذراعي مُوضِّحَة.

– «لم ألتقِ قطُّ بأحدٍ يخافُ من الماء»، قالَ روجَر.

تردّدتُ في الجواب. ائتُمنتُ على معلوماتٍ تخصُّهُم، لا يعرفُها أحد. وقد بدا لي من الإجحاف الامتناع عن إخباره بشيء. فالمعلومات قد صارَت عندهُم موضوع مُقايضة.

– «ليسَ خوفًا مرَضِيًّا. ولكنّي أتجنّبُ الماءَ كُلّما استطَعت. أخالهُ أمرًا يتعلّق بمكانِ سُكنايَ في طفولتي. كما تعرف، على النّهر، حيث...».

– «حيث ذهَبَت مارغُت».

– «نعم. أتذكَّرُ بعضَ الأحداث. جُلُّها عن أمّي. وبعضُها عن القناة، وعن اليومَ الذي وصلَ فيهِ ماركُس، مارغُت. ولكن كُلّ ما سوى ذلكَ مُسِحَ من عقلي. هل مررتَ قطُّ بمثل هذه الحالة، حالَة المَسح؟».

ندَّت عنه ضِحكة خافتة.

– «سامِحني. إنَّ أجزاء كبيرة من ذاكرتي ممسوحة، أو قُل مكنونة في مكانٍ ما. أحاولُ أن أتذكَّرَها ولكن بلا جدوى».

– «هذا غريب».

– «بيد أنّي أتذكَّرُ خاتمتها».

– «خاتمتها؟»، قالَ رافعًا أنفهُ إلى الأعلى قليلًا. كانَ وجهه مختلفًا تمامًا عن وجهِ ماركُس، وفمُهُ وحاجباهُ أرفَع أيضًا.

– «أتذكَّرُ الأشياءَ التي قُلتُها أو فعلتُها»، قُلتُ موضِّحَة. «المشكلات التي نبَعَت من ذلكَ المكان. وأخالُ الخوفَ من الماء إحدى تلك المُشكلات. أعتقد، في الحقيقة، بأنَّ شيئًا ما حدثَ في النّهر. ربّما. لستُ متأكّدة».

– «يجدُر بكِ أن تَصحبينا إلى البِركة. علَّكِ تُحفّزينَ ذاكرتكِ هُناك».

- «تعني أنّني قد أتذكَّر؟».

- «ربّما، لا تدرين ما قد يحدث».

وضعتُ قدَميَّ على بلاط المطبخ، وكانَ بارِدًا قليلًا.

- «أنت تعرف الآنَ إلى أينَ ذهَبَت يومَ رَحلَت»، قُلت. «فلِمَ لا تذهبُ إلى هُناك؟ لترى ما إذا كانت لا تزالُ موجودةً ثَمَّ أم لا. ولترى، وإن كانت غيرَ موجودة هُناك، المكانَ الذي ذهبَت إليه؟».

أبعدَ فنجانهُ على الطاولة، ثُمَّ قرّبَهُ منه ثانيةً.

- «سبَقَ وتحدّثنا بخصوص ذلك»، قال. «وكان رأيُ لاورا أن نذهب، بخاصّةٍ أنّ لدينا ثُلّة من الأصدقاء الذين لا يمانعونَ الاعتناء بالأطفال فترةَ غيابِنا. تظنُّ لاورا أنّنا قد نجِدُها هناك، تجلسُ مُنتظرةً وصولنا، في نفس سِنِّها يوم رحَلَت، ونفسِ جِنسِها تمامًا، كأنَّها...»، بدا مُجاهِدًا للعثور على الكلمة المناسبة. «مُتبلوِرَة».

- «يجبُ أن تذهبا»، قُلتُ دافعةً نفسي عن الكُرسيِّ حتّى أوشَكتُ على الوقوف. «لقد بحثتُ عن المكان في الخريطة. وهوَ ليسَ بعيدًا من هُنا. ليسَ بعيدًا أبدًا. وحتّى لو لم تجِدها هُناك، فستتسنّى لكَ رؤية المكان. ربّما ستفهَمُ الأمرَ أكثر. وستجِدُ خاتمةً ما، أو عزاء».

تساءلتُ عمّا إذا كُنت متحمّسةً لذهابِهما لأنّني سأكونُ قد ساعدتُهُما أم لأنّني سأكونُ قد أرسلتُهما إلى هُناكَ بدلًا منّي، وربّما يجِدانِكُما معًا، أنتِ وماركُس، ويُعيداكُما. تمنّيتُ أن يكونَ السببُ هوَ الأوّل، ولكنّي لم أكن متيقّنة. لا أخالُ الإيثارَ فضيلةً قد تنبعُ من حياةٍ كالحياةِ التي عِشتُها.

- «أنتِ لا تفهمين»، قالَ روجَر. «سبقَ وتحدّثنا في هذا الأمر، ولكنَّ مارغُت إن كانت تُريدُ أن تعودَ إلينا، فلِمَ لم تفعل حتّى الآن؟ طالما كُنّا في انتظارِها. فأينَ هي؟ إنَّ امتناعها عن العودة إلى المنزل يدُلُّ على شيء. على أنّها الآن تحظى بحياةٍ جديدة، أو أنّها مَيْتة. وفي كلا الحالين، سنظلُّ هُنا مُنتظرين عودتَها إن شاءَت، وامتناعُنا عن الانتقالِ من هذا المنزل هوَ حِرصٌ منّا على أن تجِدَنا حين تعود». حدَّقَ إليّ قليلًا. «يجبُ أن تفهمي. وأنتِ، لِمَ لم تبحثي عن أمِّكِ من قبل؟».

– «بل بحثت».
– «ولكنّكِ توقّفتِ؟».
– «نعم».
– «لماذا؟».
– «الذاتِ سببكُما. لم يكُن الهَجْرُ لزامًا عليها. بل هيَ من رغِبَت به. أخالهُ طالما كانَ في دمِها. ولكنّي أخالُها الآن راغبةً في أن أعثرَ عليها».
– «حسنٌ إذًا. فلنذهب إلى البِركة معًا. ليسَ عليكِ أن تسبحي فيها إن لم تشائي ذلك. يُمكنك أن تكتفي بالوقوف على طرفِها. وسيُعينُكِ ذلكَ بلا شكّ».

خِلتُني سأجادلُه كي لا أذهب، ولكن حينَ بدأ كُلّ واحدٍ يحزم أمتعته – مُرتديًا حذاءَ البِركة ومُعِدًّا حقيبتَه– انضممتُ إليهم. بدا الأمرُ أفضل هكذا. كانوا أشبهَ بجيش، فصِرتُ –فجأةً ومن غيرِ مقدّمات– جُنديًّا فيه. انبثقَتَ فيَّ –من الفراغ، كإحساسٍ طاغٍ حدَّ الألم– رغبةُ الانضواء تحتَ جناحِ عائلة، عائلة كبيرة لا تتسعُ لها سيّارة عاديّة، عائلةٍ لا تتسعُ لها سوى حافلة كبيرة، فيصحبونني معهُم أينما ذهبوا.

عند بِركة السباحة، تجمهرَ حشدٌ عند آلة البيع، فذهبتُ إلى حُجرة تبديل الملابس وحدي. كانت الساعةُ الثانية ظُهرًا، والحُجرة شِبه خالية. كانت هُناكَ امرأةٌ عارية تغتسل. ربّما، حينَ تكبُرُ سنّي، تصيرُ هذه النشاطات هواياتٍ عندي، عادات، وتصيرُ هذه حياتي المُريحة. لم تكُن في حُجرة الملابس مقصورات منفصلة. وجدتُ حيّزًا فارغًا، فاحتللتُهُ وبدأت أبدّل ملابسي. ألفيتُ ثوبَ السباحة الذي استعَرتهُ من لاورا ضيّقًا عندَ وَرِكَيَّ ومؤخّرتي. كُنت قد سمِنْت. نظرتُ إلى جُزئي السفليّ، فأدركتُ أنّي صِرتُ أشبهُكِ. لستُ واثقةً من الإحساس الذي اعتراني لحظةَ أدركتُ ذلك. كأنّي كُلّما اقتربتُ أكثرَ من العثورِ عليكِ، صِرتُكِ أكثر. دخَلَت لاورا برفقةِ الأطفال كلّهِم.
– «غْرِتِل، غْرِتِل!»، قالت فيولِت. «لا يسمح لكِ بالدخول إلى هنا إلّا إذا اغتسلتِ».

– «الحقُّ أنّي لن أغتسل».
– «أبدًا؟».
– «ليسَ أبدًا!».

كانا قد أوكلا إليّ مهمّة رعاية الرّضيع، ولكنّهُ بدا كأنّهُ يعرف أنّي لن أرعاهُ حقًّا، فانفجرَ باكيًا حتّى استحالَ لونهُ أرجوانيًّا، ثُمَّ قاءَ على ثوبي.

– «الآن ستغتسلين»، قالَت ڤيولِت، فرِحَةً بنفسِها!.

كان الأوانُ قد فات، ولم أعُد قادرةً على الرجوع. في المرآة الطويلة المُجاورة للبِركة أبصرتُ نفسي، غَبِشَةً، بوجهٍ هوَ دائرةٌ بيضاء، وساقَينِ غامِضَتين. لفحَ الكلور في الجوِّ مؤخّرةَ حلقي. لم أدرِ لِمَ جئتُ إلى هُناك. رأيتُ انعكاسَ السلالم المُفضية إلى منصّة القفز في الماء، وكانت ڤيولِت قد ارتقت السلالم حتّى بلغَت منتصفَها: صغيرةَ الرأس، دقيقة الأطراف كذُبابة، وعليها ثوبُ سباحةٍ أخضر ناضِر. ناداها روجَر. وكانت لاورا سابحةً في الجُزء الضّحل من البِركة برفقة الرّضيع. اضطربَ السّطحُ حتّى وقعَ بينَ يديّ، وتشقّقَت النوافذ صارخةً، وأمكنني سماعُ المُصَرِّف القريب من قارِبنا يَهدُر، والأقفالِ تنفتحُ وتنغلِق. وأمكنتني رؤيتُكِ أنتِ على سطح القارب، رافعةً ذراعَيكِ صوبَ السماء رغمَ عدمِ وجودِ الطائرة الورقيّة، فاغرةً فمكِ تصرُخين، ولكنّ الكلمات التي صرختِ بها اختُطِفَت وتاهَت قبلَ وصولِها إليّ.

لم أرَ ڤيولِت إذ تسقُط، ولكنّي سمعتُ صوتَ تناثُر الماء إذ سقَطَت. رأيتُها لطخةً خضراء تحت سطح الماء. وفي الجانب الآخر من البِركة رأيتُ المُنقذةَ الشقراء مُقبلةً تعدو. وضعتُ أصابعَ قدَميَّ على حافّة البِركة وخِلتُني رأيتُ شيئًا ما في قاعِها، أسفلَ الدّرجات الحديديّة في زاويتِها. تقدّمتُ خُطوة، فسَقَطْت.

ألفيتُ الماءَ أبرَدَ ممّا ظننت، وڤيولِت أسفل منّي، تُصارع الغرق لا تزال. غُصتُ صوبَها، فاتحةً عينيَّ رغمًا عنهُما في الكلور. أحسستُ بحركةٍ عند الدّرجات الحديديّة. ولمّا نظرتُ إلى هُناك، رأيتُ بوناك مُقبِلًا صوبي، ضاغطًا بجسمِهِ على بلاط البِركة كي يدفعَ نفسه، وساقاهُ مضمومتانِ في

بطنِه. بدا حَلقُهُ باهتًا ومُثقَلًا، وذيلُهُ مُتأرجِحًا كرقّاص الساعة خلفَه. بدا مخلوقًا ما قبلَ تاريخيّ، متحجّرَ الظّهر، مُوشّى بالذّهب، كلما التمعَ شيءٌ أبيض أسفلَه أقبلَ بوجههِ الطويلِ الأرعن إلينا.

أمسكتُ ڤيولِت من أحزمةِ ثوبِها، وثنَيتُ رُكبتَيّ، ودفعتُنا كِلتَينا بكِلتَي قدميّ. بدا السّطحُ بعيدًا للغاية. أمكنتني رؤية الواقفين عند البركة بهيئاتٍ متكسّرة، وألوان ملابسِهِم، وحركات أيديهم. لفحَ الهواء رئَتَيّ. وراحَت ڤيولِت تسعُل، وتتخبّط. قابضةً على أنفي بيدِها. لَوَّن الدّمُ الماء. فقد كانَ أحدهُم يرفعُني إلى أعلى، فجرَحَت حافّة البِركةِ جِلدةَ رأسي. تسلّلت الضوضاء إلى أذنيّ شيئًا فشيئًا، فلم أتبيَّن أنَّ الرّضيع كانَ يصرخُ باكيًا ولاورا كانت تصيح إلّا حينَ استقمتُ واقفة. نظرتُ إلى جوفِ الماء باحثةً عن المخلوق الذي نسيتُ ما هو، علّني أراهُ جاثمًا عند الدّرجات أو مختبئًا في القاع، صاعِدًا، جارًّا نفسهُ صوبَ المنطقة الضّحلة، دانيًا منّا أكثر.

(4)

طَقْ، طَقْ. أنا الذئب!

الكوخ

أُدرِكُ أنّي سأُجَنُّ ما لَم أعمل، وأنَّ من الأفضل لنا أن نُقيم نمط حياة، وألّا نستمرَّ في العيشِ هكذا أبدًا، فأخبرُكِ بأنّنا -لمدّة ساعةٍ كُلّ صباح- يجبُ أن نلزم الهدوء.

«الهدوء؟» تقولين، كأنّكِ لم تسمعي بهذه الكلمة قطّ.

«نعم» أقولُ لكِ، «الصّمت. يجبُ أن نحظى بالصّمت بعضَ يومِنا. يُمكنكِ أن تجلسي برفقتي في حُجرة الجلوس، ولكنّي سأكون منشغلةً بالعمل، ولذلكَ يجبُ أن تجلسي هادئة. صامتة. يجب أن تجلسي بصَمت».

تُميلين رأسَكِ إلى جهة: «العَمَل؟ كيف وأنتِ لم تتجاوزي الثالثة عشرة بَعد يا غْرِتِل؟»، تقولينَ بثقةٍ أخرَسَتني عن الردّ، فما فعلتُ إلّا أن رفَعتُ سبّابتي إنذارًا، فالتفتِّ عنّي مُستريحةً في كُرسيِّكِ، مُغمِضَةً عينيكِ.

أُرسِلُ إيميلًا إلى جِنِفَر فترُدُّ عليّ فورًا، تُخبرُني أنّها سعيدةٌ جدًّا بعودَتي. تُعطيني كلمة. سهلة للغاية: استثنائيّ. أُعِدُّ لنا غلّاية قهوة، وأصُبُّ لكِ فنجانًا وأضعُهُ قُربَ كُرسيِّكِ، وأعودُ لأجلسَ إلى المكتب. يسودُ -لأوّل مرّة منذ أسبوع- هدوء. أغمسُ رأسي في أوراقي، حريصةً على ألّا أنظُرَ إليكِ. أحسُّ بكِ تُحدّقين إليّ. أُخرِجُ بطاقاتي الهجائيّة: البيضاء للاقتباسات، والزرقاء لأصول الكلمات، والصفراء للتعريفات المُسَوَّدة. أحتسي بعضَ القهوة.

***

حينَ بدأت أعملُ على القاموس، كُنت يافعةً ولا أزالُ أفكِّرُ فيكِ جُلّ الوقت. كُنتِ فِيَّ آنذاك، ولكن رُحتِ تتلاشين كُلّما كبُرت. كُنت حين أفتح فمي أنطقُ بجُمَلٍ لم أكُن لأنطقَ بها لولا ترعرُعي معكِ. أنتِ صنَعتِني، وأنا

لم أرغب بشيءٍ رغبَتي بانتزاعِكِ منّي، باستئصالِ شأفتِكِ منّي كما فعلَ آلزهايمَر بالقِطعةِ من دماغِكِ في حجمِ برتقالة. أنتِ احتَلَلتِني، وكوَّنتِ طرائقَ تفكيري. كُنت أذهبُ إلى العمل، وأجلسُ إلى مكتبي ذاته كُلّ يوم، حالمةً بمخلوق يسبحُ في نهرِ إيزيس، حالمةً في فمِكِ ينبِسُ بكلماتٍ لم يعُد بمقدوري سماعُها. وكُنتُ أذهبُ إلى ذات المحلّ لأبتاع شطيرةً كُلّ ساعة غداء، حتّى أدركتُ بغتةً -وأنا واقفةٌ في صفّ الانتظار ذات يوم- ماذا صنعتِ بخَلقِكِ لُغتكِ العتيقة الخاصّة تلك وتعليمِها إيّاي. صَيَّرتِنا غريبَتين. صيَّرتِنا كآخِر شخصينِ على وجه البسيطة. فإذا كانت اللغةُ هيَ المُحدّدةُ لطرائقِ تفكيرِنا، فلن أتمكّنَ أبدًا من أن أصيرَ غيري. وإنَّ اللغة التي نشأتُ عليها، كانت لُغةً غريبةً لا ينطق بِها أحد سوانا. لذا، كانَت الغُربة ستكونُ قدَري، والعُزلةُ، والوَحدة في حضرةِ الآخرين. كانَ ذلكَ القَدَر الذي ستُحتّمهُ عليَّ لُغَتي، بل اللّغة التي علَّمتِنيها.

لم أُنجِز أيَّ تقدُّم بخصوص كلمة «استثنائيّ»، إلّا ترتيب بطاقات الهجائيّة. تُخبرُني الساعة الصّغيرة على الطاولة بأنَّ ساعَتين قد مرَّتا. أريدُ -فجأةً- أن أخبرَكِ بأنّي ما عُدتُ أومِنُ بذلكَ، بما كُنت أومِنُ بِهِ ساعةَ كُنت واقفةً في صفّ الانتظار ذاك. لم أعُد أومِن بأنَّ اللغة تنخُرُ في الدّماغ وأنّي على ما أنا عليه بسببِ اللغة التي أعطيتِنيها. لا شيءَ مُحتَّمٌ علينا. غيرَ أنّي حينَ ألتفتُ لأنظُرَ إليكِ أجِدُ كُرسيَّكِ خاليًا. كان يجدرُ بي أن أعرفَ ذلك، وألّا أنسى اختفاءكِ السابقَ في المكتب، وهَجْرَكِ في تلكِ الحافلة. أبحثُ عنكِ في الطابق العلويّ، فأجِدُ صنبورَ الماءِ الساخن في حوضِ الاستحمام مفتوحًا، ولكن سدّادة الحوض غير مثبّتة، وأنتِ لستِ هُناك. أُغلِقُ الصّنبور. أجِدُكِ قد فتحتِ كُلّ نوافذ الطابق العلويّ، فانجرفَ إلى داخلِ المنزلِ غُبارُ أرضِ الحقولِ الجافّة. نظَرتُ من نافذةِ حُجرة نومِكِ، فرأيتُكِ، صاعدةً التلّةَ في اتجاهٍ نقصِدُهُ أحيانًا، سائرةً بحزمٍ، مؤرجحةً ذراعَيكِ جيئةً وذهابًا. أهبطُ السلالم إلى الطابق السفليّ، وأخرجُ صوبَ السياج الحجريّ، وأهتفُ باسمِكِ. تلوّحينَ لي بيدِكِ مُنصرفةً بوجهِكِ عنّي، من غيرِ أن تتوقّفي أو ترجِعي.

- «إلى أينَ أنتِ ذاهبة»، أهتِف. فلا تتوقّفين. لقد أمضيتُ حياتي أطارِدُكِ.

كِدتُ أعودُ أدراجي إلى داخلِ البيت، وأجلس إلى الطاولة المُسالِمة وأستأنف عملي. «توقّفي!» هتَفتُ، مُتجاوزةً السياجَ وسائرةً صوبَكِ. الجوُّ حارٌّ وغيرُ ملائمٍ للمُطاردة. تصِلين إلى قمّة التلّة قبلي، وتتوقّفينَ واضعةً يديكِ على رُكبتيكِ. تلتمعُ في ذهني فِكرةٌ رهيبةٌ مُتسلّلةٌ لا يجدُرُ بأحدٍ أن يطّلعَ عليها: كم سيسهُلُ الأمرُ عليَّ لو أنّكِ تُصابينَ بسكتةٍ قلبيّة. ولكنّكِ ترتاحينَ للحظةٍ، ثُمَّ تستأنفينَ مسيرَكِ في خطٍّ متعرّج. أسلُكُ طريقَ الحقولِ المختصرة كي ألحقَ بكِ. لا بُدَّ أنّهُ الماءُ يناديكِ. اعتلى كتِفَيَّ ظلُّ غيمةٍ عابرة. أصِلُ إليكِ عندَ جدوَلٍ متعرّجٍ، وشِبهِ جافّ، إذ تغترفينَ منه غُرُفاتٍ وتلطُمينَ بها وجهكِ. أجلسُ لاهثةً حذاءَكِ.

- «ماذا تفعلين؟ لِمَ فَرَرتِ منّي؟».

- «كنت منزعجة من سخونة الجوّ»، تقولينَ بنبرتِكِ المُنكِرةِ عليَّ أيَّ عِتاب. أنحني بجانبكِ إلى الماء، وأغترفُ منه غُرفة. يبدو مذاقهُ كالحديد، أو كالمصانِع، أو كالأنابيب. أنظُرُ إليكِ، فألفي على مُحيّاكِ سَمتًا غريبًا - سمتَ معرفةٍ، وتأمُّلٍ حذِرٍ، أشبهَ بالسّمتِ البهيميّ، كقطّةٍ شاردةٍ قادَها الدربُ إلى جوارِنا على النّهر فمكثَت قليلًا حتّى رحَلَت بسُرعةٍ مثلما جاءت.

النَّهر

باتَت مُواصلة المسيرِ وحدَها غايةً في الأهميّة. مرَّ ماركُس بكُلِّ البلدات، فلم يبقَ بعدها شيء. ومرَّ يومٌ كامِلٌ من غير أن يتناولَ فيهِ طعامًا. وحينَ حلُمَ بالطّعام، لم يحلُم بمائدةٍ فاخرة: بل بشرائح خُبز، وبعض كيكة. لم تكن حالُهُ على ما يُرام. صنعَ صندوقًا حديديًا في رأسِه، ووضعَ فيهِ كُلّ الخُبز، وأبَويهِ وعلامات نظّارَتيهما بائنة على عِرنينَيهِما، وتشارلي الذي اعتنى بهِ قبلَ مقتَلِه، وفمَ فيونا الذي نطقَ بتلك الكلمات الرّهيبةِ المُرعِبة.

لم تنقطِع آثارُ لصِّ القناة. فظلّت القططُ والكلابُ تضيعُ في الليل، وأيضًا السّمكُ من الشِّباك والغنَمُ من القُطعان الصّغيرةِ البريّةِ المُستوطِنةِ ضفاف النّهر. ألفى ماركُس بعضَ القوارب التي مرَّ بِها في طورِ الصيانة: فيها ألواح خشبيّة مثبّتة بمسامير إلى النوافذ، وقناني مكسورة مُعلّقة فوقَ الأبواب كنظامِ حماية. تبِعَتهُ امرأةٌ لِعشر خطواتٍ مُلِحّةً عليهِ أن يُحاذر: «حاذِر أرجوك!»، ولمّا التفتَ، مذعورًا، متعثّرًا، ناولَته سكّينًا وألحّت عليهِ أن يحتفظ بها.

ولمّا غابت عن ناظِرَيه، دسَّ السّكين في حقيبتِه دونَ أن يُحسَّ بأنّهُ بات آمنًا بصُحبتِها. أحسَّ فقط بأنّهُ صارَ يبدو أشبهَ بشخصٍ قتلَ رجُلًا. وظلَّ، سائر اليوم، يُحسُّ بالمَيْتِ يُطارِدُه ويقتفي أثرهُ ببطء مُرهِفًا السّمع إلى وقع خُطاه كونَهُ أعمى البصَر. أرادَ ماركُس أن يلتفتَ إليهِ ويُخبرهُ بأنّهُ لم يتعمّدَ قتلَه، وأنَّ ما حدثَ كان محضَ خطأ. أراد أن يغطس في الماء حيثُ قد يجِدُ الراحة والهُدوء. إلّا أنَّ المَيْت كانَ في قلب الماء، بأصابعه الطويلة وعينيهِ الجاحِظَتين. واصَلَ الفتى مسيره. وكان النّهر متعرّجًا وجامِحًا.

أفضى بِهِ الدّربُ إلى فسحةِ أجمات: فيها أكياسُ قمامة، وأريكة مُلقاة، وثلّاجة مستلقية على جنبِها. ووراءَها أشجارٌ قائمةُ الجذوع. وكانَ النهارُ قد انتصَف. أقعى الفتى، نافِرًا، قبالةَ بعضِ أكياس القمامة ليرى ما إذا كانَ فيها شيءٌ يؤكَل، إلّا أنَّ الرائحةَ أرغمتهُ على تركِها. إلى اليسار، ألفى مُصَرِّفًا يجري فيهِ الماءُ بسُرعةٍ وقوّة. كما ألفى علامةً على الحاجز الخشبيّ، ولكنّها كانت قديمةً وباهتة، مكتوبٌ عليها: 'دا ج'. لم يعرف معنى ذلك، ولم يكترث. كانت الأرضُ المفتوحة أمامهُ كفيلة بإبعادِهِ عن النَهر أكثرَ مما فعلَ في الأيام، بل الأسابيع الفائتة. ضربَ رأسهُ بقبضتِهِ كي يوقظَ نفسَه. كانَ يتصوّر جوعًا لدرجةِ أنّهُ حينَ بدأ يمشي، تراءت أمامهُ أضواء بيضاء تأتي وتذهب. (لن أفكِّرَ في الرّجُل المَيْت)، فكَّر. (لن أفكِّرَ فيه!). وضربَ رأسَهُ بقبضتِهِ ثانيةً.

أسقطَ حقيبتهُ وسارَ بينَ الأشجار. انحنى إلى الأمام، مُراقِبًا. ألفى أمامهُ، على مبعدةٍ بضع خطوات، عناقيد عنب، فحشرَ بعضَها في فمه، ثُمَّ أوقفَها على بابِ حلقِهِ، وبصَقَها. راحَ يحفُرُ عند قواعدِ بعض الأشجار، لا يدري عمَّ يبحث، بل يدري فقط أنّهُ يجبُ أن يجِدَ شيئًا. (لن أستطيع المشيَ أكثر)، فكَّر. (لن أستطيع المشيَ أكثر). ولمّا نظرَ إلى أعلى، اعتراهُ إحساسُ راحةٍ طاغٍ. قرّرَ أن يتوقّفَ ليومٍ واحدٍ فقط. قرّرَ أن ينامَ، وينام.

أقام خيمتَه، وجلس في بابِها يخلع نعلَيه وجَوربَيه. ألفى جِلدَه متقرّحًا، وشَمَّ رائحة نَتَن. لم يكترث. فقد كانَ مُضنى، لدرجة أنّه لم يعُد يميّز بين أجزاءِ جسمِه. غفا ومالَ حتّى أوشكَ على الاستلقاء، ثُمَّ استقامَ جالسًا -بغتةً- شاعِرًا بقدميهِ البارِدَتين، ورفع رأسهُ عن صدره بقوّة. فتحَ حقيبته وفتّشَها، فعثرَ على بعضِ فُتاتِ الخُبز، فالتهمها بسُرعة. عادَ ليغفو قليلًا. باغَتتهُ، من وراءِ جَفنَيه، أحلامٌ أبصَرَ فيها الرجل الميْت، ويَديهِ قد استحالتا إلى قارب، ذلكَ القارب، وشَمَّ فيها رائحةَ لحمِ الضَّأن النّتنة. قرّب الرّجُل المَيْت إحدى عينيهِ المتّقدَتين من عينِ الفتى، ولمّا رمَشَت استيقظَ ماركُس فَزِعًا يتخبّط.

ألفى فتاةً مُقعيةً على مقرُبة. رأسُها مُطلٌّ كغُراب، وجَورباها الطويلان الورديّان مُلطّخان بالوحل، وأصابعُها مغروزة في التّربة، وعيناها لا تطرِفان. هتفَ بها، مُتراجعًا إلى خيمتِه.

استقامَت الفتاة واقفة، ومسحَت يديها بجوربَيها. كانت ثيابُها صغيرةً عليها، وتبدو فيها خطوطُ تفسُّخ عند المِعصَمين والكاحِلَين. وكانَ فمُها مفتوحًا على مصراعيه. ووراءَها تمامًا حقيبةُ الفتى التي كانت قد جرَّتها وفتحَتها ونهَبَتها. ولمّا أقبلَت دانيةً منه، انتبه إلى أنّها تحملُ الكِتابَ الذي سرقَهُ من قارب الرجُل المَيْت حينَ غادَرَه.

– «لن يستهويكِ»، قال لها بصوتٍ عالٍ لدرجةِ أنَّ الأشجارَ حولَه ردّدَت صداه.

لوّحَت بالكتاب، وقطّبَت حاجِبَيها. كانَ وجهُها مُربّعًا تقريبًا، وحاجِباها يكادانِ يلتقيانِ في خطٍّ طويلٍ عابِس. لم يدرِ الفتى ما يفعَل. كوَّرَ لِحافَ نومِه، وزرّرَ مِعطَفه، وانتعلَ حذاءه. رغِبَ كثيرًا في ألّا ينهضَ ويمشي، بل في أن يظلَّ جالسًا، نائمًا، من غيرِ حراكٍ أبدًا. عطسَت الفتاةُ ومسحَت أنفَها بيدِها، ودنَت منهُ بضع خطوات حتّى صارَت قريبةً منه للغاية، مادّةً إليه شيئًا. رغيفَ خُبز. غمرَت مُحيّاه موجةُ فرحٍ مُضطرب. حشَرَ الرّغيفَ في فمه بسُرعة حتّى كادَ يختنِق، وراح يمضغهُ بصعوبة. رفَعَت الفتاة الكِتاب، كأنّها عقدَت معه صفقةً من غيرِ أن ينتبه إليها أو يوافقَ عليها.

جلسا على الأرض قبالةَ الخيمة. كانت الفتاة مُغطّاةً بتُرابٍ خفيف، كأنّها استُخرِجَت من قلبِ التّربة. كان ثمّتَ سمتٌ يعتريها، سمتُ جذرٍ أو بُصيلة: في رُكبتيها المُكوَّرَتين، وأطرافِها البارزة من ثيابِها. حكَّت خُصلات شعرِها المتكتّلة وراءَ أذنيها بإحدى يديها. وكانَ جَيباها مُنتفخَين على جنبَيها.

فتح الفتى الكِتاب، وشرعَ يقرأ لها منه. كان الخطّ صغيرًا وصعبَ القراءة. وهو لم يعرف كثيرًا من الكلمات في الصّفحة. وفضلًا عن غرابةِ الألغاز، كانت ثمّت رسومات مبرومة لمخلوقاتٍ شائهة الخِلقَة، رؤوسُها رؤوسُ حيواناتٍ معيّنة، وأجسادُها أجسادُ حيواناتٍ أخرى. وفي إحدى الرّسومات، رأى الحظيرةَ التي كانت جُزءًا من اللّغز الذي طرحهُ عليهِ الرجل المَيْت في أوّل لقاءٍ بينهُما.

– «لن يستهويكِ»، قالَ ثانيةً. «ولكنّي سأقرأهُ لكِ إن أحببتِ. إن كان معكِ مزيدٌ من الخبز؟». لَم تُجِبه.

- «لا أخالُهُ سيستهويكِ»، قال. مُدرِكًا أنّهُ لا يُريدُها أن ترحل.

إلّا أنَّ الكتاب استهواها. وراحَ فمُها يلوكُ كلماتِه، وراحَت هيَ تُشيرُ إلى بعضِها، مُطالِبَةً: «أعِد هذه مرّة أخرى». فيُعيدُ قراءتَها ببطءٍ، وارتباك. كانَ غالبًا لا يُحسِنُ لفظَ كلماتٍ تلفِظُها هيَ بإتقان ويُسر مُنحنيةً إليها وضاغطةً عليها بإصبعها الملطّخ بالوحل. بدت الكلماتُ سهلةً وطريّةً في فمِها، كأنّها هيَ من تختلِقُها. و كانت في كُلّ مرّةٍ تنظُرُ إليه، مُبتهجةً للغاية، ثانيةً فمَها العريضَ ومُبديةً بعضَ أسنانِها الصّفراء. *ما الشيء الذي يُمكنه السّفر حول العالم بينما هوَ قابعٌ في زاويةٍ واحدة؟ كُلّما أخذتَ، تركْت.*

في منتصفِ أحد الألغاز، نهضت الفتاة، فرآها الفتى تبتعدُ مُسرعة مؤرجِحةً ذراعيها بينما تَعْدو. ولمّا استعادَ حقيبتهُ من المكان الذي كانت قد جرَّتها إليه، اكتشفَ ما كانت قد سرَقَته: ملابس تحتيّة، وكيسَ خبزٍ فارغ، وقميصين. كما ألفى صفحةً قد انتُزِعَت من كتاب الألغاز.

عادَ إلى خيمتِه خائبًا، ووضع رأسهُ على الأرضِ الصّلبة. تحسَّر على ما أضاع، على ما تَرَك، على ما اقترَف. أحسَّ بوالِدَيه، في مكانٍ ما قُرب النّهر. كانا يبحثانِ عنه، أو لا يبحثان. كانا عند طاولة المطبخ المستديرة، يشربان من كوبَين أو يُقلّبان في صحيفة أو يُشرعان البابَ الرّئيس إذ يوشِكان على الخروج. أرادهُما، من كُل قلبه، أن يعثرا عليه. أراد أن يُخبرهُما بسببِ رحيله، بسببِ فَعلتِه. كان الأمرُ سيكون على ما يُرام حينئذٍ، إن هُما تفهّما. وكانَ كُلٌّ سينسحبُ من عالَم الآخر بهدوءٍ، فلا يُفكِّرَ طرفٌ بالآخرِ أبدًا. كانا يجلسانِ إلى طاولة المطبخ المُستديرة، والرّجل المَيْت معهُما، ينظرونَ إليه.

كانت الفظائع التي تنبّأت فيونا بأنّهُ سيقترفُها مُحاكَةً حولَه، وحولَ خيمتِه. وكانت في لونِ الجِلد، جافّةً وحرشفيّة. زحَفَت على صدرِه، واقتحمَت فمه، فانتفخَت وجنتاهُ إذ يُصارعُ ألّا يبوحَ بها. ألّا يبوحَ بما تنبَّأت فيونا أنّهُ سيفعلهُ بأبيه. وبأمّه (معَ أمّه). استيقظَ ماركُس وهوَ يسحُّ عرقًا، وانتصبَ واقفًا.

المُطاردة

ابتعتُ قنّينة نبيذ، ومرَّرتُها بسريَّةٍ من جانب المنزل إلى السّقيفة. شقّت فيونا الباب بما يكفي فقط كي أرى خيطًا من وجهها.

- «تذكّرتُ أمرًا»، قُلت لها. فأدخلَتني. شربنا النّبيذ في أكوابِ الشاي، كوبًا في إثر كوب. وظلَّت هيَ مُقفِلةً شفتيها، مُدلّكةً بطنَها بإحدى يديها.

كُنتُ، في طريقِ العودة من بِركة السباحة، قد بدأت أتذكّرُ أكثرَ وأكثر، حتّى استحالَ الغَيضُ إلى فَيض. لم تختفِ الفجوات –وقد كانت في مثل أحجامِ أنفاق القطارات– ولكن صارَ هُناك شكلٌ، وبانَت القصّة.

- «حسنٌ»، قالَت بينما تحتسي النّبيذ بنَهَمٍ مُصدرةً صوتًا. «هيّا أخبريني حالًا».

- «لا أخالُكِ قادرةً على فهم ما سأقوله».

وضعَت كوبَها على الأرضيّةِ بحِدّةٍ، ورفعَت ساقَيها إلى السّرير وأراحَتهُما. أمكَنني سماعُ عبثِ أوتو في الخارج، وضجيجِ التلفاز من منزلٍ قريب.

- «أتعرفين،» قالَت. «كُنت فتى حينَ أبصرتُ –لأوّل مرّةٍ– شبحًا، بينما كُنت أشاهدُ خَصيَ الثّيران في مزرعةِ والِدَيّ. لم يكُن مسموحًا لأخواتي حضُور ذلكَ المشهد، ولكنّ أبي اصطحبَني أنا الفتى معه. وطالما تساءلتُ لِمَ فعلَ ذلك. كُنت فتى خجولًا لدرجةِ أنّي كُنت بالكادِ أجرؤ على طلب الملح على المائدة. كانَ الرّجلان اللذان قاما بالخَصْيِ قد قدِما من البلدة. وكانَت الثيران فَتِيَّة ومذعورة، فدبَّت فيَّ قوّة غريبةٌ لأشاهدهُم. أخصى الرّجلانِ عشرينَ ثورًا كُلّ ساعة. أمسكَ أبي بيدي وقرّبني من المشهدِ كي أرى ما يقطعُهُ الرّجلان بالضّبط. فبدا لي ما يقطعونهُ أشبَه بنبتةٍ غريبة».

حملَت كوبَها عن الأرضيّة، ورفعَتهُ كَنَخب.

- «ولمّا انصرفتُ بنظري عن كومةِ الخِصى المقطوعة، رأيتُ أحدًا ما واقفًا في زاوية المزرعة تحتَ إحدى بيوت القشّ. كانَ ذلكَ أنا، ولكن في جسدِ امرأة. وقد كانت تلكَ أوّل مرّة أطَّلعُ فيها على الغيبِ قبل أن يتحقّق».

أتت على ما بقيَ في الكوب فأفرغتهُ في جوفِها، ونكزَتني كي أمرّرَ لها القنّينة. تسلّلت رائحتي إلى أنفي -لحظة تحرَّكْتُ- فإذا بها خليطٌ من الكلور والعرق.

- «فهل ستُخبرينني بما تذكَّرتِ أم لا؟».

- «سأخبرُكِ»، قُلت. «تذكَّرتُ المخلوق الذي كُنّا نخشاه». تنفَّستُ نفسًا عميقًا. لم أدرِ أكانت فِكرة صائبةً إخبارُها والبوحُ بذلكَ السرِّ بصوتٍ عالٍ أم لا؟. بدا لي جنونًا البَوحُ به هُناك، في تلكَ السّقيفة الصّغيرة في مؤخّرة الحديقة.

- «كُنّا نسمّيهِ بوناك»، قُلت. «وهوَ الاسمُ الذي كُنّا نُطلقه على كُلّ ما نخشى، بيد أنّا كُنّا نخشى ذلكَ المخلوق أكثرَ من سواه. قد رأيتُه في البِركة، يسبحُ صوبي. كانَ مخلوقًا، حيوانًا. وكانَ كبيرًا. رأيتهُ في قلبِ الماء».

- «مخلوقًا؟».

- «نعم».

انتظرتُها أن تنفجرَ ضاحكة، أو أن تطرُدَني، بيدَ أنّها لم تفعل هذا ولا ذاك. أحسستُ بغتةً بتَعَب، كأنّي عدَوتُ في ماراثونٍ أو خُضت غمار البحر سابِحةً لأيّام. لم أخبرها بِما عادَ إليَّ أيضًا من ذِكريات: المصيدة، والشَّرَك، وزجاجُ كُوّة سقف القارب المُتكسّر تحتَ مِرفَقيّ.

- «وماذا حلَّ به؟»، قالَت.

تساءلتُ ما إذا كانت تُصدّقُني أم لا. لم أكُن واثقةً ما إذا كُنتُ أنا أصدّقُ نفسي أو إذا كُنتُ -عَفوًا- اختلَقْتُ شيئًا مُستحيلًا. كانت ثمَّت قوانين - *قوّةُ الجَذب الكونيّة التي تجمعُ المادّةَ كُلّها، والأكسجينُ الذي هوَ غازٌ بلا لونٍ ولا رائحةٍ ولا مذاقٍ أساسيّ لحياةِ كُلّ المخلوقات* - وكانَ ما أعرِضُهُ غيرَ

متوافق مع فهمنا لتلك القوانين. ذلكَ المخلوق الضّخم الذي يسكُن الماء، ويخطف الأطفال، ويقتُل الكِلاب. تساءلتُ -حالَ كُنتُ أتذكَّرُ ذلكَ الماضي بصورتِهِ الصّحيحة- عمّا إذا وُجِدَ ذلكَ المخلوق أصلًا أم أنّنا -بطريقةٍ أو بأخرى- مَن أوجَدناه. لم أدرِ أيُّ خَيارٍ هوَ الأسوأ.

- «أخالُ أمّي قتَلَته»، قُلت. أسندَت فيونا ظهرَها في كُرسيّها حتّى ارتفَعَت ساقاهُ الأماميّتانِ عن الأرضيّة قليلًا، وبدَت كأنّها لم تعُد تسمعُني. نظَرتُ، فرأيتُ أنّها وضَّبَت السّقيفة وتخلّصَت من كومة عُلَب الفول، ورتَّبَت السّرير. لم يخطُر لي ببالٍ أنّها -بينما كُنت أنا أستذكرُ ماضِيًّ- تستذكِرُ مِثلي ماضيها، وربّما توصَّلَت إلى قرار. رفَعَت كتِفَيها كأنّهُما مِقبضا حقيبة.

- «إنّي بحاجةٍ إلى وجبةٍ دسمة»، قالَت. «يومَ غدٍ في وقتِ الغداء. حينئذٍ، سأخبركِ بما رأيت».

النَّهر

كانت الفتاةُ ذات الجَوربين الورديَّين تُدعى غْرِتِل وايتنغ، وقد مكثَت في اليوم التالي حتّى هبوطِ الليل. اعتادَ ماركُس عليها، وعلى طريقةِ تسكُّعِها وعَدْوِها من غيرِ إنذار. ‹أينَ النار؟› كانت تقولُ وتُقهقِه. وغالبًا ما كانت تُحدّثُ نفسَها أكثر مما تُحدّثه، مُثرثِرةً. ‹جِرابيّ›، كانت تقول. ‹امتنان. زاوية الطّول›. وكانَ لديها كيسٌ بلاستيكيٌّ مُثَقَّب تُسمّيهِ كيس الطّافيات[13]، ولمّا كانت الرّيحُ تنقُلُ إلينا صوتَ النّهر قبَّت إحدى يديها ووضعتها على أذنِها وقالَت: «أتسمَع؟ أتسمعُ مسمَسَة الماء[14]».

– «لقد نسيت»، قالَت مفتّشَةً في جيوبِها، ومُخرِجةً بعضَ كَيكة. «أتُريد؟».

– «نعم»، قال. كانت الكَيكة طريّةً وإسفنجيّة، وملطّخةً بِزَيتٍ من أصابعِ الفتاة. أحسَّ ماركُس بارتياحٍ لوجودِها، فصارَ يتبعُها أينما ذهَبَت. لم يُدرِك يومًا قَدْرَ وَحدَته، وطولَ الأيّام. خشيَ أن ترحَل عنهُ يومًا، بغتة، من غيرِ إنذار. حينها، ستستحيلُ الساعاتُ إلى أعوامٍ مجدّدًا، وسيغدو خائفًا جُلّ وقتِه. كانَ شعرُها كُلّه محشورًا في عقيصةٍ شاذّة، ناتئة من ياقتِها، ما حدا بِهِ إلى الظنّ بأنّها ليست وحدَها.

– «أينَ والِداكِ؟»، سألَها.

13- الطافيات – Sprung: كلمةٌ عتيقةٌ مُختلقة أخرى، معناها المقصودُ هوَ كُلّ شيءٍ تراهُ سارة وغْرِتِل طافيًا على صفحة الماء، وما يحملهُ النّهرُ صوبَهُما.

14- مسمسة – messin: كلمةٌ عتيقةٌ مختلَقَة أخرى، معناها المقصود هوَ صخبُ ماء النّهر في الليل.

- «أمّي سيّدةُ بحر»، قالَت. «لديها زعانفُ بدلَ الرِّجلَين، وخياشيم. وهيَ تسبحُ في الماء!».

- «ماذا يعني ذلك؟».

- «يعني أنّها حوريّة».

- «تكذبين!»، قال، ولكن من غيرِ تيقُّن.

- «تعال. فلنذهب من هذا الدرب. هيَ تبدو مثلي ومثلك»، قالَت. «ولكنّها تستطيعُ التنفُّس تحت الماء، وتعرفُ كُلّ كلمة في العالم، فهيَ عالمة آثار وجرّاحة ومشهورة جدًّا. أنا أناديها ›طبيبة‹ أو ›سين‹، وهيَ تُناديني ›إل‹ أو ›هانسِل‹ ولكن لا تقولُ لي لِماذا[15]. كما تستطيعُ أن تحفُرَ الأرضَ من جهةٍ وتخرُجَ من الجهة المقابلة، وقد فعلت ذلكَ مرارًا، وأيضًا هيَ لا تنام، وتستطيعُ التهام الحيوانات بعظمِها، وتقولُ إنّها هاجِرة ولكنّها في الحقيقة باقيةٌ وطيّبة[16]». عَبّت غْرِتِل نفَسًا عميقًا، وقالت: «وأيضًا طبخُها لذيذٌ للغاية».

تبِعَها ماركُس ببطء. أمكَنَهُ سماعُ صوتِ النّهر خلفهُما. لم يكُن يثقُ في النّهر حينَ يسمعُهُ من غيرِ أن يراه. فما الذي سيمنعهُ من ارتقاءِ اليابسة كما لو كانت سُلَّمًا؟ ارتقَت غْرِتِل ثلّاجةً مُلقاةً على الأرضِ رأسًا على عقب. كانت قبّعتُها تكادُ تحجبُ عينيها، ووشاحُها يُغطّي أنفَها، وقفّازاها مُنعقِدَي الخيوط. طوّقَ الضبابُ وجهها وقطّعَ جسدَها. وبدَت الأشياءُ كأنّها تتحرّكُ بارزةً منه بعد أن كانت جامِدة. أرادَ أن يسألها أكثرَ عن أمّها، عن الأكاذيبِ والحقائق التي قالَتها عنها، ولكن...

- «هُناك»، هتَفَت، مُشيرةً إلى بُقعة. «هُناك أشياؤنا. هُناك».

15- هانسِل –Hansel: هُنا إشارة إلى القصّة الألمانيّة الشّهيرة ›هانسِل وغْرِتِل– Hansel and Gretel‹. وهيَ قصّة طفلَين شقيقَين (الفتى هانسِل، والفتاة غْرِتِل) يَتيمَي الأمّ. يتوهانِ في غابةٍ وينتهيانِ إلى منزلِ ساحرةٍ شرّيرة تُغري هانسِل بما لذّ وطاب من الطعام كي تُسَمِّنَه فتلتهِمَه، ولكنّ غْرِتِل تنجحُ أخيرًا بالقضاءِ على الساحرةِ بزَجِّها في فُرنِها، والفرار برفقة شقيقِها.

16- هاجِرة –Runner-away، وباقية- Stayer-putter: من التعابير المُختلَقَة من قِبَل سارة.

لم تمشِ، بل انزلَقَت، قافزةً من بقعةٍ إلى أخرى. تبعَ ماركُس صوتَها إذ تُناديه. بدا جليًّا أنّها أحبَّت اسمَه. فظلَّت تلفظهُ مُقطَّعًا: مار-كُس. أو تختلقُ منهُ ألقابًا: ماري، كاركُس، رام. ولمّا لحِقَ بها، ألفاها مُمسكةً في يدِها شيئًا مصنوعًا من أسلاك. فتَحَتهُ، فقالَ لها:

- «ما هذا؟».

تجاهَلتهُ، وقالَت:

- «يجبُ أن نجِدَها كلّها».

كانت كلّها مصائد، وجُلُّ ما فيها فئران حقول، وبعض الضفادع مجعّدة الوجوه، وبعض جرذان النّهر الكبيرة التي لم ترُق لِماركُس شكلًا. أطلقَت سراحَ جُلّ تلكَ الحيوانات، فراحَ كُلّ منها في طريقِه جارًّا نفسهُ جرًّا، قد أنهكه التّعب. أمّا الحيوانات التي قضت نحبَها في المصائد، فجمَّعَتها غْرِتِل، وأعطَت ماركُس فأرًا سمينًا ليحمِله، فدَسَّهُ في جيبِه وحاولَ نسيان وجودِه هُناك. ولمّا فرَغا، أعادَت نصبَ المصائد مُستعملةً قطعَ لحمٍ تمنّى ماركُس أنّها منَّت عليهِ بها.

- «أنا أحاولُ اصطيادَ حيوانٍ كبير»، قالَت. فالتمعَت في ذهنِهِ ذِكرى لِصّ القناة، والشَّرَك الذي كانَ تشارلي مُنشغلًا بإعداده قبلَ مقتَلِه.

- «ثعلب؟».

هزَّت بكتفَيها.

- «غُرَير؟».

قطّبَت حاجِبَيها، وقالَت:

- «بل بوناك!».

أحسَّ بمعدتِهِ تهبِطُ قليلًا في جوفِه، كأنّهُما هبطا -بلا حراكٍ- تلّةً عظيمة.

- «ما بوناك؟».

شاهَدَها إذ تضعُ مصيدةً أرضًا، مُحكِمةً إعدادَها.

- «هوَ كُلُّ مخلوق يكشّرُ عن أنيابِه»، قالَت.

- «ماذا تعنين؟».

- «كانَ، في الصيفِ الفائت، الكلبَ الغبيّ الذي أنهكهُ الجوعُ حتّى صارَ

مسعورًا حسبما قالَت لي سارة. ولكنّهُ كان، قبلَ قرونٍ طويلة، عاصفةً هوجاء أوشكَت على تحطيم القارب. ومرّةً كانَ نارًا أحرقَت جُلّ الغابة وخِلناها ستحرقُنا. أمّا هذا الشتاء، فهوَ شيءٌ آخر. وتقولُ سارة إنّهُ قد يكونُ أخطرَ بوناك على الإطلاق، ولكنّنا غير متيقّنتَين بعد».

– «أهوَ ما تخشيانِه؟».

– «إنّهُ بوناك»، قالَت ببساطة، وكَفَّت عن الحديثِ عنه. أمسكَت بمصيدةٍ ورفعَتها أمامه كي يُلقي عليها نظرةً متفحّصة. ولمّا سألَها عن كيفيّة عملِ المصيدة، اكتفت بالإشارة إلى أجزائها المتعدّدة، شارِحةً لهُ عملَ كُلٍّ منها، هذا الجُزء، وذاك الجُزء، ثُمّ قالت أخيرًا:

– «هل فهِمت؟».

ألفيا نفسَيهما قد عادا إلى مكانِهما الأوّل عند حافّة النّهر من غيرِ أن يتنبهَ ماركُس إلى أنّهما سارا في دائرة. أصدرَت الأرضُ طقطقةً تحتَ نعلَيه. وأوجَعَتهُ رئتاهُ من فرطِ البرد. أرَتْهُ غْرِتِل إحدى الأدوات الحديديّة المتدلّية من إحدى شُجيرات النّهر.

– «هذا شَرَك. جرسٌ هوائيّ»، ولم تسمح لهُ بلَمسِه.

وقفَ يُشاهدُها بينما راحَت تُعَلّقُ صَيدَها بالخيوطِ على قُضبانِ الجرَس بحيثُ تُقابلُ بطونُها الماء. كانَ الوحلُ على الضفّة سميكًا، ومُحمَرًّا، فانتبهَ ماركُس إلى حذائِه إذ يغوصُ فيه.

– «اسمع»، قالَت، رافعةً إحدى يديها إلى فمِه. وقفا ساكِنَين. أقبلَت صوبَهُما الرّيحُ من جهةِ النّهر، شاقّةً الضّباب إلى ضفّتين، عاويةً من خلالِ الجرس كأنّها تشدو بأغنية. غرزَت غْرِتِل رُمحًا في بطنِ أحد الضفادع المَيْتة. فتساءلَ ماركُس ما إذا كانَ فِعلُها ذاكَ تعويذةَ حمايةٍ من الماء، أو من التيّار، أو من لصّ القناة: بوناك.

– «لا يعني فِعلُكِ شيئًا رغمَ ذلك»، قال وأبصرَ غضبَها يفورُ وحاجِبَيها يُقطِّبانِ وفمَها يتغضَّن، رغمَ أنّهُ كان مُشيحًا ببصرهِ عنها. ضرَبَت أقربَ جرسٍ منها، فراحَ يدورُ من تلقائه. فكّرَ ماركُس في أمّها إذ تسبحُ في النهر من غيرِ حاجةٍ إلى الصّعودِ لاستنشاقِ الهواء أو التوقّف لأخذ قسط من النوم. وفكّرَ

في الارتياح الغريب الذي قد يعتريه حينَ يُطلِعُ أحدًا ما على ما اقترفَهُ في ذلكَ القارب، وكيفَ أنَّ يديهِ لم تجرؤا مُذ ذاكَ الحينِ على الانقباض لأنَّهُ ما زالَ يُحسُّ بهِما قابضتينِ على وتدِ الخيمةِ اللعينِ ذاك. فكَّرَ في أمّها إذ تحفرُ في قلبِ الأرض، باقيةً وهاجِرةً في آن، تقتاتُ على حيواناتٍ بعظمِها.

لقد وقعَ في حُبِّ سارة حتّى قبلَ أن يلتقيها.

المُطارَدة

دعا المطعمُ نفسَهُ بالمطعمِ الصينيّ، غيرَ أنّنا ألفينا بطاطا ومعكرونة بالجُبن في قائمة مأكولاتِه، إلى جانبِ السبرِنغ رُلز وشُو مين. استغرقنا نحوَ ساعةٍ في صعودِ التلّة صوبَ مركز البلدة. تلافَت فيونا الشّمس، ولاذَت بالظلّ. أردتُ أن أسألَها متى غادرَت سقيفتَها في الحديقةِ آخر مرّة، ولكنّي لم أفعل. ولمّا مددتُ لها ذراعي، تطاولَت وحدَجتني بنظرةٍ شزراء، كأنّي جرحتُ كرامتَها.

كُنّا الوحيدَتينِ في المطعم. وكانت ثمّت مصابيح ورقيّة متدليّة من النوافذِ كافّة، وحوض سمَك فيهِ شبوطٌ في حجمِ ساعِدي، وثُقبٌ أمكننا رؤيةُ الطّاهي من خلالِهِ يُدخّنُ ويُشاهد التلفاز. لم يكُن الوقتُ مناسبًا لحديثٍ وُدّي. انغمسنا في قراءة قائمة المأكولات. وكُنتُ أحيانًا أختلسُ إليها نظراتٍ، فأجِدُها شارِدة، وقابضةً بأصابعِها المُزرَقّة على قائمة المأكولات الجلديّة الحمراء، مُمرِّرَةً لسانَها بشُرودٍ على سقفِ فمِها. ذكّرَني هذا بالمرّةِ التي أخذتِني فيها إلى مطعم: بطبقِ اللّحم النّيء الذي حشرتِهِ في جوفِك قسرًا، ورُجاجة النبيذ التي بَدَت كالمِقراب وأنتِ تعبّينَ منها، والواقي الذي طوّقتِ بِهِ السّكين. في تلكَ اللحظة كانت فيونا -أخالُها- سعيدةً بصورةٍ بسيطةٍ وخاليةٍ من التّعقيد كانت لن تروقَ لكِ. راحَت تُحرّكُ عُودَي طعامِها، متأمّلةً شكلَ طبقِها. ورفعَت قائمة المأكولات كي تُمكّنني من رؤية طعامها. سَعِدتُ، فجأةً، لجَلبي إيّاها إلى هُنا، حتّى لو لم أستفِد من ذلكَ شيئًا، وحتّى لو لم تُخبرني بشيء. كانَ من السّهلِ عليَّ تخيُّلُني مكانَ روجَر ولاورا إذ ينتظرانِ وينتظران، والمرأة التي أبعَدَت عنهُما مارغُت تسكُنُ في سقيفتِهِما. أمّا تَخيُّلُني مكانَ فيونا، فكانَ عسيرًا، إذ تجلسُ

منتظِرةً هي الأخرى. مُنتظِرةً أحدًا لتُخبره، لتشرحَ له. لتصيرَ شخصًا غيرَ الذي أرغمَ ابنتهُما على الرّحيل.

كانت النّادلة في نحو الرّابعة عشرة. طلبتُ لنفسي وجبةَ فريدس مقرمش.

– «ما بَكاردي بريَرر؟»، قالَت فيونا.

فجلَبَت لها النادلةُ قنّينةَ شرابٍ بُرتقاليّ اللّون، فجلسنا –أنا والنادلة– نُشاهِدُ فيونا إذ تتذوَّقُها. غمَزَتني. وأفرَغت القنينةَ كُلّها في جوفِها. وطلبَت قنّينةً ثانية.

لم أدرِ ما أفعل، ولكن بدا لي أنَّ فيونا مُرتاحةٌ للغاية، فطلَبَت من المأكولاتِ والمشروباتِ كفايةَ احتفال. مثلًا: شار سُو (لحمُ خنزيرٍ مشويّ)، ومعدةَ عجلٍ بالفاصولياء السّوداء، ودِمسَم، وحبّارًا بالملح والفلفل. وسمكة شبص كاملة مُزيّنة بقطعِ لحمٍ مفروم بصلصة الصويا، وصلصة كستناء الماء، وكَرشةَ عِجلٍ مع معكرونة طويلة شفّافة وبَرَنْد في طبق، ومَاشًا مع سمكٍ مملّح ومعكرونة داندان. لم نُمانِع الأرُزّ، ولكنّ فيونا أصرَّت على تناوُل البطاطا المقرمشة. أعادَت النادلة على مسامِعنا الطّلَبَ بتأنٍّ. وأطفأ الطاهي التلفاز في المطبخ.

التهمَت فيونا الفريدِس المقرمِش، ولوّحَت بالطّبق تُريد المَزيد. ولمّا أوشكَت أن تأتي على قنّينة بِكاردي الثالثة، طلبَت قدحَ نبيذ. وُضعَ الطّعامُ فورَ جهوزِه، في أطباقٍ كبيرة فاضَت على غطاء المائدة الورقيّ. كانت ثمّت بَركة في طريقةِ إقبالِها على الطّعام، آكِلةً من أطباقِ التّقديم ذاتِها من غيرِ أن تسكُب منها، مُجرِّبَتَها واحدةً تلو الأخرى. كانَت كُلّ الأطباق حارّةً ولاذعةً، ما جَعَلَ العرق –ثُمَّ الدّمع– يسحّ منّي مدرارًا، ثُمَّ سالَ أنفي.أخذت فيونا مِعطفَ الصّوف الذي ألحَّت عليَّ أن أجلبهُ معي من المنزل رغمَ حرارةِ الجوّ، وارتدَته. كانت تلبسُ تحتهُ فستانًا أحمرَ أكمامُهُ حريريّة، وتنّورةً طويلة. ولمّا فرَغَ الطاهي من عمله، أطلَّ برأسه من الفجوةِ كي يرانا. فوجَدَنا مُنشغلَتين بالأكلِ على ذاتِ الوتيرة، غيرَ مُبطِئتَين. كانت الفطائر سميكة. واللّحمُ مكسوًّا بطبقةِ دهنٍ احترقَت فتشقّقَت. ومعكرونةُ الداندان محشوّةٌ بقِطعٍ من اللّحم المفروم. لم يُجدِ معي عودا الطّعامِ نفعًا، فطلبتُ شوكة.

بدأت فيونا تستريحُ بينَ اللّقيمات، تلحَظُني من خلالِ جَفنَيها نصفِ المُغمَضَين، وقد ثَنَت كُمّي فُستانِها إلى ما فوقَ ساعِدَيها. كُنت مُنشغلةً بالطّعام لدرجةِ أنّي فوَّتُّ أوّل كلمةٍ باحَت بها.

– «ماذا؟»، قُلتُ بالِعَةً اللقمة في فمي بسُرعةٍ حتّى كِدتُ أختنِق.

– «أبصَرتُ ما كانت ستقترفُه. ولذلكَ أبعَدتُها».

– «وماذا أبصَرتِ؟».

حمَلَت آخِرَ فطيرة بأصابعِها. وبعدما التهَمَتها، أخبرَتني.

النّهر

أتت غْرِتِل لتراهُ مجدّدًا، وأحضرَت معها رغيفَ خُبزٍ ساخنٍ لدرجةِ أنّهُ لسعَ سقفَ فم ماركُس، وبعضَ جُبنٍ صُلبٍ مُزيّنٍ بشيءٍ من المَلح. أرادَت أن تعلّمهُ لُعبةً تُدعى *‹دَق، دَق، أنا الذّئب›*، وهكذا كانت طريقتُها: عليهما أن يجِدا شجرةً ممتازةً في الغابة. هوَ سيقفُ قبالتَها ويدُقُّ عليها بقبضتِهِ مرّتين، وينتظرُ هُنيهةً فيقول ‹دَق، دَق، أنا الذّئب›، فيستدير فتكونُ هيَ على مبعدةِ عشر خطواتٍ وراءَه. هدفُ اللعبة، حسبما قالَت، هوَ أن تقتربَ منهُ لدرجةِ أن تصيرَ قادرةً على لمسِه ولكن من غيرِ أن يُحسَّ بتحرّكِها أو يراها وهيَ تتحرّك.

– «اسمُها دَق، دَق؟».

– «دَق، دَق، أنا الذئب. جاهِز؟».

– «أخالُ ذلك»، قال.

– «هيّا بنا».

كانت هذه اللعبة، حسبَ وصفِها، لُعبةَ دُفدُف – أيْ جميلةً جدًّا حسبما فهِم[17]. كانت تضعُ على رأسِها سمّاعةً بأذنَينِ صفراوَين كالكُمّثّتين. حرَّكَت كتِفَيها بطريقةٍ أدركَ أنّها تعبّرُ عن انزعاجِها المُبالغِ فيه. كانَ من الأسهلِ عليهِ ألّا يفكّرَ في الرّجُل المَيْت في حضرتِها.

– «هيّا، ابدأ».

17– دُفدُف – Duvduv: كلمةٌ عتيقةٌ مُختلَقة أخرى، معناها المقصود هوَ ‹جميل، مُمتع، مُبهج›.

أدارَ ظهرهُ فواجَهَ الشّجرة. أغمضَ عينيه، وحبسَ أنفاسَه. أحسَّ ببطءٍ ما، وبالبردِ يلطم وجهه. أمكنهُ سماعُ صوتِ النّهر، وأخفضَ منهُ صوت تكسُّرِ أوراق الصّنوبر تحتَ نعلَي غْرِتِل، وصوت الطيور إذ تُحلّق بعيدًا في الغابة. ظلَّ مُنتظرًا أطول فترةٍ ممكنة -ولم تكُن مدّة طويلة- ثُمَّ نطقَ بالكلمات التي علّمَتهُ إياها، واستدار. أحسَّ بنبضِهِ في فمِه.

كانت غْرِتِل واقفةً على ساقٍ واحدة، متجمّدةً على مبعدة خمس خطواتٍ منه، جاحظةَ العينين، واضعةً يدَها فوقَ رأسِها. حدّقَ إليها، ولكنّها لم تتحرّك قيد أنمُلة. فاستدارَ إلى الشّجرة.

- «دَق، دَق، أنا الذّئب».

استدارَ، فرآها قد صارَت أقرب إليه. على مبعدةِ ذراع، مُميلةً رأسَها إلى جهةِ اليسار كأنّها تنظُرُ إلى شيء. حدّقَ إلى مرمى بصرِها -لم يجِد ثمَّ سِوى أجمة أبهَتَها الشّتاء- ولمّا أرجَعَ بصرهُ إليها كانت قد اقترَبَت خُطوة - خُطوة صغيرة فحسب. استدارَ سريعًا، نطقَ بالكلمات، واستدار سريعًا. ألفاها مُكشّرةً عن أسنانِها الصُّفر ضاحِكة، وقد خلعَت الكُمّيّتين ومدّت كِلتي يديها صوبَه. استدارَ بسُرعة، وما كادَ ينطقُ بالكلمات حتّى أحسَّ بيدِها تلمسُه، بقوّةٍ مُعجِبَة، وتقبِضُ على كتِفِه، تعلو وجهها بهجة الظّفَر.

- «ما أجملها من لُعبة!»، قالَت بينما تتقافزُ في مكانِها، رافعةً إحدى رُكبتَيها عاليًا، ثُمَّ رافعةً الأخرى، ومِعصماها يرقُصانِ في الجوّ. «ما أجملَها من لُعبة، ما أجملها، ما أجملَها!».

- «بلى»، قال، رغم أنّهُ لم يكُن متيقّنًا من ذلك. ورغمَ أنّهُ كانَ يُفضِّلُ -ربّما- قراءةَ ألغاز الكِتاب أو حتّى مُرافقتها في أثناءِ جمعِها غنائِمَ المصائد. وجدَ في اللّعبةِ خوفًا كبيرًا، حادّ الأنياب، فلَم ترُق له. لم ترُق لهُ إدارة ظهرِه لِلماء، ولا انتظارُ الوصول الحتميّ لتلكَ اليَد. وعلاوةً على ذلك، لم ترُق له الاحتماليّة، فِكرةُ أنَّ اليدَ (قد) لا تصِلُ إليه. فقد يظلُّ واقفًا في مكانه لساعات، ثُمَّ حينَ يستدير يُلفي الفتاةَ قد اختدعتهُ ورحَلَت. أو قد يحدُثُ ما هوَ أسوأ من ذلكَ كلّه، فيجد شخصًا آخرَ واقفًا وراءه، الرّجل المَيّت، يُطاردُه رغمَ كُلّ شيء.

ظلّا يلعبانِها مرّةً تلوَ مرّة. وصارَ هوَ أمهرَ في التماسِ مكانِها من خلالِ صوتِ حركتِها فقط، وفي قَول الكلمات بسُرعةٍ والاستدارة بسُرعة أكبر ظانًّا أنّهُ تمكّن منها، ليَجِد في كُل مرّةٍ أنّها لم تتحرّكْ قيدَ أنمُلة.

– «هلّا تبادلنا الأدوار؟»، قالَ بعد المرّةِ الثالثة، ولكنّها هزَّت برأسِها. فاستدارَ إلى الشّجرة. عدَّ لبضع ثوانٍ، ونطقَ بالكلمات، واستدارَ إليها. ألفاها واقفةً على رِجلٍ واحدة، مُميلةً رأسَها –ثانيةً– صوبَ اليسار. نظرَ إلى مرمى بصرِها ثانيةً، فرأى الثلاجة المقلوبة وأكياس القُمامة إذ تُحرّكُها الرّيح، ووراءَ ذلكَ بعضُ نبات القرّاص. علِمَ –كونَهُ ذرعَ المنطقة كلّها– أنَّ القرّاصَ يمتدُّ فقط إلى بضعِ خطوات ثُمَّ تصيرُ الأرضُ طريّةً ثُمَّ يتلوها النّهر: لم يرَ سوى ذلك.

– «إلى ماذا تنظُرين؟».

لم تُجبه.

– «هل ثمّت شيءٌ هناك؟ يُمكننا أن نتوقّف عن اللّعب إن رأيتِ شيئًا هُناك».

لم تأتِ بأيةِ حركة. «لِصّ القناة؟» لكنّها لم تقُل شيئًا. استدارَ إلى الشّجرة، عدَّ بالكادِ لثانيتين –بسُرعة– وصاحَ بالكلماتِ واستدارَ شاعِرًا بيَدٍ قد لمسَت كتِفَه، أفزَعَتهُ اللّمسةُ حتّى انعقدَت ساقاهُ ببعضِهما فهَوى أرضًا، صارِخًا، مُحاولًا العَدْوَ مُبتعدًا. طرقَت سمعَهُ قهقهة غُرِبَلٍ على مقربةٍ منه، بصوتٍ عالٍ وفظّ. نظرَ إلى الأعلى، فرأى الشّمس ساطعةً وقد حجَبَت عنهُ صورةَ المرأة الواقفة عنده، مادّةً يدها البيضاءَ صوبَه تُريدُ إنهاضَه.

– «لا بُدَّ أنّكَ ماركُس»، قالَت.

(5)

الرّجُل المَيْت يجوبُ الغابة

الكوخ

ماذا يؤوبُ إلينا من ذلكَ النّهرِ المتعرِّجَ البائد -الذي كأنّهُ أسَلَةٌ في ظهر البلَد؟ ما الرّوحُ التي استحضرناها هُناك؟ فتاةٌ بريَّةٌ، وأمّها البريّة أكثَر، إذ تعيشانِ هُناكِ كشيطانتين أو بهيمَتينِ حيثُ لا يقدرُ أحدٌ على المساس بِهما. انظري إلى ما صِرنا إليه اليوم. خافِتتين، بائستَين، مَقدورٌ على كُلِّ واحدةٍ منّا أن تُدمّر الأخرى ونفسَها، صاخِبتَينِ في كوخٍ لا يتّسعُ لكلتَينا. تُذكّرينني- أحيانًا - بِفيونا. كيفَ كانت تلتهِمُ الطّعامَ بنَهَمٍ، وجوعٍ مُفرِط، وكيفَ استحكَمَت بها قصَّتُها السِّريّة حتّى هوَت بها في بئرِ الجنون والوَحدة والخوف. وكيفَ أحَبّكما ماركُس بجنون، فلم يُغنِ عنهُ حُبّهُ شيئًا. «ولكنّي أحبُّكِ» تقولينَ لي في البقّالة، فأريدُ أن أقولَها لكِ ولكن لا أستطيع، ليسَ بعد، لستُ قادرةً بعدُ على قولِها. وأريدُ أن أقولَ لكِ إنّي أخالُنا مَن خلَقناه. أيًّا كانَ ذاكَ السّاكنُ قلبَ النّهرِ الباردِ شتاءئِذ، والسّاكنُ أحلامَنا والمُنشِبُ أظفارَه في رأسَينا. أريدُ أن أقولَ إنّهُ ما كانَ ليوجَدَ لولا أنّنا اختلقناه ابتداءً.

النَّهر

قدَحَت المرأةُ في ذهنِ ماركُس ذكرى طبيبةٍ كانَ يزورُها حينَ كانَ فتاةً صغيرة، وكانت الطّبيبةُ عابِسةً دائمًا وقليلةَ الكلام. أرَتهُ مرّةً صورةَ أشعّةٍ لجوفِه: فيها أطرافٌ بيضاء وسوداء، وكُتَلٌ داكنة في التّجاويف. لم يثِق في تلكَ المرأةِ بسببِ قُدرتِها تلكَ على رؤيةِ المَكنون. أمّا هذه المرأةُ، فكانت أقصَرَ منهُ طولًا، وذراعاها مكسوّتينِ بِشاماتٍ هُنا وهُناك، وكان شعرُها على وجهها منسدلًا حالكَ السّواد، وحاجِباها يكادانِ يلتقيان في الوسطِ مثلَ غْرِتِل. وكانت تسبرُ الغَورَ بعَينيها مثلما فعَلَت آلةُ التصوير الشعاعيّ. فأحسَّ بهِما تُشرِّحانِه.

كانَ القارب الذي تسكُنانِه راسيًا على مقرُبةٍ من خيمتِه، وكانَ أخضرَ وبرتقاليًّا تكسوهُ الطّحالب والصّدأ. كانَ مختلفًا عن قاربِ تشارلي، فلم تكُن لهُ نوافذ، بل كُوّةٌ في السّقفِ فقط تسلّلَ منها الضوء مُنسكِبًا على كومةِ صوفِ غنمٍ وألحفة تَرتان، وكومةِ أطباق وسِخة، وفُرنِ غاز، وأكداس كُتُب وأواني فخّار. وعلى المنضدةِ قِدرٌ أخذَت المرأةُ منهُ بيضةً وقشّرَتها، وناولَتها إيّاه. فحشرَها في فمِه ثُمَّ لم يدرِ إلى أين ينظُر. نظرَ إلى نعلَيها، فألفاهُما مُثقَلَينِ بالوَحل.

– «كُنت أوشِكُ على إعدادِ الطّعام»، قالَت بطريقةٍ بدَت غايتُها غيرَ واضِحة، أهيَ تدعوهُ إلى مُشاركتِهما الطعام أم لا. أمسكَت غْرِتِل بيدِه وأخذتهُ صعودًا السلالِمَ إلى خارجِ القارب.

– «تلكَ أمُّكِ؟»، سألَها بصوتٍ خفيضٍ كي لا تسمعهُ المرأةُ في القارب. كانت غْرِتِل واقفةً على رؤوس أصابعِها تُخرِجُ سمكةً من إحدى الأجراس قبلَ أن تتعفَّن.

– «تلكَ أمّي»، قالَت بصوتٍ عالٍ. «واسمُها سارة. وقد أخبرتني بأنّها تودُّ أن تراك. قالت إنّها متشوّقةٌ لرؤية الفتى جليسِ الكِتاب».

– «جليس الكِتاب؟».
– «ذاك أنت. كذلك تدعوك، أو ‹فتى الخيمة› أو ‹الأخرَس›».
– «الأخرس؟».
– «كُنت قد أخبرتُها بأنّكَ قليلُ الكلام، فقالت لي إنّكَ أشبهُ بالأخرس. هي تقولُ مثل هذه الأشياء عادةً».

أعَدّا كُلّ المصائد والأجراس، ولمّا عادا ألفيا سارة جالسةً على السّطح مُدلّيةً ساقيها من الحافّة. وكانت حاملةً بيدِها مِقلاةً حديديّة يعلو منها بُخار، وفيها قديدٌ لونه مائلٌ إلى السّوَاد، وفي يدِها الأخرى سيجارة. عَدَت غْرِتِل إليها وطوّقَت عُنُقَها بذراعَيها.

– «حاذِري يا إِلْ!»، قالَت لها. «هل ترغبُ بواحِدة؟»، قالَت له.
– «ماذا؟».

أومأت برأسِها مُشيرةً إلى السيجارة في فمِها. «سيجارة. هل ترغبُ بسيجارة؟».
– «لا، شُكرًا».
– «كما تشاء».

لم يدرِ ما يفعل بساقَيهِ وذراعَيه. ولمّا تحرَّكَ أحسّ بأنّهُ تمايلَ بحماقة. كانت ترتدي قميصًا أبيضَ خفيفًا، وثوبُ السّباحةِ بائنٌ من تحته. كان قميصُها حريريًّا، وقد دسّت طرفَهُ عند فخِذَيها، وجلسَت مُوازنةً المِقلاةَ في يدِها بينما تُدخّن. كانَ فمُها وسيعًا، وشفَتُها السّفلى مُكتنِزة. لم يخَلها أكبرَ سنًّا من أبَوَيه، ولكنّهُ حينَ حاولَ مقارنتها بِفيونا، لم يدرِ أيّهُما أكبر. تمنّى –لا لأوّل مرّة– أنّهُ تهندَم وتزيّنَ، وأحسَنَ قولَهُ وعمَلَه. راحَت سارة تُدخّن ببطء، نازعةً السيجارة من فمِها أو نافثةً الدّخانَ وهيَ لا تزالُ في موضعِها بينَ شفتيها. ولمّا فَرَغَت أخذَت قطعةَ قديدٍ من المِقلاة الساخنة والتهَمَتها. أمكنَتهُ رؤية الدّهن على أصابعِها، كما رآهُ أيضًا –بعدما مسحَت أصابِعَها– على رُكبتَيها اللّتينِ ألفاهُما بُنيّتينِ كماءِ النّهر.
– «هاك».

أخذَ ماركُس قطعة قديدٍ من المِقلاة. وأخذت غْرِتِل اثنتين وفرَّت قبل أن يتمكّن أيّهُما من صدِّها. التفتَ وشاهَدَ غْرِتِل إذ تبتعِدُ صوبَ خطّ الأشجار.

ولمّا اختفت بينَها، ألفى نفسهُ قد صارَ واعيًا بالأشكالِ الهندسيّة: المربّع بينهُ وبينَ سارة، والمثلّث الذي تُشكّلهُ ساقا سارة المتدلّيتانِ إلى الجانب الرّطب من القارب، والفراغِ في يديهِ المفتوحَتين.

– «أخبرني عن نفسِك»، قالَت له. «اسمُكَ ماركُس، أليس كذلك؟ هل لديكَ أغنيةُ بجعة[18]؟».

– «أغنية ماذا؟».

– «ماذا كُنتَ ستقولُ عن نفسِكَ لو أنّكَ كُنت على شفا الموت اللّحظة؟».

أحسَّ بجمودٍ رهيبٍ ومُفزِعٍ يتنزّلُ عليه. كانَ موقِنًا من أنّها قادرةٌ على رؤيةِ كُلّ سِرٍّ مكتوبًا على وجهه، وكلّ ما اقترفَتهُ يداه: سبب رحيلِه، ومَن رأى وماذا سمِع عند النّهر، وماذا حلَّ بتشارلي، ولِمَ لن يستطيعَ العودةَ إلى منزله أبدًا؟.

– «ماضٍ فحسب»، قالَ أخيرًا، غاصًّا بالكلمات. أحسَّ كأنّها غرزَت يدَها في صدرِهِ وانتزعَت منهُ كُلّ ماضٍ ومكنون. لم يختبر مثلَ ذلك الإحساس قطُّ من قبل، ولم يدرِ ما يعنيه إحساسهُ ذاك. بدَت شبيهةً بِغْرِتِل: إحدى عينيها أوسعُ قليلًا من الأخرى، البؤبؤانِ في مثلِ لونِ الحديد.

– «ماضٍ إلى أين؟ وإلى ماذا؟».

– «فقط، ماضٍ فقط».

– «ماضٍ فقط؟ يبدو ذلكَ جيّدًا حقًّا. المُضِيُّ من غيرِ غاية؟ يبدو ذلكَ دُقْدُق!».

– «بلى»، قال. أربكَتهُ طريقةُ حديثِها وتَكرارِها كلماتِه، إلقاؤها عليهِ في صيغةِ أسئلة. «ربّما».

– «أخالُنا سنرحلُ عمّا قريب»، قالَت. انصرَفَت بجسدِها صوبَ النّهر، مُطئطئةً رأسَها صوبَ التيّار تحتَها. «ونرى ما ستُلقيهِ علينا الدّنيا». بدَت، حسبَ اعتقادِه، لا تُحدّثهُ هوَ. بل أحسَّ بأنّهُ يسترقُ السّمع من غيرِ إذن.

18– أغنية البجعة –Swan Song: تعبير مجازيٌّ يعودُ إلى اليونان القديمة، يرمزُ إلى آخر عمل يقومُ بهِ الإنسانُ أو إيماءة تصدُر عنهُ قُبيل الوفاة. ومنبع هذا التّعبير هو اعتقاد قديم بأنَّ البجع يُغنّي– قبلَ موتِه – بعد أن سلخَ حياته صامِتًا.

- «أجِدُني قد عِيلَ صبري أحيانًا، أتعرف؟»، قالَت مُلتفتةً إليه. أحسَّ بنظرتِها تقتحِمُ جِلدَه مُستقرَّةً فيه.

- «نعم»، قالَ رغم أنَّهُ لم يكُن يعرِف.

- «لم نزل ماكِثَتينِ هُنا منذ ولادة غْرِتِل. وإنَّ تلك لمُدّة طويلة يمكثُها المرءُ في مكانٍ واحِد. أحيانًا لا أريدُ سِوى...»، لم تُنهِ الجُملة، بل رفَعَت ذراعَها فوقَ رأسِها ودفعتهُما إلى أعلى، كأنّها تخترقُ حاجِزًا لامرئيًّا.

جلسوا إلى مائدةٍ صغيرة. تكلَّمَت غْرِتِل بسُرعةٍ كبيرةٍ، حتّى أوقَعَت بعضَ حسائها الذي أعدّتهُ سارة في حجرِها. أمّا هوَ فكانَ يتضوّرُ جوعًا حتّى صارَ يشربُ الحساءَ الساخنَ من غيرِ أن يُبرِّدَه، فكَوى سقفَ فمِه.

- «أتريدُ مزيدًا؟».

- «نعم، أرجوكِ».

أعادت سارة مَلءَ وعائه. لم تأكُل إلّا قليلًا، ودخَّنَت سيجارةً ثانية. وعلى الرّغم من كونِها امرأةً ضئيلةً -مثلَ غْرِتِل- فقد كانت تشغَلُ حيّزًا كبيرًا من الحُجرة. جلسَت على المقعد واضعةً إحدى ساقَيها -عاريةً- على المقعدِ معها، ومِرفَقًا على الطاولة، وأرجعَت ظهرها إلى الوراء. عادَ ماركُس يأكُل مجدّدًا، شاعِرًا بمعدتِه تهضمُ الطّعامَ غير المُتوقّع، وقد كانَ أكثر ممّا دخلَ معدتَهُ مُذ ماتَ تشارلي.

- «نحنُ نقرأ في الموسوعة، أليسَ كذلك؟»، قالَت غْرِتِل.

- «بلى»، قالَت سارة.

- «صباح اليوم قرأنا عن المينوتور. هل تعرفُ ما هوَ يا ماركُس؟ هوَ مخلوقٌ بجسدِ إنسانٍ ورأسِ ثَور، وهوَ يسكُنُ في متاهة. ما دفَعني للتّفكيرِ بسَجن بانوبتِكون[19]. أتعرف ما هو؟».

19- بانوبتِكون - Panopticon: هوَ سجنٌ صمّمه الفيلسوف الإنجليزيّ جِرِمي بِنثَم عام 1785، وتصميمُهُ يُمكّن مُراقِبًا واحدًا من مراقبة السّجناء كافّة من غيرِ أن يشعروا. وقد ألهَمَ تصميمُهُ أعمالَ كُتّاب كثيرين، كميشيل فوكو وجورج أورويل. والكلمة مِن شقّين: Pan أيْ الكُلّ. و Opticon أيْ مُراقبة. ليصير معناها: مُراقبة الكُلّ.

– «ستغصّينَ بطعامِكِ ما لم تتمهّلي قليلًا يا هانسِل»، قالَت سارة. «ولا تظنّيني سأنقذُكِ بمُناورةِ هيمِلك[20]».

– «إنّهُ السّجن المثاليّ، لأنَّ فيهِ مراقِبًا واحِدًا، والسّجناء لا يقدرونَ على التيقُّن ممّا إذا كانوا مُراقَبين أم لا، ولذلكَ يتصرّفون دائمًا كأنّهُم مُراقَبون حتّى لو لم يكونوا كذلك. تقول أمّي إنَّ نظامَ ذلكَ السّجن يلعبُ على وتر الذّهان (paranoia) المفروض ذاتيًّا. لستُ متيقّنة من ذلك، ولكنّ ذلكَ دفعَني إلى التّفكير في بوناك».

وضعَ ماركُس ملعقتهُ في وعائه. ولمّا نظرَ رأى سارة ترمُقُه. تمنّى أنْ لو لم يُصِبهُ التوتُّر كُلّما رمَقَته بناظِرَيها. أحسَّ بِلسانهِ كبيرًا وثقيلًا في فمِه، وأحسَّ بنقرِ أنفاسِه إذ تُجاوِزُ حلقَه.

– «أسمِعتَ بِهِ من قبل؟»، قالَت له سارة. «أتعرفُ عن بوناك؟».

– «لا أعرف»، قال.

– «أنت أتيت من فوقِ النّهر، أليسَ كذلك؟ من جهة الشمال. وقد ظللنا نسمعُ شائعاتٍ عن بوناك من ذلكَ الصّوب لأسابيع».

– «ما أمرُه؟».

نقرَت غْرِتِل على ذراعِه، دون أن تنبِس.

– «قد لا يكونُ شيئًا»، قالَت سارة واضِعةً أوعيةَ الحساء بعضها في بعض. «طالما كانَ لأهل النّهر خرافاتُهُم. فإنَّ للماءِ طريقة يجعلُ بِها كُلّ شيءٍ واضح ضبابيًّا. أتخالُني لم أرَ أشياء مُخيفة هُناك؟ بل حينَ يتنزّل الضّباب، أو تشتدُّ حرارةُ الجوّ حتّى يصيرَ الهواء -لفرط سخونته- متموّجًا، أخالُني أرى أشياءَ تخلّيتُ عنها فيما مضى ولم أعتقد أنّي سأراها يومًا. رأيتُ رجُلًا نحيلًا يسيرُ بينَ الأشجار، أو حيوانًا بوجهِ امرأةٍ، أو مخلوقًا أسوأ من هذا وذاك. يُمكن للمرءِ أن يُقنِعَ نفسهُ بأيِّ شيءٍ في هذه الناحية. إذ إنَّ أهلَ النّهر ليسوا كسواهُم من الناس. لن ترى رجال شرطةٍ هُنا أبدًا، ولن ترى جمعيّاتِ رعاية أطفالٍ أو

20- مُناورة هِيملِك – Heimlich Manoeuvre: هي إجراءٌ شائع يُستخدم في الإسعاف الأوّلي، يُعرف بضغطات البطن، لعلاجِ انسداد مجرى الهواء العلويّ.

قساوسةً. إذ إنَّ أهل النّهر لا يستخدمونَ المرائي، ولا يحبّون التواجُدَ على اليابسة طويلًا. لذا، قد لا يكونُ ذاكَ شيئًا».

كان ذلكَ أكبرَ عدد كلماتٍ سمِعَها تقولُه مُذ جاء، فأحسَّ بذهول، ولم يدرِ ما يقول.

- «ولكنّنا نترقّب»، قالَت غرِتِل. «أليسَ كذلك؟».

- «بلى. نترقّب».

في منتصفِ الليل، وقد عادَ إلى خيمتِه، عادَ الذّعرُ ليتلبّسَه، ويغمُرَه. نزعَ عنهُ لِحافَه، واعتدلَ جالسًا في عتَمَة الليل البالغةِ خمسة باعات عُمقًا[21]. أخرسَ صوتَ بُكائهِ بأن غطّى فمَهُ بمعصَمه، فابتلّت ذراعُه، تحسَّسَ الورقَ الحراريَّ المعقودَ حولَ ثَديَيه وقد صارَ مجدولًا، ومرّرَ يدَهُ على الزّغب الذي أخذَ بالنموّ على ذقنِه. أرهفَ السّمع، هُنيهةً، علّهُ يسمعُ حرَكَة الرّجُل المَيْت في الغابة. فلَم يسمع شيئًا.

21- هذا اقتباسٌ مباشرٌ من مسرحيّة العاصفة لوِليَم شكسبير: «Full fathom five thy father lies»، وترجمتُه: «على عُمقِ خمسة باعات تحتَ الماء، يرقُد والدُكَ كما يرغبُ ويشاء». ولهذا الاقتباس دلالةٌ مهمّة سيعرفُها القارئ. الجديرُ بالذّكر أنَّ ترجمة الاقتباس الشّكسبيريّ هيَ للمُترجم الكبير أنطوان رزق الله مشاطي.

المُطارَدة

في الليلة التي تلَت غدائي برفقةِ فيونا، وصَلَتني رسالة إلكترونية، بلا عنوانٍ ولا تذييلٍ باسمي مُستقبِلَةً أو باسمِكِ مُرسِلَة. رغم ذلك، عرفتُ أنّها منكِ. وأحسستُ بأنّكِ مددت يديكِ من خلال شاشة الحاسوب وطوّقتِ بها عُنُقي.

أنا على النّهر. عثرتُ عليه.

لا بُدَّ أنّكِ كُنتِ برفقة ماركُس. فكّرتُ في إبلاغِ روجر ولاورا، وفي اصطحابِهما معي. ولكن، ماذا لو كُنتِ تكذبين؟ ماذا لو كُنتِ مجنونة؟ ماذا لو كُنتِ لم تعثري عليهِ أصلًا؟.

استعَرتُ خيمةً ولحافَ نوم. أردتُ تركَ أوتو، ولكنّه تبِعَني متحمّسًا، مُكشّرًا عن أسنانه التي نخرَتها السّوس.

– «ابقَ، ابقَ!»، قُلت. ولكنّهُ همَّ بمهاجَمتي، وعَضّني.

قبلَ مُغادرَتي، وقفتُ مع روجر ولاورا في المطبخ وسألتُهُما عمّا يودّان معرفتَه. كانَ بابُ سقيفةِ فيونا مفتوحًا لحرارةِ الجوّ، وكانَت الموسيقى صادِرَةً من داخله، موسيقى صاخبة وسريعة. وضعَ روجَر الرّضيعَ على الطاولة ووازَنهُ، فحاول الرّضيعُ التّدحرُجَ إلى حافّتها، دافِعًا وَرِكَه بإحدى يديه. بدا لي مُستحيلًا مكوثهُما في المنزل. فقد طرأ تغيير. رأيتُ أثرَهُ في وجهَيهِما وفي حركاتِهِما. إذ إنّني بثثتُ الرّوحَ، من غيرِ قصدٍ، في مارغُت

ثانيةً، أيقظتُها فيهما بعدَ رقود. كانا قد أمضيا وقتًا طويلًا لا يريانِ شيئًا سوى الباب إذ يُغلَقُ وراءَها، ولكنّهُما الآن باتا يعرفان مكانَها ويقدرانِ على تخيُّلِها جالسةً فيه. هزّت لاورا بكتفَيها، وخرجَت إلى الحديقة.

– «هيَ غضبانة منّي»، قالَ روجر.

– «لماذا؟».

– «تظُنّني يئِست».

أحكَمتُ إغلاقَ سحّابِ حقيبتي. كُنت عازمةً على تركِ سيّارتي معهُما. فقد كانت في جَعبتي أشياء لم تتوفّر عليها مارغُت ساعةَ رحَلَت مذعورةً في جوفِ الليل: خريطة، وطعامٌ سيكفيني ذهابًا وإيابًا.

– «وهل يَئِست؟».

فتحَ راحَتيهِ كأنّما يحتوي بهِما المنزل، والأطفالَ المُتدحرجينَ كَكُرةٍ عندَ المُنزَلَق بينما تصيحُ بِهم لاورا أن يتوخّوا الحذر، والرّضيعَ الذي يُصارع كي يقلبَ جسدهُ الثّقيل، والمَغسَل الغاصّ بأطباق غداءِ الليلة البارحة. وقال:

– «أفي اليأسِ عيب؟».

وقفتُ مُحدقةً إليه، وفكّرتُ أنّهُ ربّما يكون مُحِقًّا. ربّما لن يكونَ ثمّت عيبٌ حالَ لم أعثُر عليكِ في نهاية المطاف. افترَّ ثغرُه عن ابتسامة، وفتحَ المحبسَ فانهمر الماءُ من الصّنبور غامِرًا الأطباق الوَسِخة.

– «أتسمحُ لي بأن أطرح عليكَ سؤالًا؟»، قُلت.

– «هذا يتوقّفُ على السؤال ذاتِه».

– «كُنّا نخشى شيئًا ما شتاءئِذ. أنا وأمّي. ومارغُت أيضًا. خِلناهُ يختطِفُ الأطفال وأنّهُ قادمٌ لا محالةَ ليختطِفَنا. أسميناهُ بوناك».

– «بوناك؟».

– «هو اسمٌ ابتدعناهُ حينَ كنتُ صغيرة. كما ابتدعنا سواه كلماتٍ شتّى، ولكنّها الكلمة التي أتذكّرُها أكثرَ من سواها. كانَ معناها يختلفُ بمرورِ الأعوام، ولكنّهُ كانَ يُشيرُ دائمًا إلى ما نخشاه».

– «وكُنتما تخشيان أشياءَ كثيرة وأنتُما تسكُنانِ ذلكَ القارب على النّهر، بلا رَيب».

- «صحيح».

- «لقد كنتُ طفلًا خائفًا»، قال. «على عكسِ هؤلاءِ الأطفال. إذ إنّهُم لا يخافونَ شيئًا».

- «ومِمَّ كُنت خائفًا؟».

أشارَ إلى خارجِ المنزل، وقال:

- «حدّثي ولا حرَج! مِمّا يقبعُ أسفل السرير وفي الخزانة، ومِن السيارات، وعَظم السَّمَك، والأرجوحة إذ تعلو وتهبط. وقد غدَت مخاوفي حقلَ ألغامٍ، حسبما أتذكَّر، يضمُّ كُلّ شيءٍ يُحذّرُني والدايَ منه».

- «أنتَ خوّفتَ نفسكَ بنفسِك؟ خلَقتَ وحشًا».

- «بطريقةٍ أو بأخرى».

- «وذاكَ سؤالي. إذ إنّي كُلّما تذكّرتُ اتّضحَ أنّها محضُ ومضات، وشظايا أشياء كُنتُ موقِنةً -وقتئذٍ- بأنّها غاية في الضخامة والأهميّة. كُنّا نؤمِن بتلكَ الأشياء».

التفتَ إليَّ، وقال:

- «أتُريدينني أن أقولَ لك إنّكُم اختلَقتُم بوناك الذي رأيتموهُ شتاءئذٍ؟ أنتِ وأمّكِ ومارغُت؟».

- «نعم. فهل ترى أنّنا مَن اختلقناه؟ واظبنا على ذِكرِه حتّى أوجَدناه؟».

- «لا أدري ما إذا كانَ قَولي ذاكَ مُهمًّا»، قال، فأبصَرتُ في وجهه أنّهُ يفكّرُ في مارغُت. فكّرتُ فيها أيضًا: في شعرِها المقصوص، ووجهها القَلِق المُلتفتِ إلينا قُبيلَ انتهاءِ ذلكَ العام.

راحَت ڤيولِت تصرُخُ بالباب، لا تبكي بل تُزمجِر. تساءلتُ ما إذا كانَت ستحملُ في رأسِها ذكرياتٍ غريبةٍ ومشوّهةٍ لي حينَ تكبُر: امرأة قَدِمَت لتمكث أسبوعًا ذاتَ صيفٍ، ثُمَّ رحَلَت. شرَعتُ في السَّيرِ، وأوتو يركضُ أمامي، يعوي ويتشمّمَ الأرض بأنفِه. أحسستُ بذاتِ الإحساس: مِن الجيّدِ ألّا يكونَ في الدّربِ سِوانا. حتّى لو كُنّا سائِرين عَودًا إلى النّهر. أدركتُ، إذ

وصلتُ إلى القناة، أنّي لم أودِّع فيونا. ولكن ربّما كانَ ذلكَ أفضل لكِلتَينا. فكَّرتُ في الشّوكةِ إذ كانت مُثقلَةً بالطّعام وهي في الطّريقِ إلى فمِها، وبغطاءِ المائدةِ إذ يكادُ يتمزّقُ تحتَ ذراعَيها، وبفمِها إذ ينفتحُ وينغلِق. وفكَّرتُ فيما باحَت لي به.

في الصيفِ الذي تلا رؤيةَ الفتى فيونا مشهدَ إخصاءِ الثيران، بدأ يُجرّبُ ارتداءَ ملابس أخواتِه. فيعودُ خلسةً إلى المنزل بينما الجميعُ في المدرسةِ أو العَمل. فيضعُ عليهِ فساتينَهُنّ ويتأمّلُ نفسه في مرآةِ خزانتهِنّ، ويدُسُّ قدَميهِ في أحذيتِهِنّ الصّغيرة. فكانَ يسلخُ ساعاتٍ طويلة في كنفِ الدانتيل الأحمر والجلد السّويديّ الأزرق والحرير. تُراهُما انتبها إلى شيء؟ والداهُ القَلِقان، إذ يخلعانِ حذاءَيهِما عند الباب، ويأكُلانِ التّوست. تُراهُما انتبَها إلى أنَّ ابنهُما سرَقَ شفرةَ أمّه وحلقَ بِها شعرَ جسدِهِ كُلّه؟ وأنّهُ صار يحلم ليلًا بالإخصاء، وبجُدرانِ السّقيفةِ الباردة، وببابِها ذي الصّرير الذي يُغلقُ في وجهِ الفارّين، وبالخُصى إذ تُفَقَّعُ كأنّها خوخ؟.

مرَّت بِهِ أعوامُ ذُكورة. ربّما تُعَدّ فلا تُحصى. ولكنّها لا تستحقّ الذِّكر. لم يُطلع والِدَيه على ما عزَم عليه. رحَلَ مُدرِكًا أنّهُ لن يعودَ أبدًا. ظلَّ بعضهُ هُناك، في سريرِهِ الضيّقِ القديم، أو راكِضًا إلى قمّة الحقل كي يُنقذَ عِجلًا شارِدًا. في المدينة، سيحظى باسمٍ جديد ووجهٍ مختلف.

مضَت نحو خمسة أعوام (من أعوامِ الأنوثة) وفيونا منكفئة على ذاتِها. كتَبَت رسالةً إلى والدَيها من غيرِ أن تُمهّرها بتوقيع. كتَبَت: «*أنا أعيشُ في المدينة. والناس الذين أمُرّ بهِم لا يعرفونَ أنّي رجُل. ويومَ أمس ناداني أحدُهُم في مَخبزٍ قائلًا: «يا سيّدتي». تُراكُما علمتُما بحقيقتي قبلي، ولكن لم تُسعفكُما اللغة لإخباري؟*» ولكنَّ والديها لم يرُدّا على الرسالة، وهيَ لم تلُمهُما. فهُما لم يكونا من صنفِ الناس الذي قد يردُّونَ على رسالةٍ من شخصٍ غريب. هيَ لم تعُد ابنهُما الذي كانَ يجلسُ بوقارٍ إلى مائدتهِما، ورِجلاهُ لا تكادانِ تلمسان الأرضيّة، ويداهُ مرفوعتانِ على المائدة. لم

تُرسِل لهُما أيَّ رسالةٍ أخرى، ولكنّها كانت -بين الفينة والفينة- تكتُب كأنّها ستُرسِلُ ما تكتُب إليهما. كتَبَت: *«حصَّلتُ وظيفةً في بقّالة. لا تروقُ لي، ولكنّها تُعينُني على دفع أجرة مسكني. لستُ ماهرةً بعدُ في التحدُّث إلى الناس، ولذلكَ أنا وحيدةٌ جُلّ الوقت. لا أفكّرُ فيكُما، ولا في المزرعة، ولا في أخواتي. مرَّ نحو عَقدٍ مُذ رأيتُكم آخر مرّة، وأنا لم أعُد مُطابقةً لذكرياتكم عنّي»*.

أمرٌ آخر. تغييرٌ لا علاقةَ لهُ بكونِها صارَت امرأة. بدَأ بأشياء صغيرة: أن تمُدّ يدَها لالتقاطِ كوبٍ قبلَ وقوعِه أصلًا، وأن تصطحبَ معها مِظَلّة رغمَ دفءِ الجوّ. بمرورِ الوقت، توضّحَ الأمرُ أكثر. تفاقَم الأمر: صارَت تتجنّبُ بعضَ الشوارع والمحالّ بلا سبب، وتسلُكُ دروبًا مختلفةً، ولا ترتدي تنّورةً رغمَ ثقتِها بجودةِ سحّابِها، ولكنّها تعرفُ -بيقينٍ لا تدري من أينَ أتى- أنَّ السحّابَ سينفكّ. لم تكُن حالتُها تلك، حسبما أدركَت، محضَ تكهُّنٍ أو إحساس، بل اطّلاعًا على الغيب. كأنَّ أجزاءً من عقلِها كانت فجواتٍ -ككهوفِ البحر- تمتلئ معرفةً ويقينًا بأمورٍ لم تكُن هُناك من قبل على حينِ غرّة.

رأت إعلانَ منزلٍ صغيرٍ موضوعًا على نافذة وكيلِ عقاراتٍ فَراقَ لها، فدَخَلت لتسألَ عنهُ وخرجَت متيقّنةً من أنّهُ سيكون من نصيبِها. أنهكها التّعبُ من التنقّلِ بينَ المُدن كُلّ شهر، راكبةً القطارات، مُترقّبة. سيكونُ من شأن المنزل أن يُثبّتها. ستدهنُ درجاتِهِ باللّون الأصفر، وحمّامهُ بالأخضر. لم يكُن في حوزتِها أثاث، ولكنّها تصوّرَت نفسَها ساكنةً في ذلكَ المنزل، تحتسي قدحَ نبيذٍ على عتبةِ الحديقة، وتُشرِعُ نوافذَ المنزلِ العنيدة.

بعدَ نحوِ أسبوعٍ من انتقالِها إلى المنزل، أقبلَ إليها رجُلٌ حامِلًا خُبزَ مَوز، وقالَ إنّهُ يسكُن في المنزل المُجاور، وحثَّها على ألّا تتردّدَ في الطّلبِ إن احتاجَت إلى شيء. كانَ يعلوهُ -بنظّارتِهِ التي يضعُها على وجههِ البَدريّ وبُلوزتِهِ المُخرَّمَة- سمتُ بومة. أعدَّت لها ولهُ شطيرتَين، فدعاها إلى العَشاء، فأحسَّت بشَوقٍ إلى شيءٍ لم تُدرِكهُ بَعد. بمعرفةٍ خطيرةٍ لا حقَّ لها فيها، تشُقُّ طريقَها إلى عقلِها رُوَيدًا. تأمّلَت الرّجُلَ بأناةٍ إذ يلتهمُ شطيرته ثُمَّ يغسلُ طبقَهُ - من غيرِ أن تطلبَ منه ذلك. ماذا كانَ الأمر؟ ماذا أبصَرَت

حينَ حدّقَت إليه؟ أخبرَها عن لاورا، حبيبتِه، وعن ابنتِهما مارغُت التي كانت مفتونةً بِها.

– «مفتونةً بي؟ أنا لم ألتقِ بها بعد!».

قادَها إلى الحديقة، وأشارَ إلى نافذةِ منزلِه، حيثُ رأت -لوهلةٍ- وجهًا يُطلُّ عليها منها.

– «أخشى أنّها لا تنفكُّ تراقبُكِ. وقد كان من المفترض أن تجلبَ لكِ الخُبز بنفسِها، ولكنّها أحجَمَت».

أمكَنَ فيونا إبصارُ الفجوات التي ستعترضُ طريقَ الرّجُل، والحُفَر التي سيسقطُ فيها. ولكنّها لم تعرف كُنهها. عرفَت فقط أنّها ستعترض طريقَه. أخبرته بأنّها ستُشاركهُم العَشاء.

أنزَلَت الألفةُ التي ألفَتها عندهُم السّكينة على قلبِها. فصارت تقصِد منزلهُم أوقاتَ الطعام غالبًا، فتقرأ لِمارغُت عند المائدة. نسيَت، شيئًا فشيئًا، الإحساسَ الذي اعتراها في ذلكَ اللقاء الأوّل، والذي كانَ سببَ مُصادقتِها لهُم ابتداءً. كانت تُعِدّ لهُم وجباتٍ رديئة في مطبخِهم الصّغير، كما سمحَت لمارغُت بزراعةِ الكوسا في حديقتِها. احتفلوا بأعيادِ الميلاد معًا ببساطةٍ أدهَشَتها. إذ إنّهُم لم يكونوا عائلتها، لم يكونوا دمَها. وكانت مارغُت تُشكِّلُ بالعِصِيّ رسوماتٍ، فتُكمِلُ فيونا نقصَها بيديها الكبيرَتين بينما ثغرُها مُفترٌّ عن ابتسامةٍ عريضة.

مرَّ عامٌ سيّء. مرّت أعوامٌ سيّئةٌ قبلَه، ولكنّها لم تكُن متوفّرَةً بعدُ على موهبةِ التنبّؤ بقدومِها وإبصارِها قروحًا قد برَزَت في جسدِ الأعوام. كانت قد وثّقَت في مذكّراتِها تواريخ الأيام التي يتوجّبُ عليها فيها الذهاب لزيارة لاورا وروجَر، بيدَ أنّها كانت تُفوّتُ بعضَها إذ تستيقظُ فتجِد أنَّ أسبوعًا كاملًا قد مضى من غيرِ أن تدري كيفَ أمضته. وكانت أحيانًا تستيقظُ في حمّاماتِ مقاهٍ، أو في حافلاتٍ، أو حُجراتٍ لم تعرفها قطّ. صارَ الوقتُ يتكسَّر، وينحلُّ عقدُهُ، ويضعُفُ كالصّلصال.

صارت تقرأ الطالِعَ ببطاقات التّاروت في حُجرات المحالّ الخلفيّة، أو تكسبُ شيئًا من المال بالتّنبؤ في السباقات رغمَ أنّها -مثل سائر الناس-

كانت عُرضةً للخطأ كما كانت عُرضةً للصّواب. وصارت تنشل الجيوب، وتسرقُ البيوت، كما أمضَت بعضَ الليالي في السّجن. بل فاتَها موعدُ دفع الأُجرة ولم تعُد إلى المنزل. صارت تنامُ تحتَ الجسور، وفي مداخل البيوت، وعلى الحافلات. كما صارت تنامُ في محطّات القِطار، وتتنبأ بتأخّر بعضِ القطارات وإلغاء بعض الرّحلات قبلَ أسابيع من حدوثِها، مُراقبةً المقطورات الرّتيبة إذ تأتي وتذهب جالبةً وآخِذةً ذات الأشخاص.

اشتدّ الأمرُ سوءًا. لم تعُد الأيّام تسيرُ في خطّ مستقيم، بل صارت تقفزُ إلى الأمامِ أو إلى الوراء قفزات. وصارت تُدرِكُ أنَّ كُلّ ما تنبَّأت بِهِ أحدثَ آثارًا وعواقِب. فكانت الأكواب التي تلتقطُها قبلَ وقوعِها تتكسّرُ في يديها بعدَ ساعات من غيرِ سبب، والمظلّات تتشقّق في أثناءِ العواصف المَطَريّة المُباغتة. صارت تُطارِدُ كُلّ من أنذرَتهُ خلالَ الأعوام الفائتة: أولئكَ الذين منعتهُم من عبور الإشارة الضوئيّة، وأولئكَ الذين منعتهُم من ركوب الطائرة، وتلك المرأة التي أنبأتها بأنَّ سرطانًا سيُصيبُ معدتَها. بادئ الأمر، كانت الحالاتُ أقلَّ من أن توصَفَ بالنَّمط المتكرّر، ولكنّها بمرورِ الوقت ازدادت بصورةٍ كبيرة. فبعدما أخمدَ الأطباءُ سرطانَ تلكَ المرأةِ وهوَ بعدُ في المهد، عادَ ليلتهمَ جسدَها كُلّه بقوّة غير معقولة، كما وقعَت كُلّ حوادث السّير التي كانت قد منعَتها خلال الأعوام الفائتة بقوّةٍ أكبر. أوشكَ إدراكُها الأمرَ يُفقِدُها صوابَها، فأودَعَها الأطباءُ عِدّةَ مصحّاتٍ لستّة أشهُر، فظلّت تتنقّلُ من مصحّةٍ إلى أخرى ومن مركز تأهيلٍ إلى آخر. لم تكُن على الشاكلة التي خالَتها. لم تكُن قطُّ قادرةً على تغيير مَحتوم، فقد كانَ المحتومُ يظلُّ محتومًا. وهيَ لم تُطِق ذلكَ ولم تحتمِله.

ولمّا ظهرَت مُجدّدًا ببابِ روجر ولاورا، قرّرَت أن تغُضّ طَرفها عن سِوى اللّحظة الراهنة. لم يسألاها عن غَيبَتِها، أو عمّا حدا بها إلى الرّحيل لعامٍ كامِلٍ من غيرِ إنذار، فأراحَها تصرّفهُم ذاك وأشعَرها بالامتنان.

بعدَ مرورِ ثمانية أعوام على لقاءِ فيونا بِمارغُت أوّل مرّة، استيقظَت يعتريها وجعُ رأسٍ هوَ الأسوأ مُنذ نحوِ عَقد. فكّرَت: الماذا يُسمّونهُ وجعَ رأس

والمرءُ يُحسُّ بوَجَعِهِ في لِثَتِهِ وأسَلِتِهِ ورُكبتيه؟). ملأت الحوضَ وغمسَت وجهها فيه، ولكن سُدى. مضت أعوامٌ مُذ أبصَرت من الغَيبِ عِلمًا آخر مرّة، ولكنَّ صُداعَها هذا جلبَ معه عِلمًا غضًّا خطيرًا. فألفَت المنزلَ كُلّه يهمِسُ لها بِما سيحدث. أبصَرَت العوارضَ الخشبيّة تتقوّضُ والعِليّةَ تسقُط خانِقةً الحُجرات وماءَ النّهر يرتفعُ ويبتلعُ الحديقة. لم تدرِ متى سيحدثُ ذلك، بل إنهُ سيحدثُ فحسب: يومًا ما سينهارُ المنزل.

ولمّا عادَت لتخلُد إلى النّوم، تذكَّرَت ما كانَ ذلكَ اليوم. كانَ يومَ ذِكرى ميلادِ روجَر. ارتدَت ملابسَها، وابتلعَت أقوى مُهدّئات وجدَتها في الخزانة، وشرِبت شيئًا من الڤودكا في المطبخ لتسندَ نفسها. ساعَدَت جيرانَها في التّزيين، وخَبَزَت كيكةً علِمَت أنّها لن تخرُج بالقَوامِ المطلوب. وانتعلَت أطوَل أحذيتِها نعلًا. ورقَصَت رغمَ الدَّوخة التي اعترَتها كمَوجةٍ، ورغمَ التّنميل الذي أحسّت بهِ في يديها. وقفَت تنتظرُ أن يغمُرَها، ذاكَ الذي كانَ مُقبِلًا صوبَها سابِحًا، قاطِعًا كُلّ الاحتمالات حتّى لم تبقَّ سِوى حتميّة واحِدة. ولحظةَ أبصرَتها، أبصَرتها بكُلّ بساطة ويُسر.

كانت مارغُت تُقطّع الكيكة إلى شرائح. وكانَ روجَر ولاورا ثَمِلَين، يرقُصانِ رقصةً لا اسمَ لها. انبسَطَت عيناها كمطّاطَتينِ في رأسِها. تمنّت من قلبِها لو أنّها لم تعرِف ما سيحدُث، ولم تعرِف شيئًا قطُّ أبعدَ مما تُيسّرهُ لها حواسُّها البَصَرُ والسّمعُ واللّمس. أمسكَت رأسَها بكلتي يديها وتمنّت أن تنغلقَ كُوّة الغيبِ تلك، ولكنّها ظلّت ثابتةً كالحديد، حتميّةً كالفصول، صُلبةً كَجُلمود. لم يُهِمّها إدراكُها مُؤخّرًا بألّا تغييرَ للمحتوم. فكَّرَت إذ تُزيحُ كُرسيَّها بأنَّ إدراكَها ذاكَ قد يكون خاطئًا. وقد يتغيَّرُ المحتومُ هذه المرّة. كانَ عليها أن تُحاوِل.

ولمّا ذهبَ روجَر ولاورا ليناما، ألفَت فيونا مارغُت في المطبخ تغسلُ ما تبقّى من الأطباق. رأت انعكاسَ وجه مارغُت في زُجاج النافذة، مُزدوَجًا، غَبِشًا.

– «المعذرة»، قالَت، فالتفتت مارغُت إليها. بدَت، حسبما ظنَّت فيونا، مذعورة. «لا أودُّ أن أخبركِ بما أبصَرت، ولكنّي أبصرتُه بجلاء، كما يُبصِرُ المرءُ مسقطَ رأسِه ويحفظُ اسمَه عن ظهر قلب، أو اسمَ أمّه».

لم تنبس مارغُت بكلِمة. حدّقت فيونا إليها. أرادَت أن تسحبَ كلامَها. رغِبَت في أن تحذفَه، في نوبةِ صرَع أن تأتي على دِماغِها فتكنُسه وتتركهُ مَهْمَةً قَفْر. فضَّلَت ألّا تعرفَ شيئًا البتّة على أن تعرفَ هذا الذي باتت تعرفُه. أمسكَت مارغُت من كتفَيها وباحَت لها بما أبصَرتها ستقترِفُه. وراءَ مارغُت، كانَ المَغسَل قد امتلأ عن آخره، تطفو على مائهِ رغوةُ صابون بنّية. لأقلَّ من هُنيهةٍ، راودَ فيونا خاطِرٌ أن تغمسَ رأسَ مارغُت في المَغسَل، وتُثبّتهُ حتّى انقطاع النَّفَس. كي تُميتَ ما سيحدُثُ غرَقًا.

- «لا أصدّقُكِ»، قالَت مارغُت، رغم أنّها لم تكُن متيقّنةً من ذلك. فطالَما آمَنَت بأنَّ فيونا قادرةٌ على استشفافِ الغَيب. «أنا متيقّنة من أنّني لن أقترفَ ذلكَ الآن وقد أخبرتِني. سأتفادى ذلك».

- «عليكِ أن ترحلي اللّحظة. سأنتظرُ هُنا حتّى تُغادِري»، قالَت فيونا.

ساعَدَت مارغُت في حزمِ حقيبتِها، ووضعَت لها فيها -معَ الملابس- طعامًا من خزائن المطبخ والثلاجة، وملأت لها قنّينة ماءٍ من الصّنبور. ثُمّ جلسَت مارغُت على آخرِ درجةٍ في السلّم، فانحنَت فيونا وعَقَدَت لها رباطَ حذائِها. ذكَرَت مارغُت شيئًا عن تركِ رسالةٍ لأبوَيها، أو ملحوظة، أو أن تصعدَ وتودّعهُما. ولكنَّ فيونا وقفَت سدًّا ومنعَتها، حتّى يئِسَت مارغُت ورحَلَت.

لاحقًا، أضحَت الأعوامُ خافتةً في ذاكرَتِها، فلم تعُد قادرةً على سوى استذكارِ الفُتاتِ منها: بطاقة مِفتاح المنزل الحمراء التي كانت تسكُن في إحدى حُجُراته، والكعب الطّويل الذي انكسَر من حذاءٍ تركَتهُ في مكانٍ ما، وتذاكر قطارٍ لا تذكُرُ أنّها ابتاعَتها أو استعملتها. ظلَّت لمُدّةٍ تُطارِدُ مارغُت آمِلةً العثورَ عليها، عند الأنهار النائية. لا لتُعيدَها إلى منزلِها، بل لتطمئنَّ فقط إلى أنّها في خيرِ ما يُرام، وأنَّ فيونا فعلَت الصّوابَ بإبعادِها إيّاها. إلّا أنّها لم تعثُر عليها، ولم ترَ منها طيفًا حتّى، ولم تُبصِر من طرَفِها أدنى معرفةٍ من كُوّة الغَيب. كأنّما، بفَعلتِها تلك، أغلقَت فيونا بابًا لن تتمكّن من فتحِه ثانيةً أبدًا. ظلَّت هائمةً جوّالة (لم تقدر على استذكارِ الأماكن التي هامت فيها). ثُمَّ أحسَّت بنفسِها تنجذبُ عَودًا إلى منزلِها، حيثُ يعيشُ روجَر ولاورا، المكان الوحيد الذي ألِفَتهُ وأحبَّتهُ قطّ، حيثُ الستائرُ على النّوافذ مُسدَلَة.

النَّهر

لحظةَ بزغَ شُعاعُ الصّبح الأوّل، خرجَ ماركُس من الخيمة ووقفَ رامِشًا، جافَّ الفَم. كانَ التيّار قد تباطأ قليلًا، والأشجارُ واقفةٌ على اليابسة لا الماء. كما كانَ ثمّتَ لسعةٌ تجمُّدٍ في الهواء. ألفى أصابِعَهُ قد ازرقّت بردًا. جاهَدَ في جمعِ بعض خشبِ الاشتعال من على الأرض، وحينَ فعلَ وعادَ به، أدركَ أنّه لا يتوفّر على عود ثقابٍ يُشعلهُ به، ولا ورق، ولا معرفة بكيفيّة إشعال النار. جلسَ في الخيمة مُتلفّعًا بكُل بُلوزاتِه الثقيلة، ومتدثّرًا بلِحافِه. راحَ يفكّرُ في ذراعَي سارة حينَ رفعتهُما فوقَ رأسِها كأنّها تُريد أن تتحرّرَ من قفصٍ هيَ حبيستُه. استلقى على ظهره، وغطّى رأسهُ باللّحاف واستذكَرَها حينَ أوقَعَت وعاءً -في وقتٍ متأخّرٍ من الليل- وهتَفَت بصوتٍ عالٍ: هاربيدودُل! وهيَ كلمةٌ لم يخالَها حقيقيّة، ولكنّها أوجَدَتها بنُطقِها لها فحسب. لم يسبق لهُ أن التقى بمثلِها قطّ. أحسَّ بأنّهُما مُتصّلانِ بطريقةٍ عصيّة على الفَهم. تمنّى لو أنّهُ لم يلتقِ بها، وتمنّى لو أنّهُ يقدِرُ على رؤيتِها كُلّ يوم حتّى آخر عُمره! ولمّا أغرقَ في التّفكيرِ أدرَكَ أنَّ هذا هوَ الإحساس الذي اعتراهُ حينَ رأى لِصّ القناة - أنّهُ يُريدُ ولا يُريدُ رؤيتهُ في آن!.

نهض واقفًا. أرادَ أن يذهبَ إلى القارب ويسألَها أن تُعلّمهُ كيفيّة إشعال النار. ستقول: «بالتأكيد»، أو «امكُث معنا هُنا، فإنَّ لدينا نارًا». كانَ سيُنعِمُ النّظر في حركةِ فمِها إذ يتلفظُ بالكلمات، وفي كُمَّي قميصِها المُستريحَينِ على جِلدِها الأسمَر، وسيتنسَّمُ رائحتها القريبة إلى رائحة المَلح إذ تتحرّك.

كانت السّماءُ تُمطر رذاذًا. فصارت أجراسُ غْرِتِل تتحرّكُ بثباتٍ في الأجمات، مُثقَلَةً بأجسامِ الطرائد الصّغيرة. لم يتمكّن من رؤية القارب بسبب

العُشب. مشى مُتثاقلًا، داسًّا يديهِ في جيبَيه طلبًا للدّفء. سمِعَ إحداهُما تشدو مُغنّيةً، لا بقصيدةٍ بل بنغمةٍ ثابتة مُطَوَّلة. ولمّا جاوَزَ ناصيةَ الضفّة ورأى القارب، توقّف.

كانت سارة قد وَصَلَت خرطومَ الماء بالخزّان، ورفَعَتهُ فوقَ رأسِها. وكانت التّربة تحت قدمَيها قد استحالَت إلى طين، وعلى إبِطَيها برزَ شعرٌ كثيفٌ وداكِن. اضطرَبَ الخرطوم وانفلَتَ، فانسكبَ ماؤهُ على وجهِها وفي فمِها المفتوح. توَرَّدَت بشرتُها من فرطِ البرد. وظلَّ مُحرّكُ القارب وراءَها مُهَمهِمًا.

سبقَت لِماركُس رؤية أناسٍ عُراة. فقد سبقَ أن دخلَ على لاورا -خطأً- وهي تغتسِل ورأى ثنايا بطنِها الورديّ، وإبطَيها الشّاحِبَين. كما رأى ساقَي روجَر ذات العُروق الزّرقاء، ومؤخّرتهُ النّحيلة. ورأى أيضًا بعضَ فيونا من خلالِ بابِها المشقوق: شقّ مؤخّرتها البائن من وراءِ سحّابِ تنّورتِها المفتوح، وطيفِ قضيبِها من وراءِ لباسِها التحتيّ.

أمّا ما رآهُ عند القارب فكانَ مُختلفًا. وكانَ قد فاتَ أوانُ إشاحته نظَرَه. رأى ثَديَيها -ثديُها الأيسرُ أكبرُ قليلًا من الأيمن- يتأرجحانِ بينما راحَت تفرُكُ شعرها بكلتي يديها. والعضلَتين المشدودتين في قمّة ذراعَيها النّحيلَين، والزّغبَ على رَبلَتيها، وطيفَ عظمِ الفَخِذين وراءهُما (التمعت في ذهنه ذِكرى صورة الأشعّة)، وانحناءةَ وَرِكِها، وخَطَّ رُكبَتِها. وذاكَ أيضًا، فوضى الشّعر في تلكَ البُقعةِ بينَ ساقَيها، إذ يمتدُّ قليلًا في خُصلاتٍ صغيرةٍ نزولًا صوبَ فَخِذَيها. ظلَّ مثبّتًا عينيهِ على ذلكَ الشَّعرِ حتّى لم يدرِ -بعدما فرَّ هارِبًا- منذ متى انتبهَت لتلصّصِهِ عليها وبدأت تُحدّقُ إليه.

لمّا استيقظَ لاحقًا يومئذٍ، ألفى غرِتِل مُقعيةً بجوارِه يكادُ أنفها يلمسُ أنفَه، تُطوّقُ وجهه بكلتي يديها. حبسَ أنفاسَه. كانت عيناها جاحِظَتين وثابتَتين.

– «فُزت عليك!»، قالَت حينَ رَمَش، ونَدَّت عنها ضحكةٌ كالفحيح. «تقول سارة إنّها بحاجةٍ إلى مساعدتِك».

لمّا وصلا إلى القارب ألفيا امرأةً، جزّارَةً، واقفةً تدخّنُ سيجارةً ملفوفةً

في وسطِ الدّرب، باصقةً شذراتٍ من التّبغ. كانت فارعة الطول، ويداها صغيرَتين وشعرُها زَغَبٌ فقط. بالمقارنة مع سارة، بدَت كأنّها دُبّ. التفتت كلتاهُما لتنظُرا إليه إذ يدنو منهُما، فقالَت الجزّارة شيئًا لسارة لم يتمكّن من سماعِه، ولكنَّ سارة أجابَت عليهِ قائلةً: «صدقتِ». انحنَت الجزّارَة لتُطفئَ سيجارتَها.

وقفَ ماركُس مُنتظرًا أن تقولَ لهُ سارة شيئًا بخصوصِ تلصّصهِ عليها وهيَ تغتسلُ بخرطومِ الماء، ولكنّها لم تَزِد على أن قالَت: «هلّا ساعَدتَنا؟»، مُشيرةً إلى قارب الجزّارة. تبِعَها. فلمسَتهُ بأريحيّة، لمسَت يدَهُ وكتِفَه، وحدّثتهُ في أمرٍ أفقدَهُ تركيزَهُ فلم يفهَم ما هو. كانت رافعةً شعرها مُعَرِّيةً عُنُقَها، فبدا أشبَه بحَبل. حفِظَ كُلّ بقعةٍ لمَسَتها من جسدِه. هُنا، هُنا، هُنا. أصدرَت صوتَ فرقعةٍ بلسانِها في استياء. رأى نُدبًا على عُنُقِها، فوقَ الشّريان، كأنَّ أحدًا ما حاولَ خَنقَها. زادَ ذلكَ يقينَهُ بأنّها مَنيعةٌ بطريقةٍ ما، ومَصنوعةٌ من طينةٍ غيرِ طينةِ هذا العالَم.

ساروا نزولًا إلى القارب. كانت الذبائحُ هُناكَ مُلتمعةً بالدّهن الأبيض، وأرجُلُها سمينةً كَصَدره العريض. لم يقدر على تمييزها: أهيَ خنازيرُ أم أبقار أم أغنام. كان قارب الجزّارةِ باردًا كزنزانة، والذّبائحُ مُتدلّيةٌ من الخطافات المثبّتة إلى الجدار. أمسكَت سارة بذبيحةٍ وأفلتَتها من خُطّافِها، فأمسكَها ماركُس من أسفلِها مُنحني الرُّكبتَين مُرتعِشًا، وأنفاسُهُ قد صارت حَرّى. كانَت تلكَ الذبيحةُ أثقلَ شيءٍ حملَهُ قطّ. ولمّا شرعَ يصعدُ الأدراجَ الحديديّة، خانتهُ ساقُهُ المُصابة فهبطَت الذّبيحةُ مُستنِدةً على وجهه، بينما فرقَعَت سارة بلسانِها فوقَه. قدَح ذلكَ المشهدُ في ذهنِهِ مشهدَ جَرِّهِ الرّجُلَ القَتيل صعودًا درجاتِ ذلكَ القارب الآخر، في مشقّةٍ مشابهةٍ لهذه المشقّة. حبسَ أنفاسَه، وأحسَّ بيديه ترتعِشان.

– «هيّا، احمِلها»، قالَت آمِرَةً، حتّى استعادَ توازُنَهُ ووقفَ على ساقيه. «هيّا. تعَ، تعَ!».

وَدَّ أن يُخبرَها بأنّهُ لم يتعمّد التلصُّصَ عليها، ولا أن يُنعمَ النّظرَ في شعرِها الرّطبِ وثديَيها المتأرجِحَين، أنّهُ يعتذرُ منها. كانت غرِتِل تتقافزُ راقصة في

الدّرب، مُشاكِسةً القُرّاص كأنّه أليفٌ ولن يؤذيَها، خالِعةً حذاءَها، وغارزةً يديها في الوحل ورافعةً رِجلَيها إلى الأعلى. كانَ ثمّتَ تربولين (وهوَ غطاءٌ مُشمّع) مبسوطٌ على الأرض. وضعوا الذّبيحة عليه. بدأ ماركُس يُميّزُ أعضاءَها: رِجلَيهِ البارِزَتين، والخطّ المُستقيم الدالّ على مكانِ الرأس المقطوع. وكانت ثمّتَ حقيبةُ ملحٍ قماشيّة. وقد أرَتهُ سارة كيف يفرُكُ جسمَ الذّبيحةِ بالملح.

– «لا»، قالَت. وبسطَت يدَهُ فوقَ الذّبيحة، ووضعَت يدها فوقَ يدِه وضغَطَت. «بقوّة، هكذا». كانَ جلدُها خشِنًا، وإبهاماها كأنّهُما حزامانِ جلديّان. ظلّا يفركانِ الذّبيحة بالملح حتّى تخلّلَ الملح أظافِرَه، كأنّهُ هوَ الذي فُرِكَ ليُحفَظَ لا الذّبيحة، فصارَ جِلدُهُ منيعًا حتّى لم تقدِر الماءُ على الوصولِ إليه. فكّرَ -لوهلةٍ- في إحساسِ التنفُّسِ تحتَ الماء. لا بُدَّ أنّهُ سيكون إحساسًا مُبهِجًا. فهُناكَ لن يقدرَ أحدٌ على رؤيتِه. سيسبح في عُمقِ الماء، لولا -تذكَّرَ فجأةً- أنَّ الرّجُلَ المَيْت قابعٌ هُناك.

تناوَلَت يدهُ مجدّدًا. «إلى أسفل، اضغط إلى أسفل». أحسَّ بشيءٍ من العار لكونِهِ قد صارَ واعيًا بكُلّ جُزءٍ من جسدِها. حاولَ صرفَ ذهنِهِ عنها والتّفكير في سواها من الأمور المنطقيّة: في معادلات الضّرب، أو الحدود الفاصلة بين البُلدان. رفعَت يدَها عن يدِه، فأحسَّ بأنَّ جُزءًا منهُ قد بُتِر.

– «ليست هذه سمينةً كالذبيحة السابقة»، قالَت للجزّارة التي كانت مُنشغلة بلَفِّ سيجارتينِ لكلتيهِما، وغْرِتِل تجذبُها من كُمّها.

– «أستهجنُ قولكِ هذا»، قالَت الجزّارةُ من غير أن تصرِفَ نظرَها عمّا بين يديها. «فهذه الذبائحُ من المزرعة نفسها. وهُناك يسمّنونها من طعامِهم فقط، ويعتنون بها كما يعتنونَ بأطفالِهم الرُّضَّع».

– «هيَ نحيلة من وسطِها»، قالت سارة. «وأكبر سنًّا. يُمكنني الإحساسُ بذلك. فلتضربي لها سعرًا عادلًا».

عرفَ ماركُس أنَّ سارة ستحصُلُ على ما تُريد. قطّبَت الجزّارةُ حاجِبَيها، ووقفَت بثباتٍ على الأرض، بيد أنَّ سارة لم تتزحزح عن موقفِها. فكّرَ في أنّها لم تطلُب قطُّ شيئًا إلّا أعطِيَتْه. وتساءل عمّا ستطلبُهُ منه، فأحسَّ باضطرابٍ في

معدتِه. وتساءل عمّا إذا كان جديرًا به أن يرحل قبل أن تطلُبَ منه شيئًا. إلّا أنّه لم يكُن واثقًا من أنَّ رحيله الآن ممكن، إذ إنّهُ قد رسا الآن، أليسَ كذلك؟.

– «حسنٌ»، قالت الجزّارة، ومدّت يدها.

شاهدهُما ماركُس إذ تتصافحان، ثُمَّ تجلسان على حافّة الضفّة. نقلَت غْرِتِل لهُما أكوابَ الشاي، مغمغمةً وهامِسة، حينَ طلبت منها سارة فِعل ذلك. أمّا هوَ فلم ينبس بكلامٍ كثير. وماذا عساه يقول؟ وحينَ سألَت سارة عن الأحوال أجابتها الجزّارةُ مُتحدّثةً عن جهةِ مصَبِّ النّهر، حيثُ السّفُن كبيرةٌ كالمنازل والتّيارُ قويٌّ حتّى ليقلبُ القواربَ رأسًا على عقِب كما يفعل البَحرُ مع السُّفن، وعن العفن الذي أتى على نصفِ قاربِها الأماميّ ما اضطرّها إلى التخييمِ في حُجرةِ جلوسِ منزل أختِها لشهرٍ ريثما ينصلِحُ القارب، وعَن احتمالِها مُحادثةَ زوج أختها قذِرِ اللسان.

كانَ ماركُس ينظرُ أحيانًا، فيرى سارة تَلحَظُهُ من خلال دُخانِ سيجارَتها. فأحسَّ بالورقِ الحراريّ حولَ ثَدييهِ قد انزاحَ قليلًا.

– «مررتُ بمشكلةٍ خلالَ الأسبوع الفائت أيضًا»، قالَت الجزّارَة إذ تنهضُ واقفةً تتمطّى. على سطح القارب وقفَت غْرِتِل على يديها غيرَ ثابتة، تقلقَلَت، فسقطت إلى الأمام.

– «وما كانت تلكَ المشكلة؟»، قالَت سارة.

– «وقعت يوم الإثنين الماضي. لم أسمع شيئًا حتّى، بيد أنّي لمّا خرجتُ في الصباح ألفيتُ القفل مكسورًا. أيًّا كانَ الفاعِلون، فقد سرقوا إحدى البقرات التي آخذُها بينَ الحين والآخر من مزرعة بروك، هيَ أضخمَ منّي ومِنكِ مُجتمِعَتين، وقد قامَوا بتقطيعِها في الدّرب، ثُمَّ حملوا معهم قِطعًا كبيرةً منها».

– «قطّعوها؟».

– «نعم. كما سرقوا بعضَ الطّيور أيضًا. دجاجتين. وذلكَ الرّجُل –نسيتُ اسمَه– لا يطلبُ سِوى طيور السُّمّان، ولذلكَ أجلبُها دائمًا بالعشرات. فقدتُ يومئذٍ مِن تلكَ الطيور نصفَها أيضًا».

– «أتظنّين أنّهُم كانوا ثلّة من المراهقين؟».

– «ربّما. كم أفزعني الأمر! لم أسمعهُم إطلاقًا. رغم أنَّ نومي ليسَ ثقيلًا، وأحيانًا لا أنام. كُنت سأسمعُ صخبهُم، حسبما أظنّ، لو كانَ السارقونَ مُراهقين. فعادةً ما أسمعهُم حينَ يأتون بحثًا عن مكانٍ يسكرونَ فيه».

– «ماركُس أتى من حيثُ أتيتِ. وقد سمَع عن بعضِ الحوادث، أليسَ كذلك يا ماركُس؟»، قالَت سارة.

– «بلى»، قالَ مُزدرِدًا ريقَه، مُحاوِلًا ألّا ينظرَ إلى أيٍّ منهُما، فحدّقَ إلى السماء رافعًا رأسَه.

– «وماذا سمِعْت؟»، قالَت الجزّارَة.

جاهَدَ لإخراجِ الكلمات.

– «لا أدري. سمِعتُ بعضَ صيّادي السّمك يتحدّثون عن ضياعِ أشياءٍ في الليل، ففكّرت.. فكّرت..».

كانَ على وشكِ إخبارِهما بما رآهُ في الغابة يومئذ –مؤطّرًا بالنّور– ولكنّهُ أدرَكَ إذ يُحدّقُ إلى وجه سارة أنَّ كلامهُ سيبدو مثلَ كلامِهِم في الليلةِ البارحة: جنونًا، محضَ هلوسات.

– «من الذين سرقوا البقرةَ إذًا؟»، قالت سارة.

فمدَّت الجزّارةُ ذراعيها كُلًّا في اتّجاه، خائبةً، وقالت:

– «لا أدري»، وأزالَت كُتلة وحلٍ كانت ملتصقةً بظهرِ نعلِها. «ولكن لا أخالهُم يأتون إلى هُنا. فماذا هُنا ليسرقوه؟ أتريدينَ زوجينِ من الأرانب؟».

– «هيّا».

راقبوها إذ تذهبُ وتركبُ قاربَها الذي بدا غائصًا في الماء لِثقَل حملِه. جلسَ ماركُس هادئًا.

– «أشمُّ رائحة مطَر»، قالَت سارة بينما تنهض واقفة. «هلّا أعنتَكَ على النهوض؟». أصابَت في توقّعِها أنَّ قوّة ساقِهِ المُصابة قد خارَت. ألفَت اليدَ التي أمسكَت بها عريضةً ومبسوطةً كدفّة مركِب.

– «لا يُمكن شمُّ المطَر»، قالَت غرِتِل.

– «بل يُمكنُ شمُّه. رائحته كالحديد. والآن، فلنُشعل المصابيح».

علّمَتهُ غرِتِل لُعبة سْكرابِل. كانت النارُ مُحاطةً بالأخشاب، وكانَ القاربُ دافئًا كفُرن ومُضاءً بشموعٍ تذوبُ على الجُدرانِ الرّطبة. خالَها تغشّ. إذ إنَّ الكلمات مُخادِعة ولا ثباتَ لها، ودائمًا ما تتلوّى فارّةً كأسراب السّمَك. تمنّى أن يلعبا لُعبة الصّور المُقطّعة بدلًا من سْكرابِل، مثلما كانَ يلعبُها في منزله ذاك، وقطعُ الصّور متناثرة على الأرضيّة. كانَ أحيانًا، إذ يختلسُ النظرَ إلى الأحرف، يخالُ أنّهُ على شفا حَلِّ إحدى الكلمات، ولكنّهُ في نهاية المطاف لا يجِد سوى هذه الكلمات: أيضًا، دهن، هذه.

– «لا»، قالَت غرِتِل. «يُمنع اختيار أكثر من حرف واحِد».

– «هذا ليسَ قانونًا».

– «بل هو قانون».

أحسَّ بالورق الحراري حولَ ثَدييهِ مشدودًا ورطبًا. رَغِبَ في انتزاعِه ورميِهِ في النّهر. ولكنّهُ لم يجرؤ على ذلك. كانت سارة تظهرُ في ضوءِ المصباح وتختفي، شاحذةً السّكين التي استعملتها لنَحرِ الأرنب، مُعلّقةً الذبائحَ في خطّافات السّقف. حطَّ العثُّ -إذ جذبهُ الضوء- على الطاولة، باسِطًا وقابضًا أجنحته. اقتربَت سارة من ماركُس، وأخذت تُحرّكُ أحرُفه وتدنو منه أكثر حتّى أمكنه الإحساس بدُخان سيجارتِها إذ تنفثُهُ على ظهرِ عنقِه.

في خيمتِه، دسَّ يده في جيبِه. فلمست أصابعه مخلوقًا ناعمًا، فأخرجَهُ من جيبِه بسُرعة. رأى الفأرُ النّهرَ فارتسمَت صورةُ الماء المتموّجِ في عينيه. رفعَ ماركُس يدَه، هامًّا بإلقاء الفأر صوبَ الحقول. إلّا أنّهُ منع نفسه إذ خطرت لهُ فكرة. فانحنى ببطءٍ، وأنزلَهُ عند مدخل الخيمة متكوّرًا على ذاتِه، نائمًا. كأنّهُ سيقفُ حارسًا الخيمة من الأخطار: من الماء والشّجر والرّجُل الذي قتلهُ من غيرِ قصدٍ والفتاة صاحبة المصائد والمرأة صاحبة اليدين السّريعتين والشّعر الدّاكن الذي تخيّلهُ مُنسدلًا على وجهه.

المُطارَدة

سِرتُ نزولًا من المنزل سالكةً الطّريقَ المُفضيةَ من الجسرِ إلى الدّربِ المُحاذي للنّهر. سبقني أوتو، عائدًا بينَ الفينة والأخرى إليَّ كي يطمئنَّ إلى أنّي أتبعُه، ثُمَّ يسبِقُني مجدّدًا. كانَ ماءُ القناةِ بُنيَّ اللونِ وكثيفاً. كانَ هذا الجُزء من البلدةِ ذاتَ يومٍ محضَ مخازِنَ ومرائِب سيّارات، غيرَ أنّهُ اليوم اشتُرِيَ، وهُدِمَ، وطُوِّر. عندَ الجسر الأوّل، صادفتُ مراهقينَ نحيلين مُقبلين بتثاقُلٍ من الأعلى، صاخِبين. جلسوا يجفّفونَ أنفسهُم على ضفّة النّهر، حاملينَ عُلَبَ نبيذ ستِلّا. وكانت الشّمسُ حارقة.

الآنَ، وقد تذكَّرتُ المخلوق الذي كانَ عند النّهر شتاءئذٍ، أصابني منظرُ الحجارة المُتقافزة على صفحة الماء، والفِتيان المُنغَمرينَ فيهِ رافعينَ أذرُعَهُم حتّى تغوصَ في الماءِ أخيرًا، بالغثيان. انزلَقَت عربةُ امرأةٍ في الماء، فوقَفَت حاملة طفلَها بينَ يديها تندبُ مُشترياتِها التي اختفَت في النّهر. رأيتُ غُصنًا طافيًا على صفحةِ الماء، فخِلتهُ شيئًا آخرَ حتّى كِدتُ أفرُّ قاصدةً الدّرب.

سِرتُ لساعتين. كانَ الصّيفُ قد أوشك على الرّحيل، غيرَ أنَّ حرارةَ الشّمس كانت تدُلُّ على أنّهُ لا يزالُ في منتصفِه. طالما كانَ ثمّتَ خوفٌ من عدمِ تعاقُب الفصول، مِن أن يأبى العامُ الرّحيلَ رغمَ حدوثِ الانقلاب. كان بعضُ المتقاعدينَ جالسين هُناك، على مقاعِدِهم في قواربِهم، يتشمّسون، ويحتسون النبيذ الأحمر. وكانَ بعضهُم مُقيمًا حفلاتِ شواء. وعندَ هَويسِ القناة، كانت هناكَ بقّالة تبيعُ الكيكَ والبوظة، وعائلاتٌ تُطلُّ من فوقِ الحواجز لترى الأهوِسَة إذ تُفتَحُ وتُغلَق، والقواربَ إذ تمرُّ من خلالِها.

تسلّلت إلى أنفي رائحة شرابِ جِن ويِرِم. فكَّرتُ مجدّدًا، بينما أسيرُ، في أنَّ كُلّ شيءٍ يسيرُ حذاءَ كُلِّ ما سواه، وكيفَ أنّي -إن حاوَلتُ جاهِدَةً- يُمكنني أن أصرُخَ رجوعًا في الزّمن فتلتفِتَ إليَّ نفسي اليافعة الجاثمة عند ضفّة النّهر وتسمعَني. يبدو أنّني أمضيتُ وقتًا طويلًا برفقةِ فيونا!

كانت تعتريني سخونةٌ، وتعَب. غيرَ أنّي لم أشأ التوقّف حيثُ النّاس متجمهرون. لذا، ظللنا سائِرَين خروجًا من البلدة حتّى هبط الليل.

جلسَ أوتو يمضغُ العُشب ويُحدّق إليّ بينما أصارعُ لنصب الخيمة. (ليسَ نصبُ الخيمةِ يسيرًا كما تتصوّرين)، كانت لاورا قد قالت لي بفَخرٍ لم أفهَمه. ولقد أصابَت في ذلك.

لمّا نظرتُ إلى الأعلى، ساحّةً عرقًا، ألفيتُكِ ثَمَّ، واقفةً في العَتَمة. وكانَ ثوبُكِ مرفوعًا إلى رُكبتيكِ اللّتينِ كانتا مُلطّختينِ بأثرِ العُشب، ومُجرَّحَتين. كُنتِ على ذاتِ الهيئةِ التي أتذكّرُها حينَ كُنت صغيرة. ربّما هكذا يرى كُلّ الأبناءِ أمّهاتِهم، خارِقاتٍ وقادِراتٍ على فعلِ أيِّ شيء. قُلتِ: (*بُحيرة بايكل هيَ أعمقُ بُحيراتِ العالم. وتحوي أكثر من عشرين في المائة من مخزونِ الأرضِ من الماءِ السائل. والحوتُ الأزرقُ هوَ أضخمُ حيوانٍ على الإطلاق. وإنَّ قلبَهُ وحدُهُ يَزِن سبعمائةِ كيل. وإنَّ الكسوفَ هو حجبُ جِرمٍ سماويٍّ جِرمًا آخرَ كُليًّا أو جُزئيًّا*). وقُلتِ: (*نامي على السّطح الليلةَ يا غرِتل. أريدُ أن أحظى بوقتٍ شيش. وأريدُ أن أتكلّمَ مع ماركُس*). دَنوتِ منّي، من غيرِ أن تتركي أيَّ أثرٍ في العُشب. في شعرِكِ بعضُ الضفائرِ التي صنعتُها لكِ، وقد بدَوتِ كأنّكِ لم تنامي منذ أسابيع، وكنتِ فاغرةَ الفم حتّى خِلتُ -لوهلةٍ- أنّي أشمُّ العُشبَ في أنفاسِكِ. (إنّهُ هُنا)، قُلتِ مادّةً إليَّ إحدى يديكِ، فألفيتُ أظافرَها متكسّرةً ومُتورّمة. حدّقتُ إلى فمِكِ إن يُشكِّلُ تلكَ الكلمة (بوناك)، غيرَ أنّها لم تخرُج، بل ظللتِ فاغرةً فمكِ بصورةٍ مُرعبة. أصممتُ أذُنيَّ بيديّ، وأغمضتُ عينيّ. ولمّا فتحتهُما ثانيةً، وجدتُكِ قد اختفَيتِ.

لمّا استيقظتُ في الصباح، وفككتُ الخيمة، أحسستُ بغثيان لدى

سماعي خرير الماء إذ يُشاكِسُ الضّفافَ ببلادة، ويُحاولُ مُداعبة الأشجار. أحسستُ بالأرضِ تميلُ تحتَ قدَمَيّ. راحَ أوتو يُطارِدُ البَطَّ بينما أقعَيتُ واضعةً يديَّ على رُكبتَيّ. رغِبتُ، فجأةً وبشدّةٍ، بسيجارة لأنّكِ كُنتِ سترغبين بها. كُنت ساعتئذٍ أقربَ ما يكونُ إليكِ. فقد كانت تلكَ أرضُكِ، عالمكِ. فأنتِ لم تكوني على طبيعتِكِ في سوى هذا المكان. حاولتُ ألّا أفكّرَ في طيفكِ الذي زارني الليلةَ البارحة، ذي الأظافر المُدماةِ والفمِ الأخرس. لم يكُن ثمّتَ ارتياحٌ في قربي منكِ، بل أسقمَني احتمالُ عثوري عليكِ هُنا.

أخرجتُ الخريطة من جَعبتي. فبرَزَت المُدُن من الصّفحة الخضراء كتلالِ الخُلد، والنّهرُ خطًّا أزرقَ بشَعًا. جُزنا النّهرَ عبرَ حقلِ أبقار ومن فوقِ مُرتقى في الجهةِ الأخرى. في الأفق، كانت ثمَّت محطّة طاقة: مكعّبات صغيرة، وأسلاكٌ متشابكة فوقَها، وقد استُبدِلَ بصوتِ الماءِ أزيزُ المحطّة إذ ترتجُّ لهُ الأرضُ تحتَ قدمَيّ.

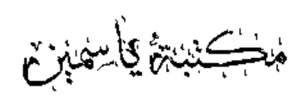
تُهنا. جُزنا حقولَ الذّرة والأبقار، فلم يبقَ أمامنا سوى أراضٍ مُقفرة، تُربتُها مكسّوة ببراميلَ حديديّة وبأغمادٍ مُحترقة لأدواتٍ حديديّة مُسنّنة، وبكُرسيٍّ مقلوب. صِرتُ أتعرَّقُ تُرابًا، وأبصق تُرابًا. كِدتُ أحترقُ من شدّة الحرارة، وعَلَت كتِفَيَّ بُقع حمراء، وكذا أنفي وأعلى ساقَيّ. وعلى مبعدةٍ من الخنادِقِ الخاليةِ مررنا بألواحِ خشبٍ انثَنَت حينَ سِرتُ فوقَها، لكنَّ أوتو لم يأمَن جانبَها ولم يجرؤ على السّير فوقَها، فصارَ يشكو لي ضعفَ حالِهِ حتّى حملتهُ وسِرتُ بِهِ متذمّرَة.

عُدنا إلى النّهر دونَ أن نعرف. لم أستطع تحديد موقعنا على الخريطة. كانَ ثمّت سَدٌّ يتباطأ عندهُ الماءُ ثُمَّ يندفعُ نزولًا. وتحتَ السّطحِ كانَ ثمّتَ غطاءٌ نباتيّ، نصفُهُ متعفّنٌ ونصفُهُ نام. وكانَ الشاطئُ في بعضِ الأماكنِ رمليًّا، مُنزلقًا صوبَ الماء. خاضَ أوتو الماءَ فرِحًا مُتقافِزًا، فحرَّكَ فيهِ الزَّبَد.

– «لا. كلبٌ شقيّ».

نسيتُ كُلَّ ما عرفتُهُ قبلُ عن الأنهار. كيفَ أنَّ بعضَها يبدو ساكِنًا كأنّهُ مُغطّى بِغطاء، وكيفَ يهتاجُ تيّارهُ بغتةً منبجسًا من عُمقه. سِرنا من غيرِ غاية محدّدة. بحثتُ عن سُبُلٍ مُحتملة، ولكنَّ الدّربَ كانَ مُحاذيًا للماءِ فقط. توقّفتُ،

ويصقتُ ثانيةً. أحسستُ بمذاقِ ذلكَ الشتاء في فمي. انطلقَ أوتو أمامي، وعادَ، ثُمَّ انطلق. ما زالَ أمامنا يومانِ نمشيهِما، غيرَ أنّهُما بديا قصيرَينِ ولن تتسنّى لنا الرّاحة في أثنائِهما، ثُمَّ توقّفتُ وتساءلتُ عمّا أفعل. ولِمَ أنا ذاهبةٌ إلى هُناكَ أصلًا؟. وضعتُ الخارطة بعيدًا. واستأنفتُ السَّير. نِمتُ في الخيمةِ تاركةً بابَها مُشرَعًا. اعتراني قلقٌ من أن يُصيبني النّهرُ بكوابيسَ مائيّة، بيدَ أنّي نمتُ نهاري الحارَّ كُلّه. ثُمَّ استأنفتُ السّير. صِرتُ قريبة. نِمتُ، واستيقظتُ باكرًا. أحسستُ بالهواءِ مشدودًا، ورأيتُ جذورَ الأشجار نابتةً من تحتِ الماء. رأيتُ الدّربَ قد انفتَحَ أمامي. فحثثتُ خُطاي. وصلتُ إلى الفُسحة وانصرفتُ عن النّهر. بدأت مساحة أشجار الصّنوبر عن يميني تختفي شيئًا فشيئًا، وصرتُ في وسطِ الفُسحة الوسيعةِ المفتوحة، الغاصّة بالعُشب الطّويل والهندباءِ والقُرّاص. طنَّت النّحلُ في الجوّ. رأيتُ قاربًا راسيًا عند الضفّة الصخريّة، والأجماتُ تُزاحمهُ من جنبِه. أخرجتُ الخريطة، وقلّبتُها. قطعَ الشّكَّ اليقينُ. كانَ ذاكَ هوَ القارب الذي عشتُ فيهِ حتّى بلغتُ الثالثة عشرة.



النَّهر

قَصُرَت الأيامُ وطالَت في آن. مرَّ أسبوعان. وعادَ أبواهُ يُراودانِه. أسرَّ في نفسِه: (أفتقدكُما، أحبُّكُما، أريدُكما أن تعثرا عليّ، سامِحاني). فكَّر في اليوم الذي أمضاهُ على ذلكَ القارب برفقة جُثّة تشارلي. وتذكَّرَ ما أخفاهُ تحتَ ثيابِه، إذ كانَ سِرًّا أكبرَ من أن يحتملَ إخفاءهُ شخصٌ واحِد. كانَ الجوّ باردًا للغاية، حتّى تشكَّلَ جليدٌ عند طرفِ خيمته وحافّة النّهر، ممتدًّا في خطوطٍ فضيّة صوبَ الأشجار. في الصّباحات، كانَ يشعُر بالوَحدة فتتعسَّر عليه الرّؤية.

ولكنَّ الحالَ، في أوقات الظّهيرة السّريعة والمساءات البطيئة، يختلف. أرَتهُ سارة كيف يجِدُ الثوم البريّ مدفونًا في عُمق التّربة. (في الصيف)، قالَت:(ينمو الفطر على الأرض والتّفاحُ على بعضِ الشّجر). كما علَّمَتهُ كيفَ يعجنُ الخُبز ويُصَفّي البيرة حتّى تصيرَ في لونِ العنبر.

بدأ يفهمُ الكلمات التي كانت الأمّ وابنتُها تستخدِمانِها، ولكنّه لم يُحسَّ بالشّجاعة قطُّ لاستخدامِها في كلامِه معهُما. كانت سارة تدعو غْرِتِل (إلْ) أو أحيانًا (هانسِل) أو (نَدَمرِتِل)[22]. وكانت غْرِتِل تدعو سارة (دُودي) أو (دُكتورة). أمّا قولُ سارة (وقت شيش) فكانَ يعني أنّها تُريدنا أن نتركَها وحدها قليلًا لترتاح. و(هارپيدودُل) كانت تعني أمرًا أو حدثًا مُزعِجًا كوقوع طبقٍ وانكساره، ولكنّها كانت تُستعمل عادةً -ضِمن صرخةٍ مدوّية- إشارةً إلى عدمِ سيرِ أمرٍ كما ينبغي. أمّا الأمور المُريحة أو المُمتعة، واللّطيفة الدافئة، فكانت تُسمّى (دُڤدُف) - تيمُّنًا بلِحافٍ كانَ في حوزةِ غْرِتِل وهيَ صغيرة،

22- جمعٌ بينَ كلمة «regret –ندَم»، واسم الفتاة «غْرِتِل– Gretel»، فصارَت «ندَمرِتِل – Regretel».

ثُمَّ أضاعته لاحقًا. وقد كانت ثمّت كلماتٌ كثيرة تصِفُ صوت ماءِ النّهر في مختلِف الفصول لدرجةٍ أنْ صَعُبَ عليه تذكُّرُها. ولكنّهُ فهِمَ أنَّ كلمة «أفأفة» تُشيرُ إلى سُرعة تيّار الماء، وكلمة «مسمسَة» تُشيرُ إلى صخبِ الماء في الليل، وكلمة «غُرغُر» تُشيرُ إلى مذاق الماء في الصباح. كانتا غالبًا ما تفوهانِ بكلمةٍ لا يفهمُها، فينتبه إلى سارة إذ ترمُقُه من مكانِها، فيتساءل ما إذا كانت تستمتعُ بجهلِه وبأنّهُ ما زالَ غيرَ مُطّلِعٍ على كثيرٍ من الأسرار المكنونة في صدرِها وصدرِ ابنتِها. ولكنّهُ كانَ كُلّما استمعَ إليهِما أكثر، فهِمَ أنَّ تلكَ الكلمات لا تعدو كونَها فِطريَّة: تُشكّلانِها من أصوات الأشياء أو مِن الكلمات التي ابتدعَتها غْرِتِل وهيَ بَعدُ رضيعة. كما أدركَ، إذ راقبَهُما جيّدًا، أنّهُما سلخا عُمرهُما معًا دونَ الناس، فلم يعُد يُهمّهما إن لم يفهم أحدٌ لغتهُما. لقد قطعا نفسَيهِما عن العالم، لُغويًّا وماديًّا. فصارا نَوعًا خاصًّا من البشر. أرادَ ماركُس أن يُحبَّهُما، وأرادَ أن يكونَ منهُما.

كانَ يتبعُ غْرِتِل، حينَ لا يكون بصُحبة سارة، إذ تُفرِغُ مصائدها وتملأُ الأجراسَ بجِيَف الفئران والضفادع ثانيةً. ولقد قرَأت لهُ كُلّ كتابٍ موجودٍ على ظهرِ القارب. وكانَ كتابُها المفضَّلُ هوَ الموسوعة، بصفحاتِها المحشوّة بالكلمات الصّغيرة -كأنّها نملٌ- وبالصّورِ البهيّة. كانت سارة، في الصباحات، تُلقّنها دروسًا جُلُّها -حسبما رأى- دروسُ قراءةٍ في الموسوعة. ولذلكَ كانت تحفظُ كثيرًا منها عن ظهر قلب: *كانت أناستاسيا أميرةً روسيّة توفِّيت وظلَّت فتياتٌ كثيرات يدّعينَ أنّهُنَّ هيَ لأعوام. والستِكس هو أحدُ أنهارِ العالم السفليّ*. لم تكُن تسمح له بلمس الموسوعة، ولكنّها كانت تحملُها أمامهُ وتقلّبُ في صفحاتِها آذِنةً لهُ بالمشاهدة فقط. ولقد كانت تُحِبُّ، أكثرَ ما تُحِبّ، مخلوقات الماء. فتساءلَ عمّا إذا كانت تُفضّلُها لأنَّ تخيُّلَها أيسَرُ عليها من تخيُّلِ الأسودِ والأفيال. قد تكونُ تلكَ المخلوقات البحريّةُ في ذلكَ النّهر من غيرِ أن يدري أحد، ماضيةً في حيواتِها بسلاسة: الحيتانُ وحيدة القَرن، وأسماكُ القِرش، والسّلاحف، والسّلمون المُرقّط. كانت مُغرَمةً بصُور المُحيطات، وقياسات أعماقِها، والصّور التوضيحيّة لكيفيّة تشكُّل الأنهار مُخترِقَةً الصّخور. كما كانت تُحبُّ الصّفحات التي فيها تعدادٌ لمجموعة حقائق، فتُمطِرُ ماركُس بِها: «هل تعلم أنَّ الخُلدَ العاري هو

أطولُ القوارضِ عُمرًا؟ وأنّ لدى بني جنسِهِ مستعمرات ومِلكات كالنّحل تمامًا؟». فيقولُ لها: «لا أعرفُ أيَّ شيءٍ عن تلك القوارض».

كانَ يستمتعُ بحديثِها عن النّجوم، تلكَ الغازاتُ المُضيئة التي يتّصلُ بعضُها ببعض، مُشكِّلَةً قَفلَ جاذبيّةٍ فَريدًا. كانت النّجوم تأتي مَثنى أو في عناقيد، ونادرًا فُرادى. كانَ ثمّت شيءٌ استرعى انتباهُهُ في الفضاء، في الكواكب والنّجوم إذ يدورُ بعضُها حولَ بعض، وفي منطقِ حقولِ الجاذبيّة، وفي أنَّ النّجوم تموتُ قبلَ زمنٍ من رؤيتِنا لها.

انصرفَ بذهنِهِ عن غْرِتِل، فانزعَجَت لأنّهُ كفَّ عن الإنصات إليها.

– «انظُر إلى هذا»، قالَت مُشيرةً إلى صورة. كانَ لدى الحيوانِ في الصّورة جِلدٌ سميكٌ على ظهره وجَنبيه، وبطنٌ ناعمٌ كريميّ. «يُمكنه أن يعيشَ لمئة عام»، نظرت إليه جاحظةً بعينيها. «ويُمكنُك أن تتبيّن سِنّه من عدد الحلقات على عظامِه. كما يمكنهُ أن يرى في الظلام، والسّمع والشّمُّ عنده قويّانِ للغاية».

– «حسنٌ».

قرَّبَت وجهها إلى الصّفحة.

– «ما اسمُ هذا الحيوان؟»، سألَها ولكنّها امتنعت عن إجابتِه.

– «هذا لُغز»، قالَت، أو خالَها قالَت.

– «ماذا تعنين؟».

ولكنّها كانت قد خرجَت من القارب، عَدْوًا.

كانت سارة وغْرِتِل تُطلقانِ كلمة ‹طافيات› على أيِّ شيءٍ تريانِهِ طافيًا على صفحةِ الماء (سواءٌ كان سمَكًا، أو ألواحَ خشبٍ أو أكياس بلاستيك). فكانتا تُسمّيان أهل القوارب ‹طافيات-بشريّة›، والجِيَفَ مِن غنمٍ وطيور على صفحة الماء ‹طافيات-مَيْتة›. ترقَّبَ ماركُس أن يأتيه البحر بأبوَيه، بيدَ أنّهُ لم يأتِ بِسوى عرباتٍ عتيقة مُحَمّلة بدراجاتٍ هوائيّة وأكياس فحم، وقواربَ تعلوها أعلامٍ وَسِخة ونوافذُها مكسورة. رسَت القواربُ في الجوارِ لساعةٍ أو أكثر. وكانَ كُلّ المارّينَ يعرفونَ سارة باسمِها، وينظرونَ إليهِ بارتيابٍ،

ويُحاولونَ مُعانقة غْرِتِل. وكانوا يشربون الشاي أو يجلبونَ صناديقَ بيرةٍ تتمتّعُ بها سارة على طرفِ القارب. وكانوا يَبدونَ مَحرومينَ من النّوم، وجُلودهُم مشدودةٌ على أذرُعهم ووجوههم، وأظافرهُم تاركةً ندوبًا في راحاتِ أيديهِم. ولمّا كانت سارة تسألهُم عن وجهتِهِم يُجيبونَها بأنّهُم لا يُريدونَ إلّا الابتعاد عن هذه البُقعة. «جنوبًا»، أجابها أحدهُم. «إلى أقصى بُقعةٍ يتيسّر لنا بلوغُها جنوبًا!». تحدّثوا عن أصواتٍ تصدر في الليل، وآثار أقدامٍ تظهرُ على الضّفاف المُوحلة، ومخلوقات ثقيلة تقبعُ على أسطُح قواربِهِم. ولمّا كانت تسألهُم أن يمكثوا ليلةً، يرفضون، ويحثّونَها على الابتعادِ عن هذه البُقعة معهُم. ثُمَّ يمضونَ مُبتعدينَ بقواربِهِم عن الشاطئ، من غيرِ أن ينظروا وراءهُم.

أحكمَ البرد قبضتَه. فتشقّقَت أوتادُ الخيمة، واستحالَت حافّة النّهر إلى جليد، وسقطَت الطيور من على الأشجار إلى الأرضِ الصُّلبة. أقبلَ قاربٌ أخير. فيهِ رجُل وامرأةٌ معهُما ثلاثة أطفال جمعتهُم غْرِتِل كقطيعٍ وقادتهُم للّعِبِ معها. كانت أيديهم متوتّرةً وشاحبة، وكذا كانت وجوهُهم. وكانَت أصواتهم -حينَ يتحدّثون- بالكاد مسموعة. جلبَت لهُم سارة بعضَ البيرةِ وأترعَت كؤوسَهُم. كانت المرأةُ ثمِلةً أصلًا، أو مريضة. انزلقَت كلماتُها من فمِها حتّى اختلَطَ بعضُها ببعض، أو ربّما لم تصدُر من فمِها أصلًا. تحدّثا عن طفلهما الرابع، وهوَ ذكَرٌ، الذي ضاعَ منهما. جلسَ ماركُس يستمعُ إليهِما صامتًا، شاعِرًا بيديهِ قد تضخّمَتا ولم تعودا تُلائمانِ مِعصمَيه. ألفى وجعَهُما عاريًا، كضوءٍ ساطِع. سألتهُما سارة عن سببِ رحيلِهِم جميعًا، وماذا لو عادَ ابنهُم فلَم يجدهُم؟ ولكنَّ ماركُس لم يسمع سوى بعض الكلمات التي فاها بها جوابًا، فلم يفهم شيئًا. ثُمَّ مضوا في طريقِهِم حامِلينَ ما جادَت سارة عليهِم بِهِ: دجاجة، وقنّينتَي بيرة، وبعض الألحِفة.

- «لم أفهم»، قالَ ماركُس.

كانت سارة تجمعُ الكؤوس. قالَت:

- «لم يكُن ثمّت أحدٌ لينتظرا عودتَه. فقد عادَ ابنهُما جثّةً هامدة»، وسعلَت في قبضتَيها الشّاحِبَتين. «تبًّا للسّجائر!». وضعَت الكؤوسَ في دلوِ التنظيفِ المملوءِ ماءً.

- «لمّا كانت غْرِيْل طفلةً»، قالَت. «لم تشأ ذِكرَ الموت صراحةً، فأسميناهُ رَحيلا. وكانت أحيانًا تسألُ عمّا إذا كانت الأشياء الرّاحلة ستعودُ يومًا، ومتى ستعود. وإنّي أخالُها، حتّى الآن، تنتظرُ عودةَ كلبٍ كان عندنا قبلَ أعوام، وصَديقَينِ لنا تُوُفّيا منذ زمن. وقد أخبرَتني أنّهما حينَ يعودانِ سيكونانِ مُختلفَين. لم توضِّح لي معنى قولِها ذاك، بل اكتفت بالتأكيدِ على أنَّ الرّاحلينَ حينَ يعودون، يعودونَ مُختلفين».

لم يدرِ ماركُس ما يقول. لم يكُن قد اعتادَ بعدُ على الطريقة التي كانت تتكلَّمُ بها أحيانًا من غير توقّف أو استراحات.

- «عرفتُ أن خيمتكَ لم تعُد تُغني ولا تنفع. بإمكانِكَ أن تبيتَ هُنا الليلة إن شئت».

اعترَاهُ ارتياحٌ لقَولِها. فقد أدركَ أنَّ خيمته، عند هبوط الليل، ستغصُّ بكُلّ الغرائب التي ذُكِرَت: جثّة ذلكَ الطّفل الرابع، وجُثّة تشارلي التي انفتحت مؤخّرةُ لحافِ نومِهِ في النّهر فحرّرته، وكُلّ الموتى العائدين مُختلفين، بأصواتِ أناسٍ آخرين وأفكارِ أناسٍ آخرين. أعَدّت سارة مزيدًا من الشاي، فجلسا على درجاتِ القاربِ يحتسيانه معًا، يتسلّلُ إلى سمعِهما شخيرُ غْرِيْل إذ غطّت في نومٍ عميق. أحسَّ بملمسِ ذراعِ سارة إذ تتكئ على ذراعِه. تذكّرَ الطّفل الرابع.

- «لِمَ لم يستنجدا بأحد؟»، قال.

- «وبِمن عساهما يستنجدان؟».

- «بالشُّرطة».

- «لا. ما كانا ليفعلا ذلك».

لم يفهم. فلاذَ بالصّمت.

- «ماذا كانا سيقولان للشّرطة؟»، قالَت بعدَ هُنيهة. «هل كانا سيُخبرانِهم بما أبصراهُ من غرائب -الغرائب التي رآها كُلّ مَن سواهُما- في قلبِ النّهر؟ وبأنّهُما يعرفان هويّة مَن اختطفَ ابنهُما ولكن لا يقدران على وصفِه؟».

- «ربّما».

- «ثُمَّ بعدما تُخبرهُما الشّرطة بأنَّ ما يقولانِهِ مستحيلٌ منطقيًا، وبأنَّ تلكَ الغرائب لا يُمكن أن تحدُث، وتُطالبهُما بإلحاح 'أخبرانا بما حدثَ حقًّا لطفلكُما!'، فبماذا سيُجيبان؟».

- «لا أدري».

- «سيقولان: لقد رأيناه بأمّ أعيُننا. نحنُ نعرفُ هويّته. عليكُم أن تُمسكوا به. وستقولُ الشّرطة: أنتما كاذبان! ماذا تُخفيان؟ اعترِفا! هل فهِمتَ الآن؟».

- «ربّما».

نفضَت يديها، كأنّما تُنشّفهُما من الماء، وأضافَت:

- «نحنُ لا نستنجدُ بالشّرطة هُنا. ولا برجال الإطفاء أو الإسعاف. وطالما كانَ الحالُ هكذا. فإنّهُم لا يعرفونَ شيئًا عنّا، بينما نحنُ نعرفُ كُلَّ ما نحتاجُ إلى معرفتِهِ عنهُم».

- «ولكن ماذا يحدثُ حينَ تسوءُ الأمور؟».

- «نحُلُّها بأنفسِنا»، أجابَت ونهضت واقفةً بحزمٍ أفهَمَهُ ألّا حاجةَ لقَول المزيد.

كانت تلكَ أوَّل ليلةٍ يبيتُها على ظهرِ القارب، ولكنّها لم تكُن الأخيرة. دثَّرَ رأسهُ بغطاءٍ لحافِ نومِه، وملأهُ بحرارةِ أنفاسِه. وظلَّت النار مُشتعلةً حتّى الصباح. تكلَّمَت غْرِتِل في أثناءِ نومِها كأنّها -حتّى في النّوم- لا تقدرُ على ترويضِ لسانِها. أمّا سارة فنامَت بسلامٍ وهدوءٍ مُفرِطٍ لدرجة أنّهُ تساءل عمّا إذا كانت نائمةً حقًّا أم لا. أمكنهُ الإحساسُ بِها على مقرُبةٍ منه، مُستلقيةً على ظهرِها. كانَ حضورُها بارِزًا، صارِخًا.

في الليل، أقبلَ ماءُ النّهرِ هادِرًا من صوبِ الشّمال، جالبًا معهُ سمكَ الموجار في دوّامةٍ من الوحل، وظهرَ قاربٍ كسَّرَهُ التيّار، وأوراقَ خريفٍ من أماكِنَ فارقَها الخريفُ للتوّ وحلَّ الشتاءُ محلّه، وبعضَ ملحٍ وحصى من البحر. كما كانَت في قلبِ النّهرِ مخلوقاتُ بوناك تُعَدُّ فلا تُحصى: جُثثٌ

قد تتشبّثُ أرواحها بالمراسي وتصعدُ إلى اليابسة، وجذوعُ شجرٍ ضخمة قد تكونُ كفيلة بتحطيمِ قاربٍ سارة وإغراقِه، ولصُّ القناة الذي نهضَ من الأنابيبِ الفائضة بالماء، ووقفَ متردّدًا.

(6)

جِسمٌ من رُكام

النَّهر

لدَغَتهُ نحلةٌ أضناها البَردُ، فراحَت سارة تمُصُّ موضِع اللّدغة. نظرَ ماركُس إلى مَفرقِ شعرِها الأبيضِ وسطَ بحرِ شعرِها الدّاكن وساقَيها العاريتَينِ إذ تهتزّانِ على الأرضيّة، وإحدى يديها إذ تقبِضُ على ذراعِه كي تُثبّتَه. فكَّر: «ماذا عساني أفعلُ هُنا؟»، فاستقامَت جالسةً وقد استخرَجَت إبرةَ النّحلة بينَ أسنانِها.

– «هل تَوَدُّ الاحتفاظ بها؟».

وضعَتها على راحةِ يدِه، وأردَفَت: «هذه فألٌ حسَن. بخاصّةٍ حينَ تأتي في نهاية الموسِم. تموت النّحلة حين تقرُصُك. لذا، أودُّ الاحتفالَ الليلة. ما رأيك؟ وليمة. مأدبة جامِحة».

– «نعم!»، قال.

قرَّبَتهُ وألصَقَت وجنتَها بوجنتِه. بدَت يافعةً صباحئذٍ، مُنتشيةً أو متوتّرة. في وقتٍ سابقٍ، بينَ الأجمات، كانَ قد شاهدَها برفقةِ غْرِتِل تقِفان بالمقلوب على أيديهِما، رافِعَتينِ أقدامَهُما إلى الأعلى. تمايَلَت ساقا غْرِتِل، ووقعَتا، أمّا ساقا سارة فظلّتا مستقيمَتين وثابتَتين. أحسَّ، لحظتئذٍ، بألمٍ يدهَمُ مِعصَمَه، فنظَرَ فرأى نحلةً جاثمةً ثَمَّ غارِزَةً إبرَتَها في جِلدِه.

***

أشرَعَت سارة أبوابَ القارِبِ بقوّة، وراحَت تنظِّفُه مُقعيَةً على يديها ورُكبَتَيها، مُعَبّئةً دِلاءَ ماءٍ وَسِخٍ وساكِبَتَها في النّهر. انحنى ماركُس بجانبِها يُريد مساعدتها. كانت تسحُّ عرقًا. أرادَ أن يسألها ما إذا أقلَقَها ما سَمِعاه، ولكنّه امتنَع. فقد كان يعرفُ أنّ ثمّت أمورًا يتوجّبُ الامتناعُ عن ذِكرِها:

الابنُ الرّابعُ المَيْت، وقاربُ الجَزّارَة المُقتَحَم، وجميعُ الفارّين من عند النّهرِ سواهُم. كانت بعضُ القوارب المارَّة قد تركَت لهُم بعضَ اللحم والخُبز الطازج، وشيئًا من الزّبدة الصّفراء. ولذلكَ كانوا سيُقيمون وليمة، مأدُبة.

- «يُمكنكَ أن تساعدَني بأن تغتسِل»، قالَت مُتنشِّقَةً، ثُمَّ ضحِكَت وأردَفَت: «متى اغتسلتَ آخرَ مرّة؟ هاكَ منشفتي. ثَمّت سائل استحمامٍ في ذلكَ الدّلو. إنَّ رائحتكَ تُشبه الرائحة التي كانت تُسمّيها غْرِتِل 'رائحةٌ طَيّبة' حينَ كانت صغيرةً ولا تُريد الاغتسال. كأنّها تُريد أن تقول: أنا في خيرِ ما يُرام، فلا تُلِحّي عليَّ بالاغتسال!».

رفعَ ذراعَه، وقرّبَ وجهه من إبطِه. كانت سارة مُحِقّة، فإنَّ مثلَ تلكَ الرائحة الكريهة لم تفُح منه قطّ. والحقُّ أنّ شهرًا كاملًا مرَّ على آخر مرّة اغتسلَ فيها -في الحمّام الضيّقِ لمنزلِ أبوَيه- وارتدى ثيابًا نظيفة ورأى جسدهُ كاملًا. كما كانَ شعرُهُ غاصًّا بالقِشرة.

- «خُذ حِذرَك»، قالت سارة. «فالتيّارُ قويٌّ في هذا الوقت من العام. وسيحملكَ معهُ إن لم تتوخَّ الحذر».

تردّد. أرادَ أن يقولَ لها إنّهُ خائفٌ للغاية، وإنّهُ لن يقدرَ على دخولِ النّهر. فإنَّ لصَّ القناة متربّصٌ هنالك، في بقعةٍ ما في القاع، مُنتظرًا.

- «لا تقلق»، قالَت بتلكَ النّبرةِ العجيبةِ التي تدُلُّ على معرفتِها الخفيّة بما يَدور في خَلَده. جذبَتهُ إليها للحظةٍ، مُطوِّقَةً كتفيه بذراعَيها. «لا تقلق. اذهب في ذلكَ الاتّجاه تجِد فُسحةً آمنةً بين الأشجار. وسأسمعُكَ إذا ناديتني».

اعتراهُ غضبٌ لوهلة، بسببِ النّبرة التي حدّثتهُ بها كأنّه طِفل كَغْرِتِل، ولأنّها افترضَت أنّهُ سيُناديها طلبًا النّجدة. وبعدَ لحظةٍ فارَقَهُ الغضب. ستُنجِدُه إن ناداها. الحقُّ أنّها قرأت أفكارَهُ، فأسعَفَته.

في الطريق، توقّفَ عند الخيمة، وأخذَ حُزمةَ الورقِ الحراريّ ولباسًا تحتيًّا كانَ قد غسلَهُ ونشرَهُ فَجَفّ.

عند الناصيةِ، قبلَ الحاجز، اتّسع النّهر، وكانَ -في إحدى جهاتِهِ- عبارةً عن مَضيقٍ لا يُمكن لقاربٍ أن يَجوزَهُ من النّهر، كما كانَ مدخلُهُ مسدودًا ببعضِ الأشجارِ العارية، غيرَ أنَّ الوصولَ إليه كانَ يسيرًا من جهةِ اليابسة.

تردّدَ قليلًا على الضفّة. كانَ حريصًا للغاية، تارِكًا مسافةَ أمانٍ بينهُ وبينَ النّهر، متوثّقًا من ألّا يُديرَ ظهرهُ إليه أو يغفلَ عنه. كان يحرصُ جُلّ الأيّامِ على تذكيرِ نفسِهِ بما رآهُ عند الأشجار، ذلكَ المخلوق الذي كانَ جميعُ الناسِ يخشونه. أمكنَهُ أن يعود، ويلتزمَ الصمت، ويُحاول الاغتسالَ باستخدامِ الدّلو فقط كي يُخفي بعضَ الرائحة الكريهة. رفعَ ذراعَهُ ثانيةً، وشَمَّ إبِطَه، ثُمَّ التفتَ وشَمَّ شعرَه الذي بدأ يَطُول ويتكتّل وراءَ أذنيه. كانت سارة مُحِقّة. كانت رائحتهُ (طيّبة) حقًّا. آلمهُ للغايةِ التفكيرُ في أنّها قد تشمُّه وهوَ كريهُ الرائحة. كانت تُعِدُّ العشاء، وقد أرادتهُ أن يعودَ ويُشاركَهُما الطعام، إذ إنّهُ سيُشاركهما المبيت على ظهرِ القاربِ لنحوِ أسبوع. ولذلكَ كان عليهِ الالتزام بما تأمرهُ به. فإن هيَ سألتهُ أن يغوصَ في النّهرِ ولا يعودَ أبدًا فستتوجّبُ عليه الطّاعة. أقنعَ نفسهُ بأنَّ ذلكَ دَينٌ عليهِ من باب العِرفان بالجَميل الذي أسدَتهُ إليه، ولكنّهُ كان يُدركُ أنّهُ يلتزمُ بأوامرِها لسببٍ آخر كُليًّا.

انزلقَت قدماهُ على الضفّة، فوقعَ على ظهره في الماء. ألفاهُ باردًا للغاية. ولكن لا بأس. أزالَ عنهُ طبقةَ الطحالب، ونزعَ ذراعيهِ بصعوبةٍ من قميصِه الأوّل، وخلعَ عنهُ البقيّةَ دفعةً واحدة، متحدّيًا نفسَه. وخلعَ سروالَهُ وألقاهُ فورًا في الوحل، وراحَ يدعكُهُ بالماءِ مُحاولًا إزالةَ رائحةِ النّتن عنه. ثُمَّ ألقى بلباسه التحتيّ وفعلَ بِهِ ذاتَ الأمر. كان قد وضعَ الورقَ الحراريَّ لمدّة طويلةٍ، فبدا كأنّهُ صارَ جُزءًا من لحمِه، فقاسى المُرَّ في أثناءِ محاولةِ نَزعِه. ثُمَّ أفلحَ أخيرًا. ارتمى متثاقِلًا على رُكبتَيه، وراحَ يغترفُ من الماءِ غُرفاتٍ ويسكبُها على كتفَيه وظهره. وأفرغَ شيئًا من سائل الاستحمام وفركَ رأسهُ به بقوّةٍ، ثُمَّ شطفَه بالماء.

عَجِبَ لرؤيتِهما مُجدّدًا: ألفى ثَدييهِ قد صارا أكبرَ وأوفَر. أمّا سائر جسدِهِ فكانَ قد صارَ أشدَّ نحولًا، فغارَ بطنهُ أسفلَ قفصِهِ الصدريّ الكبير. كما ألفى يدَيهِ قد اكتستا ببُقعٍ حمراء سبّبها القُرّاص عند القارب، ورِجلَيهِ مُغطّاتينِ بالكدمات. كانت ثمّتَ كُتلة تُرابٍ خشنٍ على جلدِه -كأنّها حيوانٌ زاحِفٌ- راحَ يفرُكُها. وألفى شعرَ عانتِهِ قد صارَ أكثفَ، وأعقَد. وجدَ نفسهُ قد دسَّ إحدى يديهِ خلالَه، باحثًا عن عُضوٍ ليسَ هُناك، قضيبٍ لم تقدِر قوّة التّفكيرِ فيهِ على إنمائه. ذكّرَهُ جسدهُ بأمر. قبضَ على أحدِ ثدييهِ بيدِه، وعصَرَه،

فأحسَّ برجفةٍ تعتريه من رأسهِ إلى أخمصِ قدميه. أدركَ لحظتئذٍ أنَّ جسدهُ ذكَّرَهُ بِسارة إذ رآها تحتَ خرطوم الماء، رافعةً كِلتي ذراعَيها. جلسَ، مُزلِقًا نفسهُ صوبَ النّهر قليلًا كي يُحسَّ بالتيّار عند رِجلَيه. رأى جلدهُ إذ يتّضِحُ بعدما زالَ عنه السّخام. فثبّتَ قدَميهِ بالجذورِ النّامية من الوحل، وانحنى إلى الأمام ليغترفَ من الماءِ قليلًا ليغسِلَ بهِ وجهه. بيدَ أنّهُ انزلقَ، فصارَ تحتَ الماء قبلَ أن يُدرِكَ ما يحدُث. فتحَ عينيه في العَتَمة، بالكادِ قادرًا على رؤيةِ شكلِ ساقيهِ الضبابيّ أمامه. واتتهُ ذِكرى يديهِ -كأنّها شُحنة كهربائيّة عالية سرَت في جسدهِ كُلّه- إذ تدفعانِ بجُثّة الرّجُل المَيْت وتُسقطانه في النّهر. تذكّرَ -إذ يُحاولُ دفعَ نفسِهِ إلى الوراء فاغرًا فمهُ كي يستنشقَ شيئًا من الهواء- كيفَ غرِقَ الرّجُل المَيْت (تشارلي، تشارلي، تشارلي)، وكيفَ كانَ يعتقدُ بأنَّ كُلّ الأنهار مُتصّلة ببعضها، وكيفَ بانَ لماركُس اللحظةَ أنَّ كُلّ شيءٍ متصّلٌ بتلكَ الجُثّة، ويُجَرُّ معها كي يغرقَ في قلبِ الماء.

خرجَ من النّهر، يتهوّعُ طلبًا الهواء.

المُطارَدة

كانت ثمّتَ سلسلة معقودة على مِقبَضي باب القارب، وكانَ الزّجاج -إذ ألصقتُ وجهي بالنّافذة كي أختلس نظرة- متّسخًا للغاية وحاجِبًا للرؤية. وعلى أجمةٍ ألفَيتُ عربة يدٍ مقلوبة، قد نمَت الحشائشُ في ثنايا عجَلَتِها كأنّها معكرونة صينيّة. بدت الحشائش كأنّها حُرِقَت عدّة مرّات ثُمّ عادت لتنمو على صورةٍ باهتة. كما ألفيتُ ثَمَّ مركبة ڤولڤو زرقاء. انفتحَ بابُها فورَ حاولتُ فتحه. كانت مقاعدُها متهالكة، وثمّت آثار يدَينِ على مِقوَدِها. وفي صُندوق التابلوه خريطةٌ لِإسكُتلَندا، وعُلبتَا تبغٍ قد جفّ. وفي جُزئها الخلفيّ، ألفيتُ فوضى حقائب رثّة، وقناني ماء، عُلَب بيض وشطائر جُبن فارغة. أحسستُ بيديَّ ترتعشان بينما تلتقطان تلك الأشياء. أكانت تلكَ سيّارتكِ؟ استقمتُ، وأجلتُ النّظر حولي، وهتفتُ باسمِكِ. أكانت تلكَ المهجورة مركبتكِ، أم مركبة أحدٍ آخر، قد تركَها نهبَ الخراب؟ تمنّيتُ من كُلّ قلبي أن تكونَ مركبتكِ. أوّلُ دليلٍ حيٍّ على أنّكِ كُنت موجودةً هُنا، حَيَّةً، تمشين، وتنظُرينَ من النافذة. تخيّلتُكِ تقودين المركبة بسرعة عبرَ مانشستر والبُحيرات، وتُرجعين مقعدكِ إلى الوراءِ كي تنامي. عمَّ كُنت تبحثين؟ لم تتوقّفي حتّى لتأكُلي، وظللتِ ترمين بالقُمامة على أرضية السيارة، تُغنين مع المذياع، تُفكرين فيَّ مثلما كنتُ أفكّر فيكِ. ربّما كان ماركُس برفقتِكِ، جالسًا في المقعد حذاءكِ. ربّما تحدّثتُما عنّي، وقلتِ إنّكِ ستعودين من أجلي عما قريب، وإنّكِ تودّين رؤيتي عاجلًا غير آجِل.

فتّشتُ في الحقل. وكان أوتو يُقحمُ أنفهُ هُنا وهُناك، نافِخًا وناظرًا إليَّ كأنّما عيلَ صبرهُ ويُريد أن يعود. هذا هوَ المكان الذي طالما كُنت متّجهةً صوبه. هذا هو المكان الذي، ربّما، كان عليَّ المجيء إليه منذ البداية. لا بُدَّ

أن تؤوبَ إلينا مساقطُ رؤوسنا. ولكن، لم أحسَّ بأنَّ وجودي في هذا المكانِ صواب. فوقَ الصّنوبرات الكثيفات، رأيتُ طيورًا تحُطُّ مُجتمعة. تذكّرتُ تفكيري بكلمة (ذُعر) وأنا في الكوخ بادئ الأمر. وقد ألفيتُ ذُعرًا هُنا أيضًا: ما يُمكنني أن أجِدَه هُنا، وما لن يُمكنني أن أجِدَه أبدًا، وما فات الأوانُ على أن أجِدَه. بدا النّهر جامدًا لا يتحرّك، كما كانَ -على مقربة من ضفافه- ضحلًا حتّى لتُرى الصّخور تحته. لحظةَ انحنيتُ لأنظُر، أحسستُ بفزعٍ في معدتي، ولمّا استقمتُ بدت لي السماءُ كأنّها انقلَبَت. هَوَيت على رُكبتيّ، ووضعتُ خدّي على العُشب. ولمّا التفتُّ لأرى أوتو، لم أجِده. وقفتُ مُناديةً عليه، ولكن لم أرَ له أثرًا.

رغبتُ، بغتةً، في أن أعود أدراجي، وأتركَ هذا الأمر كلّه. لم أُرِد أن أكونَ هُناك ناظرةً إلى سيّارة قد تكون أو لا تكون سيّارتكِ. أردتُ للأمر أن ينتهي. وجدتُ قنينة وقودٍ على ظهر القارب، فأفرغتُها على مقاعد الفولفو، ومسحتُ يديَّ بالعُشب. لم تضطرم النارُ بالسُّرعة التي تصوّرتُها، بل مضت متمهّلةً لفترةٍ، ثُمَّ اضطرمَت بغتة. ألفيتُ ثَمَّ شَجرًا على مقرُبةٍ فاجأتني، فخشيتُ أن تلتهم النارُ الغابة كلّها. ولكن ذلك لا يهمّ. فليس ثمّت شيءٌ في الغابة. كان عليَّ أن أعرف ذلكَ مسبقًا. أكَلَت النارُ السيارة، فتراجَعتُ مُعتَليةً سطح القاربِ لأشاهدَها.

فاقَ استعصاءُ بابِ القارب على الكسرِ تصوُّري. فتّشتُ في الأرجاء عَلّي أعثر على أداةٍ تُساعدني كي أخلعَه. لم أكُن مرتاحةً إلى بقائي على ظهر القارب، ولكنّ نزولي عنهُ أقلَقَني وأخافني أكثر. في مؤخّرة القارب، تحت مُشَمَّع أخضر، عثرتُ على مجرفة. كان مقبضُها رطبًا ولكن من شأنِها أن تَفي بالغرض. حشرتُها في القَفل، ودَفَعْت.

ألفيتُ الدّرجات نزولًا قد رثَّت، فتكسَّرَت تحتَ دَوْس قدمَيّ. للحظةٍ بائسةٍ، تذكّرتُ أنَّ هذا هو قاربنا الذي عشنا فيهِ كُلّ ذلك العُمر. بيد أنّي وجدته الآن مختلفًا: بِكُوّات نوافذه المتّسخة، ورفوفه المحشورة في جدرانه المُلتويّة، وكَومة الألحفةِ داخله. انضَغَطَت فيه الحرارة فاستحالَ جهنَّمَ. وانتُزِع منه الفُرن الذي كان، وأطلَّت مدخنتهُ على السماء. لم أجِد فيهِ سوى ذلك. انزلقَ شيءٌ ما في آخره، فخشيتُ أن يكون ثُعبانًا، فمضيتُ صوبهُ

مُحدثةً بنعلَيَّ صوتًا هادرًا، دائسةً الأرضيّة بثقل. كان كلّ شيءٍ يفوح برائحة العفن، الهُجران. تقطّعَت الألحفة لحظةَ رفعتُها بيديّ كي أدوسَ الثّعبان تحتها. ولكن، تذكّرتُ ما نسيتُه: أنَّ القارب يُردّدُ صدى كُلّ حركة نأتي بها وكُلّ خطوةٍ نخطوها، وسببُ ذلكَ الماءُ الجاري من تحتِنا. اطمأننتُ، فمكثتُ في بقعةِ الضوءِ المنسكبِ من عمود المدخنة، واقتتُّ على بعض الخُبز الذي جلبتُه من المنزل.

لا بُدَّ أنّي غفوتُ في لحظةٍ ما، لأنّي استيقظتُ أسحُّ عرقًا، فخرجتُ من القارب لأقضي حاجتي. ألفيتُ الدُّخانَ ما زال يَصدُرُ عن السيارة المُحترقة، وثَمَّت حُفرًا في التّربة الصلبة حولها. دُستُها بنعلَيّ. لم تكُن حُفَر خُلد ولا أرانب، بل حُفَرًا متناظرة، يُجاور بعضها بعضًا، أحدثَتها مجرفة وجدتُها على مقربةٍ مغروزةً في الأرض. بدت حُفرًا ذات دلالة، كالرّموز التي سبقَت ظهور اللغة، تلك الرّموز التي لم أفهمها قطّ. لم أسمع صوتًا، فسرى فيَّ خوفٌ لِفكرةِ أن يكون أحدٌ ما موجودًا في الأرجاءِ من غيرِ علمي. عُدت إلى القارب، ووضعت لحاف نومي على سطحِهِ وافترشتُه. لم يكُن ثَمَّ، في الغالب، سوى الطيور التي فارقَت الصّنوبرات ومضَت محلّقة، وبعض السناجب، وخرير الماء. وكانَ الجوّ دافئًا بصورةٍ لم أعهَدها، فألفيتُ نفسي أُغفو، ونورَ الحرارةِ الأبيض تسلَّلَ إلى ما وراء جَفنَيّ، وقدَمايَ اتّكأتا إلى فجوةِ المصرف كي لا أسقُط.

لمّا أفَقت، سمِعتُ وقعَ خُطى أحدٍ ما يتجوّلُ في القاربِ أسفلَ منّي. حملتُ المجرفة بيدٍ واحدة، ورُحتُ ألوّحُ بها في الهواء مُجَرِّبة. فهبطتُ من السّطحِ إلى ظهرِ القارب وركلتُ البابَ فانفتح. أمكنني سماعُ صفيرِ أنفاسِه، وصوت حركةِ جسمِه على الأرضيّة المُخضَلّة. ولمّا دَنوتُ أكثر، ابتلعَتني العَتَمة فلم أتمكّن من سوى رؤيةِ جانبٍ من جسدِه، استقامتِهِ وذراعيه الطّويلَتين وقُبّة رأسِه. بُوناك. قد عادَ من جديد. ذاكَ الذي طالما خشيناه. رفعتُ المجرفة عاليًا، متأهّبة.

دَنَوتِ منّي متحرّرةً من قبضةِ العَتَمة، وحدّقتِ إليّ، حاجِبةً شعاعَ النّورِ عن وجهكِ بإحدى يديكِ. أوقَعتُ المجرفة أرضًا، فارتَدّت حتّى كادَت تلطمُ وجهي. مددتُ ذراعَيَّ صوبكِ، فنظرتِ إليَّ بارتياب.

– «لِمَ أضرمتِ النار بسيّارتي؟»، قُلتِ.

حاوَلتُ أن ألمس وجهكِ وشعركِ، وذراعَيكِ. فأصدرتِ هسيسًا، وأبعَدتِني آبِيَةً أن تُصدّقيني إذ أقولُ لكِ إنّي ابنتُكِ.

– «غرتِل»، ظللتِ تقولين: «أقصر منكِ ولونُ شعرِها مُختلفٌ عن لونِ شعركِ. فقولي لي لِمَ أحرقتِ سيّارتي؟».

بدَوتِ متوتّرةً، وطائشة. لم أدنُ منكِ، وأنتِ كذلك. بدا لي ضربًا من الخيالِ وجودُكِ حقيقةً، وعثوري عليكِ. انتظرتُكِ أن تفِرِّي، أن تركُضي صوبَ الأشجار. لو فعَلتِ –قُلتُ لنفسي– لَطارَدتُكِ. اعترَتني حُمى، هِستيريَة. كنتِ أمامي، بشحمكِ ولحمِكِ، كلّكِ. وددتُ أن أُحكِمَ وثاقكِ إليّ كي أمنعكِ من هَجري ثانيةً. تحرّكتِ بأناةٍ حولي، كأنّكِ خشيتِ أن أندفعَ إليكِ بغتة. وكم وددتُ أن أفعل! أن أطوّقكِ بذراعيّ فلا أُفلِتَكِ. لم يسبقْ لي أن كُنتُ امرأةً بالغةً معكِ. ولذلكَ أحسستُ بأنّي تقهقرت في الزّمن. فرغبتُ في أن تطبُخي لي، وتُغنّي لي تهويدةً كي أنام، وتغسلي شعري ثُمَّ تضفريه. عُدتِ أمّي، وعُدتُ أنا ابنةَ ثلاثةَ عشر عامًا ثانيةً، بل ستّةَ عشر، إذ جلبتِ لي فطائرَ من مخبز غرِغز، فبَكيتِ في الليل، فتعارَكنا. أدركتُ أنّي لستُ غاضبةً منك، بل أحبُّكِ.

– «ألديكِ طعام؟».

– «لا».

لم تنظُري إليَّ مباشرة. تمَوضعتُ في بقعةِ الضوء المنسكبة من كُوّة السقف آمِلةً أن تتبيّني من أنا. رغبتُ بشدّةٍ في أن تنفرجَ أساريرُكِ –بغتةً– لحظةَ تتعرّفينَ عليّ، وفي أن تقولي إنّكِ ما انفككتِ تبحثين عنّي لأعوامٍ وإنَّ كُلّ شيءٍ سيغدو على ما يُرام الآن وقد عثرتِ عليّ. وددتُ أن تقولي إنَّ ثمّتَ تفسيرات لكُلّ ما حدثَ في الماضي: لِهَجرِكِ أوّلًا، ولِكَونك أمًّا عجيبة. أحسستُ بحرارةٍ مباغتةٍ وصادِمة مفادُها أنّي سأنوحُ بيأسٍ ومرارةٍ في حضرتِكِ. لم يُمكنني أن أتذكّر آخر مرّة بكيتُ فيها. قرصتُ طرفي أنفي بقوّةٍ آلمتني، كي أطرُدَ عنّي شبحَ الدّموع.

– «كانت إل أصغر سنًّا»، قُلتِ بعنادٍ واضعةً يديكِ على وَرِكيكِ في حركةٍ تذكّرتُها، دالّةٍ على إنهائكِ الحِوار.

تأمّلتُكِ، محاولةً التهامَ تفاصيلِكِ كلّها مرّة واحدة. كانَ جسدُكِ قد شاخ أيضًا. حتّى أمكَنَني رؤية لحمكِ قد تهدّلَ من تحتِ ثيابِك، خاصّةً جهةَ البطن. وكانَ في وجهكِ شيءٌ مختلف، ووجنتاكِ منتفختَين، ولُغدٌ متدلٍّ قد برزَ على طولِ عنُقكِ. كما كُنتِ قد تقلَّصتِ، فأصبحتِ أقصرَ ممّا كُنتِ. ورغم ذلك، كانت ثمّت عضلات قويّة لا تزالُ في ذراعيكِ وساقَيكِ، انتبهتُ إليها لحظةَ رفعتِ سراويلكِ وحكَكتِ جِلدك. كانت أصابعكِ مُصفرّة، فانتظرتُ أن يُشرقَ وجهكِ بهجةً كما أتذكّره. بيدَ أنّكِ لم تفعلي سِوى أن ربَتِّ على جيبِ وركِكِ، وطقطقتِ بلسانِكِ كعادتكِ حتّى أمعنتُ النّظرَ فيكِ بحثًا عن أمّي اليافعة القديمة، تلكَ التي كانت تُطقطِق أو تهمهم أو تصفّر انزعاجًا أو فرحًا أو مللًا. أمّا عند صدركِ، فقد كانَ القميصُ الذي ترتدينهُ متفخًا بارزًا من ناحية، ومُنبسطًا من الناحية الأخرى. حدّقتُ. ثُمّ حاولتُ أن أصرفَ نظري. فلم أقدر. وظللتُ مُحدّقة. نظرتِ إليّ، مُحدّقةً كأنَّ نظركِ قد ضَعُف.

– «ألديكِ طعام؟».

– «لا».

– «ماذا تفعلين على قاربي؟».

– «لم يكُن ثمّت أحد هنا».

بدا جوابي قد أثارَ اهتمامكِ، فأمسكتِ وجهكِ بكلتي يديكِ وقُلتِ:

– «خِلتُني كنتُ هُنا!».

لمّا بدأ الظلام يغمُر المكان، بدأتِ ترتعشين بردًا. وكانت رغبتي بتطويقكِ والتشبّث بكِ لم تخبُ بَعد، ولكنّي منعتُ نفسي عن تطويقِكِ بلِحافِ النّوم وجَرِّكِ إلى الأرضية والارتماءِ في حضنِكِ. كُنتِ أمّي. أمّي!.

أردتُ أن أعثرَ على خشبٍ أشعِلُ به نارًا، ولكنّي خشيتُ إن أنا أدرتُ لكِ ظهري أن تَرحلي وتَهجُريني ثانيةً.

– «هلّا خرجنا؟»، قُلتُ فتَبِعتِني، غيرَ دانيةٍ منّي. سمِعتُكِ إذ تلعنين

الصّنوبرات، وتقطعينَ منها أغصانًا صغيرة بيديكِ العريضتين. ولمّا شَرَعتُ بإشعال النار، نكزتِني كي أبتعِد، مغمغمةً تذمُّرًا من سوءِ إدارتي للأمر، فأعدتِ إعدادَ كومةِ الخشب التي كُنتُ قد أخطأتُ بتنسيقِها.

أحدَثَت ألسنة النارِ الصاعدة من كومةِ الخشب في وجهكِ وجسدكِ أثرًا، فكأنّها أرجعَت عقارب الساعة إلى الوراء، فرأيتُني أجلسُ قبالة أمّي التي كانت قديمًا. وبينما أنظُرُ إليك، أحسستُ بشيءٍ فِيَّ قد بدأ يتداعى، يتطوَّع: يقيني، أو عزيمتي. فكأنّي لم أعُد امرأةً بالغة. خِلتُ أنَّ الغضبَ سيضطرمُ فيَّ، بيدَ أنَّ ماءَ الارتياح البارد هوَ الذي انسكب. لقد عثرتُ عليكِ. بعد كُلّ ذلكَ الوقت. صِرتِ أمامي. فتحتُ فمي كي أحاولَ تفسيرَ الأمر، وأحاولَ إخبارِكِ، فإذا بكِ تُحدّقينَ إليَّ من خلال النار.

– «ماذا تفعلين على ظهرِ قاربي؟»، قُلتِ. «من أنتِ؟ وماذا تُريدين؟ ولِمَ أحرقتِ سيّارتي؟ كُنتُ سأقودُها».

– «لا أدري مَن أحرقَها. ولم أدرِ أصلًا أنّكِ قادرة على القيادة».

حينَ كُنت أقولُ مثلَ تلكَ الأشياء، كُنتِ تلوذينِ بالصّمت، وتَكزِينَ النارَ بطرفِ نعلِكِ أو تُغنّينَ بضعَ نغماتٍ من لحنٍ لا أذكرُه. كانَ شعرُكِ قد استحالَ أشيبَ وأطولَ ممّا عهِدتُه. رفعتِ كُمّي معطفِكِ وسراويلكِ مُعرّيةً ساقيكِ للنّار. رأيتُ ثَمَّ نُدوبًا لم تكُن موجودةً في الماضي، أحدُها ندبٌ غائرٌ على رَبلتِكِ، أشَرتُ إليه.

– «كيفَ أُصِبتِ بهذا النّدب؟».

هززتِ بكتفيكِ، ونكشتِهِ بإصبعكِ، وقُلتِ:

– «حادث»، ضحِكتِ، وضحِكتِ حتّى صِرت تسعلين. «هل التقيتِ بغرِتِل؟»، قُلتِ واضعةً ذراعيكِ قبالةَ صدرِكِ كأنّكِ تحملينَ طفلًا وتهزّينه، ثُمَّ نظرتِ حولَكِ. «لا بُدَّ أنّها نائمة».

– «لا، لم ألتقِ بها»، قُلت. «هل تعيشين هُنا برفقةِ غرِتِل؟».

أومأتِ برأسِكِ موافقة، ونكزتِ النار بنعلِكِ.

– «لقد هَجَرتُ طفلتي الأولى»، قُلتِ ناظرةً إليَّ بتمعّنٍ من خلال النار.

«ولذلكَ لم تتبقَّ معي الآن سِوى غرِتِل. هل تتذكّرين القارب الأوّل؟ هل تتذكّرين طفلتي الأولى؟».

- «لا».

كانت يداكِ مثبّتتينِ بعُنفٍ إلى صدرِكِ، وفمُكِ يرتعش. آلَمتني رؤيتكِ على تلك الحال. فلقد كُنتِ، في شبابِكِ، عصيّةً على الضّعف والتردُّد. مددتُ يدي صوبكِ، فتراجَعتِ، عاويةً، تُخربشين الترابَ برجليكِ.

- «لقد هاتفتُها. سألتُها أن تأتي. ولكنّها لم تأتِ بَعد».

- «إنّها أنا يا سارة. وصلتني رسالتكِ الصوتية، والإلكترونيّة. طالما بحثتُ عنكِ».

جمّعتِ هواءً في فملكِ فانتفخَت وجنتاكِ، وقُلتِ:

- «إنّي خرقاء. أضيّعُ أشيائي بسهولة. يوم أمس ضيّعتُ مفتاح السيارة، والآن صرت عالقة هُنا. ربّما نستطيع العثور على المفتاح معًا. وهناك أشياء أخرى ربّما نعثر عليها. أشياء أخرى كنتُ قد ضيّعتُها. ربّما نعثر عليها كلّها».

- «ربّما».

- «وربّما نجدُ طفلتي».

- «أنا هُنا يا أمّي. لم أعُد طفلة!».

دنَوتِ منّي منحنيةً من فوقِ النار، وقبلَ أن أقدرَ على رؤيتِكِ بوضوحٍ، أمسكتِني من طرفِ وجهي بسُرعة فحَفَرت أظافركِ الطويلة في خدّي فأسالَت منه دمًا. حبستُ أنفاسي لحظةً أحسستُ بيدكِ على وجهي.

- «كُرمى للّه يا غْرِتِل»، قُلتِ. «كُرمى لله!».

النّهر

المأدُبة. تناولوا لحمًا مملّحًا بأيديهم. كما وُضعَت على المائدةِ بطاطا مطبوخة بالكريما، وخُبزٌ بالجُبن. ارتفعَت النارُ في المدخنة. أترعَت سارة كأسَه عدّة مرّاتٍ حتّى لم يَعُد يدري عددها، إذ اختلطت الأرقامُ في ذهنه كمِقياس سرعة الريح. ألفى الشراب حُلوًا، فاضطربَت معدته. التهمَ مزيدًا من اللّحم، مُقطِّعَهُ بأسنانه. ظلّ يأكلُ حتّى أصابَ شبعَهُ، ثُمَّ لمّا ملأت طبقه مجدّدًا، عادَ فالتهمَ ما فيه. كانَ يُشاركُ في الحديثِ بين الحينِ والآخر. بينما كانت غرِتِل تُغفي، واضعةً رأسها في طيَّةِ ذراعِها، فاغرةً فمَها إذ تتنفّس.

أراحَت سارة ظهرها إلى الجدار، ومدّت ساقَيها أمامها. حدّقَ ماركُس إلى ثغرِها، وبياضِ عُنقها بينَ طرفِ الثوبِ والكتِفين. دنا منها زحفًا على يديهِ ورُكبتيه، وقبلَ أن يقدِرَ على منعِ نفسه، حشرَ رأسهُ في حجرِها. أحسَّ بالخمرةِ تُحفِّزُ نبضًا ثانيًا في عروقِ مِعصَميه، بينَ أصابعه. فوضَعَت هيَ يديها على رأسه، وراحَت تجوبُ شعرهُ بأصابعِها ثُمَّ تُمرّرها على صِدغيه المتحمِّسَين.

– «سحَبَني الماء»، قال. «حينَ ذهبتُ أغتسل، سحَبني».

أحسَّ بالكلمات تخرجُ من فمِهِ كفقاعات الشراب، بلا إرادة. ظلَّت تُمسّدُ بيدِها على شعره، كأنّها تمشطُه.

– «لا بأس»، قالَت قبل أن يتسنّى له إخبارُها بما اقترَف. بأنّهُ قتلَ رجُلًا. قتلهُ وألقاهُ في النّهر. رفَعَته عن حِجرها بإحدى يديها، فوَقَفَت، فأفرَغت قدحَ شرابٍ في جوفِها. كانَ ثمّتَ دلو ماءٍ سخّنَتهُ حدّ الغليان مسبقًا، وملأتهُ بالصّابون حتّى أزبَد. حمَلت الأطباقَ من على المائدة، ووضعتها واحدًا

واحدًا في الدّلو. انتبهَ إلى حرارةِ الماء العالية إذ كانت يدُ سارة تخرجُ من الدّلو قد أصابتها حُمرة، وإذ غسلَ البُخارُ الرّطب وجهها وبَلَّ شعرها. التفتت، مُجفِّفَةً يديها بثوبِها.

- «هل فكّرتَ مرّةً...»، قالَت. «كيف يُمكن أن يكونَ شكلُه؟».

كانَ مخمورًا لدرجةِ أنّه -لوهلةٍ- لم يفهم السّؤال. حدّقَ إليها، وقال:

- «نعم، فكّرت»، رغمَ أنّهُ لم يكن واثقًا من ذلك. ممّا إذا كانَ قد فكّرَ حقًّا بشكلِ بوناك أم لا.

- «وأنا أيضًا فكّرت»، قالَت. بدَا صوتُها يافِعًا، كصوتِ غرِتِل. وكانت يداها لا تزالانِ مكوّرتينِ في ثنايا ثوبِها. «ما انفككتُ أفكّرُ فيه مؤخّرًا. وغرِتِل كذلك».

لم تسألهُ عن شكل بوناك الذي تصوّرَه. إنّما أخبرتهُ بأنّها حينَ تتخيَّلُ بوناك، تراهُ ذا جسدٍ فارع الطول، وساقَينِ قويّتين، وبطنٍ شاحِب، وفمٍ مُخَدَّدٍ وبعض أسنانه بارزة تحتَ لِثَتِه، وقادِرًا على السّباحة في الماء بسُرعة -طبعًا- وأيضًا على التحرُّكِ بسُرعة مماثلةٍ على اليابسة، وقادِرًا على هضمِ أيِّ شيء والتهامِ أيِّ شيء، وذا ذكاءٍ مُعجِب وقُدرة على تعلّم لغة البشر إن أَحَبّ ولكنّهُ -حسبَ ظنّها- لا يُريد. «ولِمَ عساهُ يُريد تعلُّمَ لغتِنا أصلًا!».

أعانَها ماركُس في تجفيفِ الأطباق بينما راحَت تغسلُها. وأصدرَت غرِتِل وراءَهُما شخيرًا هادئًا إذ غطّت في نومٍ عميق. أحسَّ بدفءِ كتِفِ سارة بجانبِه.

- «أعتقدُ أنَّ من الأفضل لكَ أن تُغادرَ في الصباح»، قالَت. «لا أدري من أينَ أتيت، ولكن تتوجّبُ عليكَ العودة إلى هُناك».

- «لا يُمكنني أن أعود»، قال.

- «فلتذهب إلى أيِّ مكانٍ آخر. فليسَ جيّدًا بقاؤكَ هُنا. ليسَ صوابًا. جِد بلدةً، أو محطّةَ قطار. مكانًا ما لا يعرف أهله أنَّ مكاننا هذا موجودٌ أصلًا. والأرضُ ملأى بمثلِ تلكَ الأماكن. فالنّاسُ يَنسون. وستَنسى أنتَ أيضًا. يُمكن للإنسان أن يُضيعَ أيَّ شيءٍ يُريد إن هوَ حاولَ حقًّا».

رفعَت القنّينة، وفتحَت فمها فأمكنَتهُ رؤية أسنانها الحادّة من خلالِ الزّجاج، وأفرَغَت بعضَها في جوفِها.

- «ولكن قبلَ أن تذهَب، أريدُ مساعدتك في أمر. فهلّا ساعدتَني؟».

- «نعم، بالطّبع. نعم».

قالَت لهُ إنَّ الورَمَ في إبِطِها. وإنّها أحسّت بهِ منذ أسبوعٍ، ولكن يصعُبُ عليها التيقّن من وجودهِ من غيرِ عَونِ أحد. وقالَت لهُ إنَّ المرءَ لا يُحسُّ بالأمرِ الواقع أحيانًا، بل بِما يعتملُ في خيالهِ فحسب. تناهى إلى سمعِهما شخيرُ غرِتِل إذ تتنفّسُ بصوتٍ عالٍ من أنفِها، وتُحرّكُ قدَمَيها ككلبٍ يحلُمُ بأنهُ يعدو في إثرِ أرنب.

- «ماذا تُريدينني أن أفعل؟».

أرَتهُ كيفَ يبسُطُ يديهِ، ويُشابكِ أصابعه، ثُمَّ يُدلِّكُ البُقعة.

- «ستبحثُ عن جسمٍ غريبٍ لا ينتمي إلى إبِطي، ولا يجبُ أن يوجدَ فيه».

أحسَّ بعظمةِ ساقِهِ قد تيبّسَت، فصارَت ترتعش. ألفى عروقًا زرقاء -تُشبه خطوطَ خارطةٍ- على ثَديِها، وحولَ الحلَمةِ بُقعةً داكنة. أرَتهُ البُقعة المطلوبة، في إبِطِها، فضغطَ عليها بيديه.

- «بقوّة».

ضغطَ بقوّةٍ أكبر على لحمِها الطريّ. التصقَ ثديُها بكتِفِه، وأمكنَهُ شمُّ نَفَسِها، وكانَت رائحتهُ كريهةً -لحظتئذٍ- وعصيّة على الاحتمال.

- «لا»، قال. «لا أجِدُ شيئًا»، رغمَ أنّهُ -لحظةَ نزعَ يده- خالَ أنّهُ أحسَّ شيئًا ما، كأنّهُ غضروفٌ صغير.

- «هذا حسَن»، قالَت ساترةً صدرَها. «لا تتردّد في إخباري إن كُنتَ تودُّ أن أفحصَكَ أيضًا. قبل أن ترحل».

- «ماذا؟»، قالَ مُبعدًا رأسَهُ عن جسدِها.

- «سأفحصُكَ إن أحببت. في أيّ وقت تشاء. والآن، اخلُد إلى النومِ».

المُطاردة

مكثتُ معكِ على النّهر، ننامُ في القارب، ونُشعل النيران كي نطرُدَ بها بردَ الليل، ونأكلُ الطعام من العُلَب الجاهزة التي جلبتُها معي في حقيبتي. اعتدتُ على وجودكِ ثانيةً، ففارقني الخوفُ من أن أصحو يومًا فلا أجدكِ. وبدا أنّكِ اعتدتِ على وجودي بقُربكِ أيضًا. ذاتَ نهارٍ ناديتِني «غرِتِل» بنبرةٍ اعتياديّة، كأنّكِ لم ترتابي في ذلكَ لحظةً. داعَبتِني، وربَّتِّ على خدّي بيديكِ، وحاولتِ حلَّ عُقَدٍ في شعري. «ماذا تفعلين هُنا؟»، «كيفَ عثرتِ عليّ؟»، بصقتِ في يديكِ ومسحتِ لطخةَ تُرابٍ على وجهي. وكُلّما ذهبتُ لأجلبَ مزيدًا من الخشبِ للنّار، لحِقتِ بي وتشبّثتِ بيديّ أو شَدَدْتِني –بشيءٍ من القوّة– من شعري.

«ما أدَفْدَفَ رؤيتكِ يا غرِتِل!»، قُلتِ. لدى سماعي تلكَ الكلمة العتيقة، أحسستُ بوخزةٍ في معدتي. قُلتِها بلكنةٍ معوجّة، مُغايرة، لم أكُن أعرف أنّها اللّكنة الأصليّة التي يجبُ أن تُلفَظَ بها الكلمة. ما أدَفْدَفَها من لكنة! أغمَضتُ عينيّ.

أحيانًا، كُنت تفقدينَ صوابَكِ، فأتركك وشأنكِ. كُنتِ تجمعينَ التراب في كومةٍ، أو تنحنينَ مُحدّقة إلى النار. أو تُقعينَ وتُنزلينَ سراويلَكِ، وتبولينَ في مكانِ جلوسِكِ. وددتُ أن أخبركِ بكلّ ما حدثَ لي في غيابكِ، ولكنكِ كنتِ غربالًا، وكُلُّ ذكرياتِكِ مدغولة بفجواتٍ أو كأنّها جِسمٌ من رُكام.

عند بزوغِ صُبح اليوم الثالث من مُكوثي معكِ هُناك، تسلّقتِ سطحَ القارب وأشَرتِ صوبَ الأشجار.

– «إنّهُ ينامُ في النهار»، هتَفتِ.

تسلّقتُ إلى السّطح وراءكِ، فألفيتُكِ ممدّدَةً، فاستلقيتُ حذاءكِ. أشَرتِ إلى البروجِ في السماء رغمَ النّهار. وأمسكتِ بيدي متشبّثةً بها، فحفرَت أظافرُكِ في راحَتي.

– «من ذا الذي ينام؟ من ذا الذي ينامُ في النهار؟»، سألتُكِ. فلم تُجيبيني. كان القمرُ في السّماءِ يُوشكُ أن يختفي أمامَ سطوةِ النّهار، وحرارةُ الشّمسِ مختبئةٌ تحتَ عباءته. وكانَ النّهرُ يُأفِئفُ مُثقلًا بالطّافيات. نِمتُ قليلًا، ولمّا استيقظتُ ألفيتُكِ قد رحلتِ. كانت الأجماتُ مُضطرماتٍ حرارةً، فشَممتُ عفونة الأرضِ الساخنة. كانت هذه الأرضُ بِنتَ زنى، بفوضى سكك الحديدِ وراءَ أشجارِها، وقَفلِ قاربِها الرثّ. كانَت صفحةٌ من الغُبار تكسو كُلّ شيء، كأنّهُ غبارُ بركانٍ أو عاصفة. بحثتُ عنكِ في أرجاءِ القارب فلَم أجدكِ، وكذا في منطقةِ الأجمات وقُربَ النّهر. جُبتُ أنحاءَ الغابةِ في غضبٍ أصرُخُ مناديةً عليكِ. كانَ هذا المكانُ أشبَهُ بثُقبٍ يمتصُّ أهله، ويبتلعهُم بعظمِهِم. حتّى أنّني أضعتُ فيهِ كلبي.

انتبهتُ إلى حركةٍ بينَ الأشجار، حركةِ جسدٍ، مُضطربة. ألفيتُكِ خائضةً في ضفّةِ النّهر والماءُ قد اعتلى كتِفَيكِ. هتفتُ باسمِكِ، فالتفتِّ ناظرةً إليّ. افترّت عن ثغركِ ابتسامةٌ أبانَت أسنانكِ.

– «فاتتكِ رؤيته»، قُلتِ. «كانَ هُنا منذ لحظة».

إلّا أنّي لمّا نظرت إلى النّهر، خِلتُني رأيته لوهلةٍ تحتَ صفحةِ الماء، فاختفى.

***

أدركتُ لحظتئذٍ أنّكِ حينَ راسَلتِني لم تكوني قد عثرتِ على ماركُس كما تمنّيتُ، بل عثرتِ على بوناك. وحينَ عرفتُ ما أبحثُ عنه، كانَ ما يوجَدُ هُنا واضِحًا. فقد كانت ثمّتَ إشاراتٌ دالّة عليهِ في كُلّ مكان، آثار أيدٍ وأقدام على القارب، وبينَ الأشجار، وعلى التّربة. لقد وطئت قدما ذلكَ المخلوق كُلّ مكانٍ وطئتهُ أقدامُنا. أرَيتِني الآثار الدالّة عليه: الوحل الممهّد عند الضفاف أو عليه علاماتُ مخالبِه، ووكرَهُ عند شجرةٍ جذورُها مغمورة بالماء رأينا في داخلِهِ طيفَ نعجةٍ مذبوحة، وعُشبًا مُهّدَ تحتَ خُطى قدميه، وحتّى القارب كانت تعلوهُ آثارُ مخالبِهِ الخمسة.

هوَ ينامُ، كما أخبرتِني، فاغِرَ الفم وأحيانًا غيرَ مُغمضٍ سوى عينٍ واحدة. بَدوتِ مطمَئنّةً، هادئةً، وحتّى راضية. تذكّرتُكِ إذ كُنتِ مقعيةً في الماء، مادّةً ذراعيكِ صوبَه. كانَ ثمّتَ إحساسٌ بالصُّحبةِ بينكُما، كأنّما كبرتُما معًا، أو كأنّما توصّلتُما إلى هُدنة.

(ولكنّكِ كُنتِ قد قتلتِه)، قُلتُ لكِ مرارًا. ولكنّكِ تجاهلتِني في كُلِّ مرّة. (خِلتُكِ قتَلتِه)، قُلت. فرفعتِ ثوبَكِ إلى ما فوقَ رُكبتيكِ، وهززتِ ذراعيكِ. ابتسمتِ لي، ابتسامةً جميلةً وواثقة. تذكَّرتُ أنّكِ قُلتِ لي إنّكَ قتلتِه في تلكَ الليلةِ آخرَ ذلكَ الشتاء الطويل.

أبصرتُ الذّكرى تتجسَّدُ أمامي. فتذكّرتُكِ حينَ ثبّتِّ المِصباحَ في مقدّمةِ القارب، وأجلستِني ثَمَّ كي أشاهدَ الحُطام على صفحة الماء: جذوع شجرٍ تكادُ لضخامتِها أن تقلبَ القارب. وضعتِ لحافًا على كتفَيَّ، وطبعتِ قُبلةً باردةً على جبيني. (أينَ ماركُس)، سألتُكِ فبدا وجهُكِ واهيًا في العَتَمة، وعيناكِ تُغمضانِ لمدّةٍ طويلة قبلَ أن تُفتحا.

– (سيلتحقُ بنا عمّا قريب)، أجَبتِني.

– (هل مات بوناك؟)، سألتُكِ.

– (نعم)، قُلتِ من غير تردُّد. (قتلتُهُ الليلة البارحة).

لم يخطُر لي ببالٍ قطُّ أنّكِ كذبتِ عليّ.

كُنتِ، في أثناءِ كُلّ تلكَ الأعوام التي سلَختُها في البحثِ عنكِ، تُطارِدينَ بوناك. تحدّثتِ عنهُ مُستخدِمةً تعابيرَ دينيّة، كأنَّ مُطاردتكِ لهُ مهمّةٌ مقدّسة. كُنت مؤمنةً، حسبما أعتقد، أنَّ مُطاردَتكِ إيّاهُ كفّارةٌ من نوعٍ ما. باوندٌ من اللّحم[23]. تحدّثتِ بفَخرٍ عن ذلك –عن مسعاكِ المقدّس– بيدَ أنّهُ بدا لي كابوسًا مزعِجًا ربّما اعترى إحدانا.

بعدما هَجَرتِني في الإسطبلات، عُدتِ إلى النهر، غيرَ أنّكِ ألفيتِ بوناك قد

23– باوند من اللّحم – Pound of flesh: إشارة إلى العِوَض الشّهير الذي طالبَ بهِ شايلُك، في مسرحيّة تاجر البندقيّة لوِليَم شِكسبير.

رحلَ منذ زمن. أخبرتِني عن تتبّعِكِ الإشارات، والإنصات إلى الإشاعات: ظهور قاتل قطط في مكانٍ ما قُربَ بُحيرات بِرمِنغَم، واختفاء قطيع ماشيةٍ في ليلةٍ واحدة، واختفاءُ أطفالٍ وهُم عائدون إلى منازلِهم ذاتَ ليلةٍ ثُمَّ عُثِرَ على ملابسِهِم مُلقاةً في نهر. هكذا، تتبّعتِ باحات القوارب، والقنوات، والأماكن التي لن تفكّرَ الشّرطة في الذهاب إليها لأنّها غير معروفة لديهِم أصلًا. كانَ أهلُ القوارب عاشقينَ للقصص المُثيرة. اعتَلَيتِ البلَدَ كَسُلَّمٍ، حتّى وصلتِ إلى اسكُتلندا.

مضت أعوامٌ عقيمة، ثُمَّ أخيرًا رأيتِهِ في أحدِ أنهارِ مرتفعاتِ اسكُتلندا. بدا أبطأ حركةً مما تذكرين، مُتعَبًا إذ يهبِطُ ضفّةً ويختفي عن ناظِرَيكِ. كُنتِ أكبرَ سِنًّا أنتِ أيضًا، وأقلَّ يقينًا. ولمّا غرزتِ سكّينَكِ في ذلكَ النّهر، ألفيتِ المخلوق قد اختفى.

طارَدتِهِ من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب. فظَلَّ بوناك -كأنّهُ علمَ بأنَّ هُنالكَ من يُطارِدُه- يسبحُ حتّى عادَ إلى المكانِ الأوّلِ عند الصّنوبرات وتوقّف. أبصرتِهِ إذ يعتلي اليابسة، ويَنعَم بضوءِ الشّمس، وينغمسُ في الوحلِ كي يُبرّد حَرَّه. رأيتِهِ إذ يُطارِدُ السّمكَ الكسولَ المِطواع، أو يستلقي مترقّبًا القوارضَ الآتية إلى الماءِ لتروي ظمأها. كانَ ذكيًّا. راقبتِهِ إذ يربضُ تحتَ صفحةِ الماءِ واضعًا عِصيًّا في فمِهِ، ثُمَّ يصطادُ الطيورَ حينَ تأتي لتلتقطَها كي تبني أعشاشها. بدأتُما تتعايشان. فصِرتِ، أحيانًا، تجلسينَ على سطحِ القارب القديم وتُغنّينَ، والمخلوق تحتَ الماء يستمعُ إليكِ. وصِرتِ، أحيانًا، تصطادينَ الأرانبَ بمصائدكِ ولا تأكلينَ إلّا نصفَها، وتُلقينَ بما يتبقّى إليه. أخبرتِني كُلّ ذلكَ على مراحِل، في أجزاء متفرّقة، حينَ كنّا نخرجُ للبحثِ عن خشبٍ للنارِ أو نجلسُ مستمِعَتينِ إلى خريرِ الماء. كُنتِ، بينما تتكلّمين، كمثلِكِ فيما مضى، وبدوتِ كأنّكِ لم تتغيّري، مُدرِكةً كُلّ ما حدث وغيرَ مُصابة في ذاكرتِكِ. اختبرتُ لحظات الصّفاء تلكَ بشيءٍ من تعكُّرِ المزاج، والخوف، لعِلمي أنّها لن تدوم طويلًا. أخبرتِني، باكيةً، كيفَ نسيتِ سببَ مُطاردتكِ إيّاه، والمغزى من كُلّ ما فعلتِ. نسيتِ تمامًا أنَّ غايةَ انطلاقِكِ في مسعاكِ ذاك كانَ- منذ البدايةِ - قَتلَه.

النَّهر

خرجوا معًا ليصطادوا إمّا الشّبوطَ أو الرّمحيّ. جلسَت سارة في مؤخّرة القارب -مُغرِقَةً في التفكير- تُدلّي ساقَيها وطرَفُ قصبة الصّنارة محشورٌ في بطنِها إذ تسحبُ خيطَ الليف ثُمَّ تقذف بهِ إلى بقعةٍ بعيدةٍ لم يقدِر ماركُس ولا غرِتِل على إصابتِها.

في الصباح حينَ استيقَظ، كانت سارة قد حزمَت حقيبتَه وتركَتها عند طرفِ الفراش. ولكنّهُ ظلّ يحومُ حولَ المرأةِ بقلقٍ، مُنتظِرَها أن تُخبرهُ صراحةً بأنّهُ يجبُ أن يرحل الآن. لم يُفارق يديهِ ملمسُ الليلةِ البارحة، ذلكَ الورمُ الصغير الذي خالَ أنّهُ وجدهُ في إبِطِها. لم يكُن واثقًا. راحَت تنظّف الأطباق، وتُقطّعُ تُفاحةً وتُرغِمُ غرِتِل على تناوُلِها. لم تكلّمهُ إلّا قليلًا، سألَتهُ فقط ما إذا كانَ قد جرَّبَ صيدَ السّمك قطّ أم لا. «مرّة واحدة»، قال. فأرَتهُ كيف يضعُ الدّودةَ الطُّعمَ في الخطّاف. فهِمَ أنَّ لهُ الخيارَ أن يرافقهُما أم لا، فلَم تُجبرهُ هيَ على شيء. كما فهِمَ أنّهُ لن يقوى على الهَجْر. بل: لن يقوى على هَجرِها أبدًا.

أحسَّ بتوتُّرٍ قد اعترى صنّارته، وتلاهُ ارتجاج. كانت يداهُ رطبتَين فكادَت القصبةُ تنفلتُ منهُما. ارتَجَّ خيطُ الليفِ ارتجاجًا عنيفًا، فانتبهَ إلى شيءٍ يتحرّك -تحتَ صفحةِ الماء- قد علقَ بِه. بانَ طرفٌ من السّمكة. كانَ لها رأسٌ ثقيل، وكانَ الخطّاف قد اخترقَ شفَتَها الغليظة، فصارَ سائرُ جسمِها الرماديّ يهتزُّ بفِعل ذلك كَثُعبان. أتت غرِتِل لنجدته، فأقعَت على رُكبتَيها ويديها.

– «هيّا، هيَّا أخرِجها!»، قالَت.

نظرَ باحثًا عن سارة، راغبًا في أن تَشهدَ صنيعه. للحظةٍ، بدا كأنَّ النهر ابتلعَ السّمكة، ثُمَّ برزَ ذيلُها متشعّبًا كشَوكة. ثبَّتَ قدميهِ إلى الحاجز الضيّق، ووضعَ كُلّ ارتكازِهِ على ساقِهِ السّليمة. قفزَت السّمكةُ مُضطرِبةً في الهواء، فبانَت طويلةً كذراعِه وعيناها في مثلِ لونِ أزرارِ معطف غرِتِل الذي خلَعَتهُ فورًا كي تُعينَ بهِ الفتى على سحبِ السّمكة. سحبَ ماركُس السمكة صوبَ القارب.

بغتةً، برزَ بوناك من تحتِ الماء، فاغرًا فاه. بدا ظهرهُ الصخريُّ في مثلِ لون الطحالب، وبطنهُ ناعمًا وشاحبًا، وكانت رِجلاهُ القصيرتانِ المعقوفتانِ إلى أسفل تدفعانِهِ إلى أعلى. تحرَّكَ جسمُه بطريقةٍ توحي بأنّهُ مخلوقٌ من غَيرِ الطّينة التي خُلقَت منها سائرُ المخلوقات، فكانَ خاليًا من العظم، وكُلُّه لحمٌ فقط. بدا –حينَ فكّرَ ماركُس بالأمر– تمامًا كما وصَفَتهُ سارة. كانت السّمكة –لوهلةٍ– عالقةً بين فكّيهِ ثُمَّ اختفَت. أحسَّ ماركُس بالصّنارةِ تُشَدُّ صوبَ النّهر بعُنف، فاختلَّ توازنه وتحوّل ارتكازهُ إلى ساقه المُصابة. ثُمَّ انقطعَ خيطُ الليف، وانزلقَت الصنّارة من يدهِ إلى الماء.

(7)

بوناك

النّهر

- «أعتقد أنّنا يجبُ أن نصطادَه»، قالَت سارة. «بوناك. لسوفَ نصطاده».

تمنّى أن تُبدّل رأيها، فيرفعوا مراسي القارب ويُبحروا بعيدًا عن هذه البُقعة. هكذا، ستنسى سارة أنّها طلبَت منهُ الرّحيل يومًا، وسيُرافقهُما ويعيشُ معهُما إلى الأبد.

- «بل علينا أن نصطادَه!»، قالَت كأنّها قرأت مخاوفه.

على الطاولةِ وضَعَت غرِتِل إحدى مصائدِ القوارض خاصّتها، وفكّكَتها كي تُريهم طريقة عملِها. همهمت سارة مُعجَبَةً بذكاءِ صُنع المصيدة وقوّةِ فكَّيها ونظامِها. ظلّت سارة متململةً كُلّ الليل، غيرَ ساكنة، فلَم تنفكَّ تقفُ وتعبثُ بالأغراض، مطقطقةً بأصابعها أو فارِكةً الأرضيّة بقدَمَيها. وبغتةً، وقفَت بجانبِ ماركُس -وكانَ جالسًا- ونظرت إليهِ عاضّةً على شفتِها الغليظة بأسنانِها البيضاء، مُصالبةً ذراعَيها وناقرَةً بيديها على وَرِكَيها.

- «ماذا؟»، قال.

- «لا شيء».

ولكنّها ظلّت مُحدّقةً إليه بعينَين شِبه مُغمَضَتين. لم يدرِ ما مُبتغاها. ولكنّهُ أحسَّ بوجهه يتوهّجُ حُمرةً، فأشاحَ بنظرهِ عنها وأشغلَ نفسه بسواها شاعِرًا بنظرتِها تكادُ تجرحُ ظهرَ عنقه.

أرَتهُما غرِتِل كيفيّة ضبطِ توتُّر المصيدة، ومُوازنة ثِقَل الطُّعم كي يستقرَّ عليها بخِفّة حتّى تُقفلَ فكّيها عند أقلّ ضغطَة. سيكونُ ثمّت قفص، في زاويتِهِ طُعمٌ، ولهُ بابٌ مرفوع سينزلقُ عند ابتلاعِ الفريسةِ الطُّعم. ولأنَّ القارب كانَ ضيّق المساحة، نقلوا العدّة إلى خارجه، إلى الضفّة. صنعوا جدران القفص

من قِطَع سياجٍ قديم من الأجمات وثبّتوها بأسلاك، والطُّعمَ من عُلَب ديزِل قديمة عبّؤوها بحجارة. جلَبَت سارة بابَ القارب وجعلَتهُ بابَ القفص المرفوع. صارت مصيدتهُم تلكَ كبيرةً بحيث تتسعُ لرجُل مُستلقٍ أو مُقعٍ، وتتسعُ للواقفِ أيضًا، ولكن بصعوبة.

– «يُمكننا الآن أن نقطعَ الغابة، ونرحل إلى أقرب بلدة»، قال ماركُس بصوتٍ عالٍ، فحدّقَت كلتاهُما إليه. «يُمكننا أن نرحل الآن!»، قال.

– «ثمَّت قوارب على مقربةٍ من هُنا، فيها عائلات كاملة»، قالَت ثُمَّ صمتَت. فأدركَ معنى كلامِها: أنّهُم إن لم يصطادوا ذلكَ المخلوق، فسيقتُل مزيدًا من الناس. تذكَّرَ الطّفل الرابع، وقد تغضَّن جلدهُ لطولِ بقائهِ في عمقِ النّهر، وابيضّت عيناه. فكَّرَ في أنَّ عودته الآنَ إلى أبوَيه –بعدَ كُلّ ما حدث– ستكونُ مثلَ عودةِ ذلكَ الطّفل: كأنّهُ كانَ مَيْتًا ثُمَّ عادَ مُختلِفًا، شخصًا آخر تمامًا.

بدَت المصيدة بدائيّة، ومنفّرة. وراحت العُلَب تتأرجحُ مُحدثة جعجعة. كما كانت ثقيلةً للغاية، وصعبةَ النَّقل.

– «ليس لزامًا على المصيدةِ أن تصمدَ لفترةٍ طويلة»، قالَت سارة. «فهذه ليست حربًا، بل معركة صغيرة. وبحلولِ نهاية الأسبوع ستعود المياه إلى مجاريها».

لم يفهم ماركُس مغزى كلامِها. فإنَّ المياه لن تعودَ أبدًا إلى مجاريها. جلَبَت بقايا جيفة الخنزير ووضعتها في مؤخّرة المصيدة، وغطَّت الأسلاكَ بالأوراق وببعضِ الأغصان.

– «هذا شَرَك»، قالَ متذكّرًا.

رمقتهُ سارة بنظرة، وقالت:

– «كيفَ عرفت هذا الاسم؟».

لم يُجِبها. فهزّت برأسِها.

جِذاءَهُ، لم تقف غرِتِل راقصةً أو مثرثرة، بل ساكِنةً قُرب حافّة القارب، تُراقِب. تساءَل، مُحدّقًا إليها، عمّا إذا كانت تعرفُ بأمرِه منذ البداية.

موسوعتُها التي أطلعَتهُ عليها، ومصائدها، وألغازها. حاوَلَ تذكُّرَ شكلِهِ لحظةَ برزَ من تحتِ الماء، مقوَّسًا، وسرقَ السمكةَ من الخطّاف. ألفى الذِّكرى قد بهتت، فلم يكُن متيقّنًا أيُّ مشاهِدِ ذلكَ الحدثِ أساءَ استذكارَها وأيُّها اختلقَتها مخيّلته.

- «إلى أين سنذهب حينَ ينتهي الأمر؟»، قالَت سارة ولوّحَت بيدِ غرِتِل، مبتسمةً إليه. «إلى أيِّ بلدٍ سنذهب؟»

- «لا أدري»

- «إلى مكانٍ مشمس. ستبدو أجملَ بقليلٍ من السُّمرَة»

- «نعم»، قال متيقّنًا. «صحيح».

قرّرَت سارة أن يمضوا بالقارب إلى وسط النّهر، حتّى يكونوا أبعدَ ما يُمكن عن المصيدة بحيث تتسنّى لهُم المشاهدة أيضًا. توثّقوا من عُقَد الحبال، ثُمَّ رفعوا مراسي القارب فمضى برفقة التيّار، وهَوَت حبالُهُ في الماء ثُمَّ بدأت تشتدُّ وتتوتَّرُ إلى مرابطِها عند الضفّة. ألقى ماركُس بالمرساة، فغاصَت في الماء صوبَ القاع. كانَ النّهرُ عاليًا وسريع التيار. تشبّثَ بذراع الدفّة. وعلى السقف كانت غرِتِل مقعيةً، متشبّثة. لطمَ التيارُ القارب لطمات. وعلى الضفّة بدت المصيدة كأنّها تراقبهُم، مُدركةً ما يصنعون. ومِن فوقِهم طارَ شيءٌ ما، خفّاشٌ ربّما، مرفرفًا بجناحيه.

لمّا استيقظَ ماركُس ليلًا، كانت ثمّت حرارةٌ رطبة في الجوّ. واكتست زوايا القارب بندىً فيهِ ملح، والجُدران تفوحُ برائحة براعم ثوم. أمكَنَهُ الإحساس بآخرِ خيوط الحُلم الذي اعتراهُ تتشابكُ على وجهه. رأى حُجرة الجلوس في منزل أبوَيه، وأعمدة الستائر معلّقة، وبقايا كيكةٍ موضوعة على الطاولة الخشبية، والمَغسَل طافح بالماءِ والصابون. سمِعَ صوتَ حركةٍ آتيًا من الطابق العلويّ ومِن النّهر في الخارج فكأنّهُ يدقُّ سورَ الحديقة ويعتلي الجِسر. رأى كُلّ شيءٍ كما كان. رأى فيونا ثَمَّ رغمَ عدم قُدرته على تبيُّن وجهها، ورأى ذراعَيها الطويلتَين وثوبَها ذاته الذي كانت ترتديهِ ليلتئذ. رآها تُخبرهُ ثانيةً بما سيقترفهُ في حقِّ والِدَيه. ألفى كلماتِها متجسّدةً في لوحةِ

الهواءِ الثّقيل، فرآها تخرجُ من فمِها وتدنو منه. كرّرت قولَها مرّات، وفي كُلّ مرّةٍ تقولُها بنبرةٍ أكثرَ حزمًا، فأحسَّ أنَّ مغزىً ما احتجَبَ عنهُ في كلماتِها: أنَّ معناها احتجَبَ عنه، فصارت مُبهمة. مدَّ كلتي يديهِ إليها، فقالَت – بصوتِ سارة: «مارغْت؟»

كانت سارة جالسةً، مُتدثّرةً بالألحفة، ترمُقه من خلال البُخار الصاعد من الكوب الذي كانت تشربُ منه. كانَ مترنّحًا، شاعِرًا بالحُجرة تنتظمُ من حولِه شيئًا فشيئًا.

– «أين غرِتِل؟».

– «حملتُها إلى السّطح لتنام. ستكونُ في خيرِ ما يُرام، فقد جرَّبَت النّوم على السّطح من قبل. حملتُها إلى هُناك لأنّي مُحتاجة إلى وقتٍ شيش».

نهضَ متصلّبًا لطولِ استلقائه على الأرضيّة الصلبة، وقال:

– «أعتذر. سأصعدُ إلى السّطح أنا أيضًا. سأجالِسُ غرِتِل قليلًا».

تجاهَلَت ما قال، وقالَت:

– «هل ترغبُ في شُرب الشاي؟».

لم يكُن واثقًا ما إذا أومأ إليها موافقًا أم لا، ولكنّها ناولتهُ كوبًا. أمكنَتهُ رؤية أنَّ كتِفَيها البارزَين من طرَفَي اللّحاف، كانا عارِيَين. كما ألفى عند قدميه ثيابَها موضوعة قَد خُلِعَت عنها. رفعَ كوبه، ولكنّهُ أخطأ فمه، فسفعَ الشاي المهروق يدَه. تناهت إلى سمعِهِ ضحكتُها الرّقيقة. فشَربَ –لخجلِهِ– بعضَ الشاي بسُرعةٍ، فسفَعَ لسانه.

– «أعتقد...»، قال.

– «ادنُ منّي».

تحرّكَت قدماهُ بلا إرادة، كأنَّ تيّارًا جرى من أسفل القارب فأزلَقَه. كانَ الظلامُ لا يزالُ مُرخيًا سدوله في الخارج. وكانت هيَ عاريةً تحتَ اللّحاف. ارتجفَت يداه إذ شرعَ يحُلّ أزرار قميصِهِ واحدًا واحدًا. أحسَّ بلحظةِ قلقٍ عَجلى أشبهَت –حسبما ظنَّ– إغفالَ درجَة سُلّم، فالتعثُّر. نزعَت عنَ قدميهِ الجَورَبين، فتساءل عمّا إذ كانَ حدوثُ الأمرِ على هذه الشاكلة أفضل. على

شاكلةِ كارثةٍ طبيعيّة، خارجة عن إرادة كُلّ أحد. فكَّر: (كانَ مُقدَّرًا لهذا الأمر أن يحدُث. ولأجلِهِ أتيتُ إلى هُنا. هذا ما أتيتُ لأفعله). ثُمَّ: أصابت موجة هلع معدته، وصارت تصعدُ صوبَ حلقِه. فكَّر: (لا.. لا!). أقبلَ إليهِ وجهُ فيونا من الحُلم -لونٌ غَبِشٌ رقيق- ومِن فمَها تخرُج تلكَ الكلمات الملعونة.

- «على رسلِكِ»، قال واضعًا يديهِ على كتِفَيها.

- «لا عليك».

ولمّا شرَعَت في حَلِّ أزرارِ سراويلِه، تذكَّرَ بغتةً ما احتجَبَ عنه، تذكَّرَ المكنون.

- «على رسلِكِ!».

أسكتَتهُ رافعةً إحدى يديها، ومُنزِلةً بالأخرى سراويله حتّى رُكبتيه. رغمَ أنَّ الجوّ في القاربِ كان باردًا، فقد كانت تسحُّ عرقًا. ألصقَت وجهها برُكبتَيه، وأخذَت نفسًا عميقًا. بدَت كأنّها اضطرَبَت، ووضعَت يدها على فمِها، ونظرَت إليه للحظة.

- «أريد...»، قال. ولكنّها سارَعَت إلى تجريدِه من قميصِه، وراحت تتحسّسه قارِصَةً بطنهُ بإصبعيها السبابة والإبهام. رأى نفسه على حقيقتِها، مثلما رأتهُ هيَ لحظتئذٍ على حقيقته لا محالة: بشريط الورق الحراريّ المعقودِ حولَ صدرِه، وبالشّعرِ الرّطب في إبطَيه. أمسكَت بأصابعِها طرفَ الشّريط الشفّاف، وراحَت تُرخيه حتّى نزعتهُ كُلّه. انهالَت بشفَتيها -كَيَدٍ رطبةٍ مُقبّبة- على حلَمَتِه تلتهِمُها. راودهُ ذلكَ الإحساسُ ثانيةً، كأنّهُ أغفلَ درجةَ سُلَّمٍ -عامِدًا- فهَوى. خلعَت عنه لباسهُ التحتيَّ قبلَ أن ينبِس. برزَت تحتهُ فوضى العانَة البنيّة، تلكَ الأجمة التي أحسَّ أنّها متّصلة بأطراف أصابعه وطرفِ لسانه وشبكةِ دماغه. التفَتَت عنهُ وراحت تتحسّسُ جسدَها، داسّةً يدًا بينَ ساقَيها، ومُداعبةً بأصابعِ الأخرى ثديَيها. ولمّا عادَت إليه، كانت بُركانًا ثائرًا: طرقَت رأسهُ بالجدارِ إذ دفعَتهُ أرضًا، وإحدى يديها عالقة بينَ جسدَيهِما، والهواءُ بينهُما غاصٌّ برائحةَ أنفاسِه. دسَّت رأسَها بينَ ساقَيه، فأحسَّ بغتةً ببرودةِ لسانِها الرّطب. أدركَ لحظتئذٍ أنّها عرفَت حقيقتَهُ منذ البداية. اختلَّت الحُجرةُ ومادَت وانكمَشَت حتّى أحسَّ بالسّقفِ والجُدرانِ تمسحُ على وجهه، وبالزوايا الرّطبة تقتحمُهُ مندفِعة.

الكوخ

كانَ علينا أن نبقى على النّهر، ولا نأتي إلى هُنا أبدًا. فأنتِ لم تُخلقي للمنازل. أنتِ أشبهُ بحيوانٍ في حديقةِ حيوانات. أشعُر بأنّي آذيتُكِ، من غيرِ قصد. كطفلٍ حملَ بيضةً ثُمَّ كسَرَها عَرَضًا. أتمنّى لو أعرفُ مخرجًا. مضى نحو شهرٍ مُذ جئتُ بكِ إلى هُنا على متنِ حافلةٍ، ولا أدري كيفَ لنا أن نعيش هكذا أكثر. أحاولُ أن أعِدَّ لكِ حمّامًا، فترتدّينَ بعيدًا زاحفةً صوبَ زاوية الحمّام، فتنتحبين.

– «لا بأس»، أقول.

– «بل ثمّت بأس»، تقولين، ثُمَّ تُردِفين: «تبًّا!».

– «حسنٌ».

– «خراء»، تقولين. «تغوُّط، هُراء، قضيب ذكريّ».

أضحَك، فتنظرين إليَّ مشدوهةً مثلما ينظُر الأطفال حينَ يرونَ شيئًا غريبًا لأوّل مرّة.

– «يا للهول!»، أقول.

ترمقينني متشبّثةً بثوبِ الحمّام ومُغطّية بهِ صدركِ النّحيل. آخُذُ نفَسًا وأقول:

– «أيتها العاهرة المنحرفة اللعينة!».

تندّ عنكِ ضحكة، أشبَه بصرخَة.

– «أيّها الفاشلون العاهرون المقزّزون المزيّفون»، أقول بصوتٍ عالٍ. وأنتظِر.

– «مومسات»، تقولين.

– «راهبات مخبولات، أبناء زنى».

– «مومسات».

- «حشفة قضيب، ومهبل».

- «رُهبان ضرّاطون»، تقولين.

نضحكُ ملءَ أشداقِنا فنعجزُ عن المتابعة. يُحنيكِ الضحكُ فيُجبركِ أن تضغطي على بطنِكِ بقبضتَيكِ. أُسقِطُ -عرَضًا- علبة شامبو من على حافّة الحوض، فيعلو صوتُ ضحِكِنا أكثر. أقِفُ وأنظُرُ إليكِ، فتكُفّين عن الضّحك وتُحدّقين إليّ.

- «لِمَ تضحكين؟ ما المُضحك؟»، تقولين. فتعتريني موجةُ غثيانٍ كدُوار بحر. حاولتُ أن أراكِ، ولكنّي رأيتُ شخصًا آخرَ يلبسُ وجهكِ. تندُّ عنكِ شَخرة.

- «أمزح معكِ»، تقولين وتضحكين ملءَ شدقيكِ حتّى تتحدّر دموعكِ. أطوّقكِ بذراعَيّ. أطوّقُكِ وأضمُّكِ متشبّثةً بكِ قدرَ استطاعتي.

في اليوم التالي تُخبرينني بأنّكِ تُريدين أن تُحدّثيني بخصوصِ الطّفلة التي هَجَرتِها.

- «لا بأس يا أمّي»، أقول. «أنا هُنا الآن».

- «لا أعنيكِ أنتِ!»، تقولينَ بغضب.

ترسمينَ في دفتركِ صورةَ قارب، ووجوهًا في نوافذَ مربّعة، ودربًا يمرُّ حذاءهُ كأنّهُ شارع. ترفعينها لتُريني إياها. في الدّربِ امرأةٌ مرسومة بعشوائيّة رافعةً ذراعَيها، تحمِلُ طفلةً رضيعةً أسطوانيّة الشّكل. أريدُ أن أجادِلَكِ. أن أقولَ لكِ إنّي غير راغبة في سماعِكِ ترويَنَ قصّتي، بل قصّة ماركُس، وقصّةَ بوناك. ولكنّكِ ظللتِ تحملينَ الرّسمةَ بقوّةٍ حتّى انثنى طرفاها. كُنتِ قد نحُلتِ، وبخاصّةٍ وجهكِ. أحاولُ أن أتذكَّرَ ما إذا كُنتُ أُشبِعُكِ أم لا. لا أتذكَّرُ آخرَ مرّةٍ أكلتُ فيها وجبةً جيّدةً أو شرِبتُ من سوى ماءِ الصّنبور، مُقبّبةً يديّ. تعلو وجهكِ قتامةٌ، وتتكوّرُ قبضتيكِ.

- «حسنٌ»، أقول. «حسنٌ. أخبريني بما تشائين».

- «حسنٌ؟».

- «حسنٌ».

سارة

أنتِ في الثالثة والثلاثين من عُمركِ. صار لديكِ مصدرا جَذبٍ جديدان، ومداران جديدان: طفلةٌ، وزوج. والكلمتان المحفورتان في قاموسِ عقلِكِ هُما: الصّبر، والإيثار. تُدخّنينَ عشرَ سجائر كلّ يوم، وتحلُمين ببُحيرات كبيرةٍ تتّسعُ لكواكِب.

عندما كانَ تشارلي والطّفلة نائِمَين، تسلّلتِ إلى الدّرب. لم تكُن ثمّت أنوارٌ، وكانَ الظلامُ لحافًا يُدثّر كُلّ شيء. مكثتِ في الخارج حتّى تمكّن منكِ البرد. تناهى إلى سمعِكِ من وراءِ جُدران القاربِ صوتُ تحرُّكِ الطّفلة وتقلُّبِها استعدادًا للاستيقاظ. كما تناهى إلى سمعِكِ صوتٌ آتٍ من بعيد، صوتُ شيءٍ ما يُخربشُ على الأرضِ مبعثرًا التراب. انحنيتِ إلى السياج. أتى الصوتُ من صوبِ الدّربِ صاعدًا إلى سطح القارب. ولمّا شرَعَت الطفلة بالبُكاء -لا بقوّةٍ بل بإصرار- استمعتِ إليها وكذلكَ فعلَ ذلكَ الشيء، رابضًا بسكونٍ في العَتَمة. وقفتِ ترتقبينهُ أن يُزلِقَ جسمَهُ السّميكَ من خلالِ فتحةِ المدخنة، فيدخُلَ إلى الحُجرة. كانت الطفلةُ في مهدِها عند سريركِ. سيشمُّها المخلوقُ، ويطويها في لحافِها، ويحملُها على مخالبِهِ بعيدًا. تمنّيتِ أن يحدُثَ ذلكَ قبلَ أن تتراجعي. فإنَّ البَوحَ بالأمنية أمرٌ خطير، والسّلامةُ في الصّمت. أبقيتِ الأمنيةَ مكنونةً في صدرِكِ، وفي كُلِّ يومٍ تلا تلكَ الليلةَ صِرتِ تقولينَ لنفسِكِ: «اليوم سأحِبُّها».

كانت الطّفلة في شهرِها العاشر، بيدَ أنّها -رغمَ محاولاتِ تشارلي- لم تُتقِن الزّحفَ بَعد. كانت تُفضّل الجلوسَ إلى الطاولة، تأكلُ الموزَ أو تتأمّلُ

كُتُب الصّور أو أحاجي القِطَع الخشبيّة التي ابتاعها تشارلي لها من المتاجر الخيريّة. كانت تجلسُ على مؤخّرتِها، أو تتدحرجُ على الجنبَين، مُحرّكةً رِجلَيها بلا غاية، ولا تلبثُ حتّى تسكُنَ ثانيةً، يعلوها الرّضا.

«صورَةُ ماذا هذه؟»، كانَ تشارلي يسألُها، فتنظرُ إليه كأنّما دهاها خطبٌ ما. «هيّا، تستطيعينَ معرفتها. قولي: با-با. قولي: قا-رِب. جرّبي: ما-ما»، فيلتفتانِ كليهِما إليكِ. «قولي: نَهـ-رْ. قولي: سِـ-با-حة».

في الصباحات، كانت تنفجر باكيةً حتّى توقظكِ، وكُنت دائمًا تستمعينَ إلى بكائِها لمدّةٍ طويلة من غيرِ أن تُحرّكي ساكنًا، مُنصتةً إلى انقطاعِ أنفاسِها من فرطِ البُكاء، وتراقبين يديها إذ تتكوّرانِ وتنبسطانِ في توتُّرٍ فوقَ رأسِها. حتّى يُنجدَها تشارلي فيحملَها بينَ ذراعيه، ويحشر رأسهُ في بطنِها الطريّ. ثُمَّ ينظرُ إليكِ، مؤنّبًا، وكذا تفعلُ هي. لم يكُن يفهم. لقد سُكِبَت محبّتُها في قلبِهِ من غيرِ عناء. أمّا أنتِ، فكانت كُلّما قبضَت على أحدِ أصابعِكِ وضغطَت عليه بقوّةٍ غريبةٍ، تساءَلتِ كيفَ ستقدرينَ على احتمالِ وجودِها يومًا؟.

مكثتُما، أنتِ وتشارلي، خمسة أشهُرٍ حتّى سمّيتُماها. هوَ انتقى لها أسماءَ طيورِ النّهر التي كانت سالبةُ لُبّه: بَلَشونة، دجاجة ماء، بطّوطة. أو أسماءَ أحبَّ وقعَها في الأُذن. فأسماها ‹شُش› لأسبوعٍ ظلّت فيهِ ترمُقُه بنظراتٍ غريبة. وذاتَ يومٍ أسماها ‹غْرِتِل›، فالتصقَ بها الاسم. ناديتِها بِهِ بهدوءٍ، كي تَرَي ما إذا كانَ الاسمَ المناسبَ لها، فرَمَقَتكِ عابِسَةَ الوجه.

***

كانَ المخلوقُ -الذي تمنّيتِ وجودهُ- على ظهرِ القارب. لم تكوني متيقّنةً من شكله وحجمه، بل متيقّنةً فقط من أنَّ لهُ رائحةً غريبة. كُنتِ أحيانًا، إذ تُجالسينَ طفلتكِ، تنظرينَ فتُلفينَها قد تصلّبَت وقد تحجّرَ كتفاها الصّغيران وشخَصَت عيناها إلى الفراغِ وراءكِ، إذ توشِكينَ على إطعامِها لُقمةً بالملعقة. أو كُنتِ -في الدّرب المحاذي للنّهر- تُلفينَها تتأمّلُ القارب مُبرِزَةً شفَتيها ومُشاكِسَةً مؤخّرتَها الرّطبة بيديها الصّغيرتَين في قلق، كأنّها قد شمّت رائحةَ المخلوق، أو أبصرَته.

وذاتَ مرّةٍ، ألفيتِها جالسةً على الأرضيّة خارج حُجرة النوم، تُدحرجُ الرّخاماتِ صوبَ الممرّ المُظلم، واحدة تلو الأخرى.

- «من أعطاها تلكَ الرّخامات؟ أنا لم أعطِها شيئًا».

- «باللّه عليكِ، كفاكِ!»، قالَ تشارلي رافعًا الطفلة إلى صدرِه مُلصِقًا وجههُ بوجنتَيها المُستديرَتين. «أنا أعطيتُها الرّخامات. فما الضّير في ذلك؟».

أردتِ أن تُخبريه بأنَّ الضّيرَ هوَ أنّكِ تمنّيتِ أمنيةً فتحقَّقَت. كنتِ متيقّنةً من ذلكَ من غيرِ تردّدٍ أو سؤال. بيدَ أنَّ تشارلي لم يرَهُ، فلَن يفهم. وفي المساء، جلسَ بجوارِكِ إلى الطاولةِ -مُتعَبًا- وقال إنَّ ذلكَ المخلوق هوَ بوناكُكِ، صنيعةُ خيالِكِ.

حدّقتِ إليه.

- «عمَّ تتحدّث؟»، قُلتِ في غضبٍ محتدمٍ تجاهه. فكيف لهُ أن يستهينَ بالأمرِ إلى هذا الحدّ؟.

- «إنّهُ خوفُكِ. ذلكَ المخلوقُ أيًا كان. هوَ ليسَ حقيقيًّا، وليس موجودًا حقًّا. إنّهُ محضُ سخافة، شعوَذَة، ظِلّ. محضُ بوناك».

لم تصدّقيه، ولكنّكِ أومأتِ برأسِكِ موافقة، وأخذتِ يده في يدِكِ. كانت تلكَ أوّل مرّةٍ تلمسينه فيها منذ أسابيع.

- «معكَ حقّ. نعم، معكَ حقّ»، قُلتِ ضاحكةً على سخافةِ الاسم. «بوناك! فعلًا، هوَ ليسَ أكثر من ذاك».

أذِنتِ لهُ أن يأخذكِ إلى حُجرةِ النوم، أن يسحبكِ إلى مدارِهِ ثانيةً، كي يدورَ أحدُكُما حولَ الآخر.

ذات ليلةٍ، جفاكِ النّوم بسببِ صخبِ القطار. ولمّا حملتِ الطفلة ووضعتِها على وركِكِ، جلسَت من غيرِ اعتراض. حملتِها وخرجتِ بِها من القارب صوبَ الدّرب الذي كان ليلتئذٍ متجمّدًا. أحسستِ بضيقٍ يعتملُ فيكِ، بحجارةٍ وصخور، حتّى لَتغرقينَ إن أنتِ سقطتِ في النّهر. كانَ القمرُ في طورِ التّربيع، وضوءهُ كافيًا لرؤيةِ المصانع والتلّة المُفضية

إلى البلدة، ووجهِها الصّغيرِ إذ تحدّق إليكِ. «لا تقلقي»، قُلتِ شاعِرةً بها تثقُلُ مع كُلّ خطوة.

في نهاية الدّربِ، بُعيدَ الجسر، ألفيتِ صِبيةً قد سرقوا سلّة قُمامة وتركوها مقلوبةً رأسًا على عقب. رفَعتِ بقايا القُمامة من على الأرض بيديكِ، وأخبرتِها أن ترفعَ ذراعَيها، فألصقتِها كلّها على البُلوزة التي ابتعتِها لها. نظرَت إليكِ من خلال فراغاتِ أصابعها مثلما كانَ تشارلي يفعلُ في أثناءِ لعِبه.

– «لا تقلقي»، قُلتِ ووضعتِها في السلّة، وقشّرتِ لها بُرتقالةً وناولتِها إياها، وأخبرتِها بلُغزَينِ من ألغازِ تشارلي حتّى نامَت.

تركتِها، وعُدتِ إلى الدّرب فألفيتِهِ أشدَّ ظُلمةً مما كان، فلم تقدري على رؤيةِ المصانع ولا الماء ولا المنازل المتشابهة. ظللتِ تمشينَ حتّى بدأ الضوءُ ينسكبُ من فوقِ الأسطُح المربّعة، على الماءِ المُزيَّت، من خلالِ جسورِ سكّة الحديد. ظللتِ تمشين وتمشين، حتّى جاوَزتِ البلدة، وظللتِ تمشينَ حتّى اكتسَت قدماكِ بالبثور. عادَ إدراكُكِ الذّنبَ الذي اقترفتِهِ ليغمرَكِ في اليومينِ التاليين. لم تتصوّري نفسكِ من صنفِ الناس القادرين على اقترافِ ذنبٍ كذلك. تذكَّرتِ يديها الصّغيرتين، ووجهها إذ تعلوهُ الجدّية لحظةَ تُغرِقُ في التّفكير، وقدَميها السّمينتين إذ ترفعهُما إلى صدرِها. لقد هَجَرتِها. تخلَّيتِ عن ابنتِكِ.

كانَ العامُ 1983، وكانَ ثمَّتَ رجُلانِ قد أمضيا مئتينِ وأحدَ عشرَ يومًا في الفضاء، وهيَ أطول مدّةٍ قضاها بشرٌ خارجَ الغلاف الجوّي. كنتِ تفهمينَ إحساسهُما هُناك. كُنتِ قد استأجرتِ حُجرةً أخرى، وصرتِ تعملينَ ليومينِ كُلّ أسبوعٍ في بقّالة، تملئينَ أكياسَ التسوّق للزّبائن. وتُخبرينَ نفسكِ وكُلّ من يسألُكِ بأنّكِ لا تفتقدينهُ البتّة، ذلكَ البحّارُ خشن اليدين الذي علّمكِ التّدخينَ والطّبخ. لم تفتقديه. لم تفتقديهِ حتّى أحسستِ بقلبِكِ قد طفحَ بألمِ فقدِه.

تفاجأتِ –بعد كُلّ ما حدث– بأنّكِ لم تعودي مُحِبّةً لليابسة. أقلقتكِ

اليابسة: بصلابةِ خرسانتِها وأعمدة الأسيجة، والأرصفة ومرائِب السيّارات. كما صرتِ تحسّينَ بتوجّسٍ تجاه السلالِم والأقبية والممرّات. فتستيقظين في منتصف الليل، متعرّقةً، شاعِرةً بالحُجرةِ تهتزُّ فوقَ تيّار نهرٍ لا وجودَ له، وبقدمَيكِ تكادانِ تتجمّدان لفرطِ برودةِ نسيمِ النّهر. ثُمَّ ألفيتِ نفسكِ تتجوّلينَ في باحات المراكِب، مُشتهيةً تلكَ القوارب البرّاقة ذات المطابخ البديعة، والأفران رباعيّة الأبواب، والأسِرّة الوثيرة. لم تكوني قادرةً على احتمال تكلفة أيٍّ منها، ولا تعرفينَ أحدًا يُمكنهُ ذلك. ولكنّكِ، بقليلٍ من العَون، قد تتمكّنينَ من ابتياع القارب الرثّ المُلقى في مؤخّرة الباحة قبلَ أن يُنقلَ إلى ساحة الخُردة.

قُدتِ قاربكِ ذاكَ بعيدًا حتّى احترقَ محرّكه. راقَت لكِ البُقعة التي رسوتِ فيها. فكانَ النّهرُ يتدفّق فيها بسُرعةٍ حامِلًا رُكامًا جلستِ تُراقبينَه إذ يُقبل على دفعات. رأيتِ ثمَّ بُقعة موحلة فقرّرتِ زرعَها بالخضراوات – رغمَ أنّكِ لم تفعلي. ورأيتِ أشجارًا على مقرُبة. ولم يكُن في المكانِ سواكِ.

لا بُدَّ أن رجُلًا آخرَ أقبلَ ذاتَ يوم. بحّارًا مرَّ، في طريقِهِ إلى مكانٍ آخر، فمكثَ ليلةً وضاجعَكِ. لم يُهمّكِ التعرف إليه. فأنتِ لم تكترِثي بذلكَ قطّ، فلم تُفسحي له مجالًا كي يكترِث. هكذا، أتى رجُلٌ ورحَل، وبعدَ مدّةٍ، ولِدتُ أنا. هكذا فحسب.

حينَ أدركتِ أنّكِ حبلى، كانَ أوانُ الإجهاضِ قد فات. فظللتِ تُمضينَ كُلّ ليلةٍ مستيقظةً تفكّرينَ بما ستفعلينَهُ حينَ تضعينَ حملكِ، وكيفَ ستتصرّفين وقد فشِلتِ في ذات المهمّة من قبل. كانَ حملُكِ هذا، حسبما اعتقدتِ، عقوبةً. اعتقدتِ أنَّ الاصطلاء بنارِ الجحيم قد صارَ قدَرَكِ كُلّ يومٍ، إلى الأبد، من غيرِ أملٍ بأن تتحرّري يومًا.

وُلِدتُ في الرّبيع. وإنّي أرى ذلكَ الرّبيع مشابِهًا لكُلّ ربيعٍ أمضيته في ذلك المكان. فكانت الليالي باردةً، ولكن قصيرة، والأرض حبلى بفُرصٍ شتّى، واحتمالات. كُنتِ تطبخينَ رافعةً كُمّيكِ. وتهتفينَ باسمي فيرتدُّ إلى أعوامٍ خلَت، مؤلِمًا أذُنَيَّ، مخضوبًا بدمٍ جديد. اسمٌ مستعمل، لن ينفكَّ يُذكّرُكِ بسوايَ. غْرِتِل. سمّيتِني غْرِتِل.

ربَطتِني إلى صـدرِكِ، ورفعتِ شعركِ في وشاحِكِ ورُحتِ تفرُكينَ بُقعَ التُّرابِ والطين عن ظهرِ القارب حتّى صارت يداكِ خشِنتَين كجذوع الصّنوبرات القريبات من الضفّة. لم تمتنعي عن محاولةِ إصلاحِ المحرّك، ولكن أصلحتِ الأبوابَ المكسّرة وكُوّة السّقف عِوَضَ ذلك. لم يكُن ثمّتَ أحدٌ سوانا أنا وأنتِ. لم أكُن شبيهةً بالطّفلة المُضَيَّعة. وكُنتِ كُلّ يومٍ تَرين ذلك. كُنتُ أشيرُ إلى كُلّ ما أرى. «شجرة»، قُلت. «شجرة. قارب. ماء». وبدأت أركضُ فورَ تعلُّمي المَشي. وأحببتُ الكلامَ وكتاب الكلمات. كما قرأت كُلّ كتابٍ جلبتِهِ لي. ولمّا عثرت على لوح سْكرابِل، جلستُ لساعات طويلةٍ أرتّبُ القِطَعَ مُنشئةً كلماتٍ أطولَ وأطول. أعطيتِني مجموعةَ أسلاك كي ألعب بها، ولمّا نظرتِ ألفيتِني قد صنعتُ منها بِدَعًا عجيبة، جرسَ هواءٍ يشدو إذا مسّهُ النّسيم.

كُنتِ، أحيانًا، تفكّرين في تلكَ الطفلة المنسيّة. وتعُدّينَ أعيادَ ميلادها. مُحاولةً إبقاءَها في ذاكرتِكِ: بشكلِها وحركاتِها. إلّا أنَّ الأمرَ أضحى، بمرورِ الساعات، شاقًّا. فقد كانت تلكَ الطّفلةُ آخذةً بالابتعاد شيئًا فشيئًا، حتّى استيقظتِ ذاتَ صباحٍ فألفيتِ نفسكِ غيرَ قادرة على تذكُّر ملامح وجهها. مرَّت الأيام، وانسلخَت الأعوام، والذّاكرةُ قد ألِفَت النّسيان، فلَم تَذَر سِوى ما هوَ ضروريّ. وقفتِ على السّطح، تلُفّينَ سيجارةً ثُمَّ تضعينها في فمِكِ من غيرِ أن تُشعليها. كانَ الشّتاءُ قد حلَّ مجدّدًا، والنّهرُ قد ارتفعَ واضطرَب.

النَّهر

تناوبَ كُلٌّ مِن سارة وغْرِتِل وماركُس على المراقبة. صَعُب عليهِم عدمُ رؤيةِ بوناك مُعتليًا كُلّ غصنِ شجرةٍ يمرُّ محمولًا على التيّار، أو في الماء المتدفّق من الحاجِزِ أو الماءِ المُتلاطِم بجوانِبِ القارب. كانَ مُقبلًا يشقُّ طريقهُ خلالَ المياهِ الضّحلة، مُقتحِمًا الأجماتِ الكثيفة، مُتسلّقًا الأماكن الصّخريّة. كانَ مقبلًا، حسبَ اعتقاد ماركُس، كذِكرى كادَت تروحُ طيَّ النسيان. كأمرٍ كانَ عليهِم أن يعرفوه. فكَّرَ في يدي سارة، بخطوطِها، وحُمرتِها التي أحدثَها الماءُ الحارّ، وبجِلدِهِ كيفَ استحالَ أبيضَ تحتَ وطأةِ أصابعِها. وفكَّرَ في أبوَيه اللّذين كانا -رغم جهلهِ بهذا الأمرِ- لا يزالان يبحثان عنه، مُستبدلانِ بالإعلاناتِ التي أصابَها المطرُ إعلاناتٍ جديدة، وقد جفاهُما النّوم. وفكَّر فيما أخبرتهُ بِهِ فيونا. ولمّا حانَ دورُ سارة، نامَ مُفترشًا كومة الألحفة. فتسلّلَ بوناك إلى حُلمه، وكانَ جامِدًا بالكادِ يتحرّك، وسارة تمتطي ظهره مُلصِقةً رُكبتَيها العاريَتين ببعضِهما. ولمّا صارَ الماءُ ضحلًا ولم يعُد مناسبًا للسباحة، أوثقَتهُ إلى عُنُقِها، وتقدَّمَت سائرةً فوقَ الصّخور. كانَ فمُهُ مُشرَعًا، وفي داخلِهِ حقيقةٌ مكنونةٌ لم يعرِفها بعد، حقيقةٌ كانَ عليهِ أن يُدرِكَها. حشَرَ يديهِ في فمِ المخلوق، فأغلَقَ ذاكَ فكَّيهِ كَفَخٍّ على مِعصَميه.

ظلَّ يغفو في أثناءِ دورِ مراقبتِه، وحينَ يصحو يذرعُ القاربَ جيئةً وذهابًا كي لا تخطفهُ يدُ الوسن مجدّدًا، لاطمًا خدّيهِ حتّى آلَمَهُ وجهه، وعاضًّا لسانَه. عمَّ الضبابُ المكان. ودخلَ ماركُس القاربَ بحثًا عن بعض الخُبز، فتوقّفَت

الأمُّ وابنتُها عن الكلام. نظرا إليه كأنّهُ غريب. تناولَ الخبزَ في عُجالةٍ، وجلسَ على السّطحِ البارد. اختفى الألمُ بينَ ساقَيه كأنّهُ لم يكُن. وبدا الدّمُ المتدفّق في عروقِهِ بطيئًا، بالكادِ يصِلُ إلى أطرافِه. راقبَ إذ بدأ النّورُ يسطع. وتخيَّلَ ما سيفعلُهُ حينَ يصطادونَ بوناك، وإلى أينَ سيذهب. ستكونُ هُناكَ رحلةٌ أخرى، مسيرةٌ طويلةٌ أخرى. لم يخَل أنّهُ يُمانعُ ذلك.

صدَرَ من صوب المصيدةِ هديرٌ، هوَ صوتُ إغلاقِ بابِها. انتظرَ صعودَ سارة من داخل القارب، ولكنّها لم تصعَد - خالَها لم تسمعِ الصّوت، وربّما كانت نائمة، هيَ وابنتها معًا. لم يُرِدها أن تأتي. بل أرادَها أن تكونَ في مأمن. دنا من مقدّمةِ السّطح، مُحاولًا رؤيةَ ما في المصيدة، بيدَ أنّهُ لم يستطع. ترجَّلَ من القاربِ إلى القناةِ الخشبيّة الممتدّة عند أطرافِ النّهر. لم يُمانِع خوضَ النّهر، ولا السّباحةَ إلى الضفّة ليرى ما في المصيدة. لم يُمانع القيام بذلكَ كي يُريحها من عناءِ القيامِ بالمهمّة، لم يُمانع فِعلها لأنّهُ هَجَرَ أبوَيه ولم يعُد متيقّنًا من أنّهُ فعلَ الصّواب. صارَ على مقربةٍ من الماء، فأحسَّ ببردِهِ القارس قد سرى فيهِ كنبضٍ إضافيٍّ يسري في كاحِلَيه. خاضَ النّهر. أنزَلَ رأسهُ في الماء، فامتلأ فمُهُ به. وسرعانَ ما أضاعَ دربَ الصعودِ إلى الهواء، إلى الدّرب الذي أتى منه. ولمّا صعَدَ أخيرًا، كانَ التيار قد حمَلهُ مسافةً بعيدة، فلَم تعُد المصيدةُ أمامه، بل صارت خلفَه.

صارَ يضربُ بجسدِهِ ضدَّ التيار، وساقُهُ المُصابة لا تسعفُه البتّة. أحيانًا، أحسَّ بشيءٍ يمرُّ حذاءه، ولكنّهُ كانَ في كُلِّ مرّةٍ مُجرّدَ ورقِ شجرٍ، أو زبدٍ، أو كيسٍ بلاستيكيّ. كانَ الماءُ متجمّدًا. دنا منهُ غصنُ شجرة، وكادَ يجرفُه. ثُمَّ دنا منهُ آخر -أشبَهَ بوناك شكلا- فغاصَ ماركُس في الماءِ مُرتعِدًا. أحسَّ الماءَ في فمِهِ لهُ طعمُ الوحلِ والزّيت، طعم الخميرة. ألفى فيونا ثَمَّ معه، بخصلاتِ شعرِها الطّويلِ. أمكنَها التحكُّم بالطّقس، وخبزُ كيكٍ لا يستسيغُ أحدٌ أكلَه، وإبصارُ الغيبِ قبلِ وقوعه. كانت مستلقيةً في قعرِ النّهر، تشربُ من مائِهِ حتّى أنضبَته. «ستقتُلُ أباك»، قالَت له بعدما أخذَت نفسًا عميقًا. «وستُضاجِعُ أمّك».

صعدَ إلى الهواء، مضطربًا. ألفى الضفّة قد صارت أقربَ، وأحسَّ بالأرضِ تحتَهُ قد دنت أيضًا. لذلكَ رحَلَ، ولم يجِد سوى الرّحيل مهربًا.

رحَل كي لا يُحقِّقَ نبوءةَ فيونا. أحسَّ بيديهِ قد ثقُلَتا حتّى لم يعُد قادرًا على إغلاقِهما. ثَقُلتا كأنّهُما تحتمِلانِ جُثّة الرّجُل المَيْت، قبل أن تُلقيا بهِ في الماء، وكأنّهُما تُطوّقانِ وجهَ سارة وقدمَيها اللّتينِ رفعَهُما.

كانَ الجوُّ أبردَ خارجَ الماء من داخلِه. وكانت ثيابُهُ مثقلةً بالبلل. وعلى اليابسةِ أظهَرَ الضّبابُ الصّنوبرات بلا جذوع. وكانت الصّخور مُزلِقَةً عند الضفّة، كما خدشَ القصبُ السّميكُ وجنتَهُ فرأى ماءَ النّهر وهوَ لا يزالُ خائضًا فيه قد استحالَ –للحظةٍ– أحمرَ. كانَ يُمكن لِغرِتِل أن تُخبرَهُ بالكلمة المناسبة لوصفِ اكتشافِ الحقيقةِ بعدَ فوات الأوان. ولكن، لحظتئذٍ، لم يُركّز في سوى ضرورةِ خلعِهِ نعليهِ قبلَ الخروجِ إلى اليابسة. نزعَ أحدهُما، فانسابَ الماءُ منه شلالًا. أمكنَهُ الإحساسُ بكُلّ عَصَبٍ في فكّه مُتوتّرًا كحبلٍ مشدودٍ بينَ شجرتين إذ أدركَ أمرًا: أنّهُ قتلَ تشارلي، وضاجَعَ سارة!.

مشى عبرَ الضفّةِ صوبَ المصيدة. كانَت منصوبةً على مقربةٍ من الماء، وهوَ أقبلَ إليها من ورائِها. اصطكّت أسنانهُ في فمِه. كانَ الجوُّ هادئًا، فتساءلَ عمّا إذا كانَ قد أخطأ التقدير. دنا على أطرافِهِ الأربعة، فصارَ على مقربةٍ من المصيدة، وقد احتجبَ ما فيها بسببِ العُشب الكثيف الذي كانوا قد كسوها به. سمِع شيئًا يُنادي من وراءِ الأشجار. أزاحَ كومةَ الأجمات، متوقّعًا أن يرى ذلكَ المخلوق. وسيكونُ –لا محالةَ– أكبرَ ممّا تخيَّل، وسيسهُل عليهِ تحطيم المصيدة كلّها والانقضاض عليه.

غيرَ أنّهُ لم يجِد في المصيدة شيئًا. وكانَ بابُها قد انغلَقَ من تلقائه. اقتربَ وألصقَ جسدَهُ بالباب يُريدُ أن يرفَعه إلى مكانِه كي يُعيدَ كُلّ شيءٍ إلى نصابه. كانَ النّهرُ يجري بهدوءٍ خلفَه، والطّينُ طريًّا حتّى غاصَت قدماهُ فيه. دفعَ بقوّةٍ البابَ إلى الأعلى بذراعيه، فأحسَّ بهِ يرتفعُ شيئًا.

تناهى إلى سمعهِ صوتٌ آتٍ من صوبِ القارب. ولمّا نظرَ رأى القارب يوشكُ أن يُبحرَ صوبَه مُستعينًا بالتّيار، وانتبهَ إلى عُقَدِ الحبال المعقودة إلى الضفّةِ قريبًا من قدَميه. اعتلَت سارة سطحَ القارب وراحَت تُشاهده. لم يتبيّن وجهها، ولكنَّ جسدَها برزَ مُلتمِعًا كشفرةِ سيف في الظلام.

انزلقَ طرفُ الباب من بينِ يديه، وانغلقَ بقوّةٍ ثانيةً. همَّ برفعِه مجدّدًا،

مُحاوِلًا الالتفات ليرى سارة بشكلٍ أوضح، وربّما ليقولَ لها شيئًا. ماذا عساهُ يقول؟ جرى النّهرُ أمامهُ سريعًا وحُرًّا. وكانت الضفّة غيرَ مستوية، مُزدانةً بفجواتٍ عدّة. تكتّل الطينُ عند قدميه، فتعثّر، وسقطَ في الماء. سقطَ بعُنفٍ في النّهرِ الدّافِق.

التقطَهُ التيّارُ بسُرعةٍ وحملَهُ نزولًا، بعيدًا عن الضفّة والمصيدة. أحسَّ بمذاقِ الماءِ يُشبهُ مذاقَها: إذ حشرَت أصابعَها في فمِهِ حتّى البراجِم. أغمضَ عينيه، ولكنّهُ لحظةَ فتحهما لم يجِد اختلافًا. ظلَّ يركُلُ في الماء، مُحاوِلًا الصّعود إلى الهواء. انتظرَها أن تأتي لنجدتِه، فقد رأتهُ حينَ سقط. ستهُبُّ لنجدتهِ لا محالة، وستُلصِقُ شفتيها الباردَتين بشفتيهِ الباردَتين، وستُحيي رئتيهِ بأنفاسٍ من رئتيها. ستُنقذهُ لأنّها.. أمُّه. ضربَ بساقٍ واحدةٍ، مندفعًا إلى أعلى.. كادَ يصِل. إلّا أنّهُ حينَ ظنَّ أنّهُ وصل، ألفى مزيدًا من الماء. انسلَّ الهواءُ من رئتيهِ في فُقاعاتٍ إلى الماء، وانقطَع. جحظَت عيناهُ، تنظران علّهُما تريانِ جسدَها قد اخترقَ الماءَ كأنّهُ نجمٌ تفجَّر. أقبلَ الحُطامُ الذي حملهُ النّهرُ لأميالٍ مع التيّار، فالتصقَ بجسدِهِ وجرفَه معه. وأقبلَ حُطامٌ أكثر مُرتطِمًا بوجهِهِ بقوّةٍ أكبر، فأحسَّ بألمٍ عظيمٍ في عينيه قبلَ أن يُسكِتَهُ البرد. ألفى الظلامَ مُطَمئِنًا. تحسّسَهُ بيديه، فلَم يجِدها. انتظرَها، فلَم تأتِ. أنزلَهُ النّهرُ إلى القاع.

التقطَهُ التيّارُ بسُرعةٍ بينَ ذراعَيه، وحملهُ بعيدًا عن بُقعةِ الصّنوبرات. كانَ ذلكَ النّهرُ يُدعى إيزيس، وكانَ قد سرقَ أجسادًا كثيرةً من قبل، على طولِ الدّربِ حتّى التّمز، بل وحتّى البَحر. كانَت السّماءُ تسكُبُ ثلجًا ناعمًا ومطرًا غزيرًا. وظلَّ الماءُ يحملهُ منطلقًا بسُرعةٍ، يُقلّبُه، فتارةً يُلقيهِ على بطنِه، وتارةً أخرى على ظهرِه مُواجِهًا سطحَ الماءِ المتلألئ بالنّور. هكذا، حملَهُ عبرَ المُدُن، ثُمَّ علِقَت جثّتهُ عند جذوعِ بعضِ الشّجر قُربَ اليابسة، ثُمَّ استأنفَت رحلتَها. ربّما يجِدُهُ أحدٌ ما. بحّارٌ يجلسُ منتظرًا صيدًا يعلَقُ بخطّافِ صنّارته، أو مسافرٌ متوقّفٌ على جسرٍ هادئٍ ليُدخّن سيجارة. ربّما يجِدهُ ذلكَ الشّخص فيُخرجُه من الماء ويُهاتِف الشُّرطة، فيُهاتفونَ بدَورهِم –أخيرًا– روجَر ولاورا اللّذَينِ سيكونان بانتظارِ تلكَ المكالمة وسيذهبانِ إلى ذات

المشرحة التي ذهبتُ أنا إليها مرّةً لأتعرّفَ على جثّتِكِ. وربّما يُغيّرُ عثورهُم عليه حياتهُما، أو لا يُغيّرُ منها شيئًا.

إلّا أنَّ أحدًا لم يعثُر عليه. حملَهُ النّهرُ إلى أبعدِ بُقعةٍ، ودفنَهُ فيها.

المُطاردة

على النّهر، جلستُ معكِ بجوارِ النار.

– «إنّي جائعة»، قُلتِ.

ضايقَتني ذِكرى. تسلّلَت ذِكرى الغداء مع فيونا إلى شاشةِ دماغي، كغريبٍ تسلّلَ إلى نافذةِ مطبخٍ وراحَ يدقّ عليها.

– «هل سمِعتِني؟ إنّي جائعة!».

– «سنذهبُ قريبًا»، قُلت. «هل تودّين ذلك؟ لديَّ كوخٌ على تلّة. أخالُه سيروق لكِ».

نظرتِ إليَّ كأنّي مجنونة.

– «لا يُمكننا أن نتركَه»، قُلتِ. «لا يُمكننا أن نتركَهُ هُنا وحده».

تركتُكِ بجوارِ النار، ورُحت لأتمشّى بينَ الأشجار. أمكنني شمُّ رائحةِ الطعام الصينيّ، وسماعُ صوتِ قرقعةِ شوكةِ فيونا إذ تخدشُ بها قاعَ الطّبق، وصوتِ الطاهي إذ يُجادلُ أحدًا ما على الهاتف. لمّا دَنَت من خاتمة القصّة، تريّثَت فيونا قليلًا، وأرجَعَت ظهرَها إلى الوراء وأراحَت مِعصَمَيها على ضلوعِها، وحدّقَت إليّ، وقالَت: «من الأفضل أن يُتركَ للموت هُنا». ولكنّي اكتفيتُ بالجلوسِ والتريّث حتّى هزَّت بكَتِفَيها، وانحنَت إلى الأمام، وشرَعَت بإخباري بِما حدثَ ليلةَ عيدِ ميلادِ روجر، وعَن رائحة الشّموع التي لم تفُح إذ ثبّتَتها على كيكتِها، وعَن أصابع سپرِنغ رُلز التي وصَلَت ولم تكُن مقرمشة. عن احتساءِ الحاضرينَ الخمرَ حتّى السُّكر، وقناني النّبيذ الفارغة في سلّة القُمامة، وبعض الجُبن المقطّع بتهوُّرٍ من القالبِ في الثلاجة. «رأيتُ مارغُت عند المَغسَل، مُديرةً ظهرها إلى الحُجرة. كانت ترتدي قفّازَي غسل

أطباق أصفَرين، وشعرُها الطويلُ معقودٌ ومرفوعٌ عن وجهِها الوَدودِ الرّقيق. كانت عيناها تُشبِه عيناكِ». لا ريبَ في ذلك. لا عجبَ في أن تُشبَهَ عيناها عيناي. شرَعَت فيونا بالحديثِ ومارغُت مُديرة ظهرها، قالَت: «ستقتُلينَ أباكِ، وستُضاجِعينَ أمَّكِ».

أقعَيتُ في وسطِ الغابة، ودفَنتُ يديَّ في شوكِ الصّنوبر. أحسستُ بلساني ثقيلًا في فمي، ولمّا هَممتُ بأن أهتفَ باسمِكِ، لم يصدُر منّي صوت. أحسستُ بالكلماتِ تنزلِقُ مُبتعدةً عنّي، مثلما انزلَقَت مبتعدةً عنكِ. أمكَنَتني رؤية مارغُت في مطبخ المنزل، تنظرُ من فوقِ كتِفِ فيونا إليّ. كانت شبحًا. أحسستُ بيديها المَيتَين على وجهي وذراعَيّ. لقد صدَّقَت بأنَّ لاورا وروجَر هُما أبواها الحقيقيّان، وما هَجَرتهُما إلّا لتحميهِما منها. أحسستُ بحرِّ أنفاسِها في فمي، وبقبضتها تتحرّكُ في راحةِ يدي. إلّا أنّهُما لم يكونا أبوَيها الحقيقيَّين. أرَحتُ رأسي أرضًا. أمكَنني سماعُكِ تُثرثرينَ عند النار، وتصمتينَ بينَ الفينة والأخرى كأنّكِ تُنصتين، وتضحكينَ أحيانًا بطريقةٍ لم أعهَدها منكِ. تراجَعَت الدّوخةُ التي اعترَتني كصفحةِ ضبابٍ مُستوية. وفاحَت الأرضُ بعبقِ الرّطوبة، برائحةٍ كأنّها فِطرٌ عَطِن. وبينما أنا باسطةٌ راحَتَيّ على الأرضِ، أحسستُ -متيقّنةً- بطبقةِ الحشراتِ والجذور الممتدّة في الأسفل. اعتدلتُ جالِسة. من مكاني ألفيتُكِ صامتة. توجَّبَ أن أعيدكِ معي إلى الكوخ، حيثُ الطعامُ والماءُ والفِراش. توجَّبَ عليَّ أن أقرِّرَ ما سأفعلهُ بكِ، وما سأفعلهُ بنفسي. نهضتُ واقفةً، والتفتّ. ألفيتُ ثمَّ -بينَ الصّنوبرات- طيفَ مخلوقٍ واقف. رفعتُ يدي كي أحجِبَ شعاع الشّمس عن عينيّ، فأقبلَ ذاكَ يعدُو صوبي على الفور، دافِعًا الأرضَ بقدميهِ السّميتَين ورافعًا رأسهُ مُشرَئِبَّ العُنُق وضارِبًا بذيلِهِ يمنةً ويَسرَة. تقهقرتُ في ذهولٍ، فوقعتُ أرضًا. أقبلَ بسُرعةٍ، فأدركتُ أنّهُ يُريد قَتلي وإبقاءكِ برفقتِهِ على النّهر. ثُمَّ إذا بكِ تبرُزينَ من العَدَم أمامي، ملوّحةً بالمجرفةِ فوقَ رأسِكِ، هاتفةً بنداءٍ يُشبه نداءَ الحرب، ومُنهالةً عليه ضربًا حتّى قامَ بوناك -لأنّهُ بوناك- بتفادي الضّربة في اللحظة الأخيرة وفَرَّ مبتعدًا عبرَ الأشجار. عدَوتِ في أثَرِه، واختفيتِ عن ناظِرَيّ.

عدَوتُ في أثَرِكِ. بدا الجوُّ باردًا -مثلما كانَ شتاءئذ- والأرضُ صُلبةً تحتَ نعلَيّ. خِلتُني رأيتُ ماركُس يتنقّلُ بينَ الأشجار. فقدتُكِ. ظللتُ أعدو حتّى انتهيتُ إلى سياج الأجمات، ووراءهُ سكّة حديدٍ مغروزة في التربة، فعُدتُ أدراجي. لم أجِدكِ هُناك. لم أفهم كيفَ أمكَنَكِ العَدو بتلك السُّرعة. ذهبتُ ثانيةً صوبَ الأشجار. هتفتُ وهتَفت. خِلتُني سمعتُ صدى جواب. كانت الصّنوبرات مُرجِعاتِ صدى، وكذا كانت الأرض. سمِعتُ النّهرَ قبلَ أن أراه. وكُنتِ أنتِ عنده، منحنيةً، مُديرةً ظهركِ إليّ. وكانت الأرضُ حولكِ موحِلةً والماءُ باهتَ اللون. أحسستُ بقدمَيَّ قد بدأتا تتحرّكانِ تحتي. وألفيتُ المِجرفة التي سبقَ واستعملتُها في كسرِ القَفل موضوعةً حذاءكِ، وشفرتُها مضرّجةً بالدّم. صارَ النّهرُ ملاذًا آمنًا للمرّة الأولى منذ عقود. تخيّلتُ أنَّ المخلوقَ لم يُقاوِمكِ، كأنّهُ -بعدَ كُلّ هذا الوقت- قد عرفَكِ وصارَ من أهلِكِ. وتخيّلتُ أنّكِ فعلتِها من أجلي. دَنَوتُ من الضفّة. كنتِ قد شَرَعتِ في سلخِه وفصلِ حراشفِهِ القاسية عن لحمِه. كانت ساقاهُ قصيرَتين وقويّتين، ولهما مخالِب، وفمُهُ طويلًا وغاصًّا بالأسنان، وذيلُهُ غائصًا تحتَ صفحة الماء، وسائرُ جسدِهِ سميكًا حتّى بطنِه، فكانَ شاحِبًا كقالبِ زُبدة. كُنتِ حاشِرةً كلتَي ذراعَيكِ في جوفِ بوناك. حدّقتُ إليكِ فرأيتُكِ، ولوهلةٍ، قد صِرتِ هو. كأنّكِ كُنتِ هوَ منذ البداية.

استغرقتُ مدّةً طويلةً في الحَفر. كانت ذراعايَ نحيلَتينِ بسببِ عملي المكتبيّ، فراحَ قلبي ينبضُ بجنون. فرَغتِ من سلخِه، ودنَوتِ من الماء لتغسلي لحمَهُ وتفرُكيه مثلما اعتدتِ أن تفعلي بالذّبائح التي كُنا نُخرِجُها من قاربِ الجزّارة. حينَ جئتُ أقطّعُه، ألفيتُ فيهِ أعضاءً ودمًا ولحمًا صلبًا حتّى لم تخترقهُ السكّين إلّا بشقّ النّفس. أنهيتُ الحَفْر. بدأ الظلامُ يُرخي سدوله كما كانَ يفعلُ في أثناءِ الصيف، بالتّدريج، كأنّما يتسلّل. نادى طائرُ سمّاكٍ، فأجبتِ نداءَه. أشعلتُ نارًا، حتّى صعَدَت ألسنتُها صوبَ السّماء. وجدتُ في الغابةِ كُلّ ما أحتاجُ إليه، كأنّها كانت منتظرةً قدومي هذا. فاقَتني النارُ طولًا. أقبلتِ، وجلستِ بجوارِها، مادّةً يديكِ كي تدفّئيهما. كُنتِ قد وضعتِ حراشِفَ بوناك على كتِفَيكِ، وفمَهُ على رأسِكِ، وطوّقتِ جسدكِ بأطرافِه.

بدَوتِ مخلوقًا هَجينًا: برُكبَتيكِ الناتئَتين، وشعرِكِ الأشيَب كصُوفٍ غريبٍ تحتَ فكَّي بوناكَ المُشرَعَين. قطعتُ شرائحَ من لحمِ الذّبيحةِ، ووضعتُها في أسياخ، ورفعتُها على النارِ لتُشوى. تناوَبنا على حملِ أعضاءِ الذّبيحةِ، ووَزنِها تعلو وجهَينا ذات الدّهشة التي كانت تعلوهُما حينَ كُنّا نقرأ في الموسوعة. ألفَينا الدماغَ صغيرًا، مُزرَقًّا، والرّئتَينِ ضخمتَين، والكَبِدَ أكبرَ حجمًا من القلب، بيدَ أنَّ القلبَ كانَ صُلبًا بحيثُ لم أتمكّن من ثَقبِهِ بالسّيخ، فألقيتهُ في الرّمادِ وسطَ النار المُضطرمة.

التهمناهُ بأيدينا. ذكَّرَني ذلكَ بالمأدُبات التي كُنّا نقيمُها على ظهرِ القارب، حينَ كانت تزورُنا الجزّارة أو يُلقي إلينا أحدُ المارّة بطعامٍ جديد: قرعٍ أو فُليفلة، خُبزٍ أو جُبن. ذكَّرَني بالغداءِ مع فيونا، حينَ التهمنا مختلِفَ الأطباق حدَّ التُّخمة كي تبوحَ بمكنونِ صدرِها. كانَ تناولُ الطّعامِ مُنطويًا على ابتهاج، واعتذارٍ، وصَفح. وقد كانَ لِلَحمِ المخلوقِ مذاقٌ عجيب، يُشبه مذاقَ السّمكِ الذي كُنّا نأكلهُ من النّهر. سحَّ دمُهُ –بينما ألتهِمُ لحمَهُ– نزولًا على مِعصَمَيّ. وهبطَ الليل. حثثتُ النّارَ على الاضطرام، وغرزتُ في القلبِ المُلقى عصًا مدبّبةً، وانتزَعتُه من جوفِ اللّهَب.

(8)

عَودًا على بَدء

الكوخ

هيئتُكِ المُستريحةُ في الكُرسيّ، ورأسُكِ المُستريحُ إلى الوراء، وذراعاكِ المُستريحانِ على المَسنَدين. والمطرُ المُنسكبُ بغزارةٍ في الخارجِ ناقرًا على النوافذ ومُغرِقًا الحقول. تأبينَ أن تأكُلي سِوى البُرتقال، فأقشّرهُ لكِ أكوامًا. وحينَ أجلبُ لكِ أكواب ماءٍ، تُهرقينَها على الأرضيّة. يصدُرُ صوتُ ماركُس من فمِكِ، أو صوتي. أراكِ تسيرينَ في دربٍ حذاءَ نهرٍ، حاملةً طفلةً –ليست أنا– على ذراعَيكِ، تحمِلُ اسمي. ومن خلالِ زُجاجِ بابِ القارب أرى جُثثًا مكوّمٌ بعضُها إلى بعضٍ كالعُملات النقديّة. وأُلفي أرضيّة حُجرة الجلوس قد صارَت قاسيةً كالنّهر، وتحتَ صفحتِها أرى جُثثًا، جثّتي أو جُثّة ماركُس، تتلوّى بفِعل التيّار الذي يحملُها بعيدًا.

يعتملُ غضبٌ عارمٌ فيَّ تجاهكِ حتّى ليكادُ يُعميني. أشتعلُ غضبًا بينما تجلسينَ بهدوءٍ، أو تشتعلينَ معي غضبًا، صافقةً بابَ المطبخ، ومُوقِعةً الأغراضَ عن الطاولة. أفكّرُ في كُلّ الوسائل التي يُمكنني مُعاقبتُكِ بها: منعكِ من الطعام، حِرمانُكِ من النّوم، طردُكِ من البيت. حينَ تبكين، تُطوّقينَ عُنُقي بذراعَيكِ وتتشبّثين. هذه ليست أنتِ. ليسَت تلكَ المرأة التي اقترفَت كُلّ تلكَ الآثام. بيدَ أنّكِ تتذكّرينَ اللغةَ التي صنَعَت منكِ تلكَ المرأة. تُلصقينَ وجهكِ المتغضّنَ بوجهي، متشبّثةً بثيابي كي تُقرّبيني إليكِ. حينَ تُصفّقينَ بيديكِ أرى كُوّة سقفِ القارب قد انبثقَت من بينِهما، ساكبةً النّورَ في حُجرة الجلوسِ المُعتِمة.

في بعضِ الصباحات يعتريني بردُ اليقينِ بأنَّ عقوبتكِ الشافية لا بُدَّ أن تكونَ من صنفِ العقوبات العتيقة: كالرّجمِ أو فقءِ العينين أو تركِكِ في غابةٍ نهبَ

الذّئاب. تُخبرينني بأنّكِ لم تكوني تعرفين الحقيقة، فنلوذُ بالصّمت ونتساءلُ عمّا إذا كانت أيُّنا تُصدّق ذلكَ حقًّا. أعودُ مرارًا وتكرارًا إلى فِكرةِ أنَّ اللّغة التي تُعشّشُ في عَقلَينا هيَ من حدّدَت أفكارَنا وأفعالنا. أنْ لم يكُن بالإمكان غيرُ الذي كان. الأفأفة، وقتُ شيش، هاربيدودل، طافيات، مسمسة، بوناك. بوناك، بوناك، بوناك. كلماتٌ كفُتات خُبز. كأنَّ بوناك، في نهاية المطاف، لم يكُن ما نخشاه، ما كانَ مكنونًا في بطنِ النّهر، بل كانَ محضَ نداءِ تحذير: انتبهوا، هذا ما قد يفعلهُ النّهر بكُم.

مضى شهرٌ مُذ أعدتُكِ معي إلى هُنا. وقد وصلنا إلى مرحلةِ جمودٍ، فلم تعُد إحدانا تُكلّم الأخرى. صِرنا ندورُ حولَ بعضِنا في حلقاتٍ جامدةٍ من المُلكيّة الصّارمة: حُجرة الجلوس لكِ، وحُجرة النّوم والمطبخ لي، والحمّامُ لكِ أيضًا. فالكلامَ يعني أنّنا سنُضطرُّ لمناقشة الأمر، وإنَّ كلانا غيرُ راغبةٍ في ذلك. في مناقشةِ ما فعلتِ. وما حدثَ حينَ أنجبتِ مارغُت. صِرتُ أُعِدُّ أصابع السّمك وأتركُها بجانبِ كُرسيِّكِ حينَ تكونينَ في الحمّام. فمرّةً، أُلفي لوحَ شيكولاته على وسادتِكِ، كُنتِ قد التهمتِ نصفَه. ومرّةً ألفيكِ قد كسَّرتِ الصّحونَ في الخزائن، فأخرُجُ في المطرِ وأركبُ الحافلة إلى البلدةِ لأبتاعَ غيرَها من المتاجِر، وأقفُ مستظلّةً بأبوابِ المحالّ ريثما تمرُّ موجةُ الانهمار الغزير. أجِدُ نفسي في البقّالة التي دخلناها مرّةً. أجِدُني واثقةً من أنّني حينَ أعودُ إلى البيت ستكونينَ قد رحلتِ، ولا أجِدُني واثقةً من طبيعةِ إحساسي لحظتئذ. غيرَ أنّكِ لم ترحلي. فإلى أينَ عساكِ ستذهبين؟ أُعِدُّ لكِ العشاء. نسيتِ شجارَنا، ورُحتِ تتحسّسين شعري ويديّ، وتقولينَ إنّكِ تُحبين المطر. «أتحبّينه أنت أيضًا؟»، تسألينني.

في اليومِ التالي أرى الكلمات قد بدأت تتسرّبُ من فمِكِ: الضّمائر في جُمَلِكِ متقلّقلةٌ لا تُصيبُ ثباتًا، كما تبدئينَ بالمفاعيلِ ثُمَّ تظلّين تُشيرين وتهتفين حتّى أجلبَ لكِ ما تريدين. أمّا الأسماء، فلا أسماء. أحيانًا، تتحدّثين عن الأطفال الذين أنجبتِهم، ولكن حينَ أسألكِ عن أسمائهم لا تُجيبين (غيرَ قادرة، أو غير راغبة). نتسلّى بألعابٍ تافهة كي نملأ وقتنا، فأراكِ قد صببتِ كُلّ تركيزِكِ عليها حتّى لتؤلِمُني مشاهدتُكِ على تلكَ الحال. «شمال أم يمين؟ فوق أم تحت؟ ماذا يُدعى هذا؟ ما الوقت الآن؟ في أيِّ عام نحن؟». أنتظرُ أن

يفرغَ عقلُكِ من تلك القصص. من الأفضلِ لهُ أن يَنسى، ولها أن تُنسى. كُلّ ما قصصتِهِ عليّ. بيدَ أنّ القصص تبقى، مُنسكبةً منكِ مُجدّدًا كُلّ حين، بينما تضعينَ يدكِ على فمِكِ كي تمنعي انسكابَها. صارَ البيتُ غاصًّا بكُلّ ما مضى. فانطبعَ وجهُ ماركُس على نوافذِهِ المُغطّاة بالمطرِ، وعلى المرآةِ التي أقفُ أمامها منظّفةً أسناني، ووقفَ منتصبًا بجوارِكِ وأنتِ جالسة في الكُرسيّ. كما أنَّ بوناك باتَ هُنا أيضًا، يُصدرُ ضجيجًا في الحُجرات فوقَنا، ثُمَّ يسترخي في حوضِ الاستحمام. بينَ الفينةِ والأخرى، تصيرُ عيناهُ عينَيكِ أو تنمو لهُ ساقانِ طويلتانِ بدلَ الذّيل. وبينَ الفينة والأخرى يُغطّيه فَروٌ بدلَ الحراشف، أو يمشي منتصبًا، أو يستحيلُ إلى ظلّ، أو يختفي. كما أنَّ النّهرَ قد تفجّرَ هُنا أيضًا، وصارَ يجري في زوايا حُجرة الجلوس مُزعِجًا ألواحَ الأرضيّة، ونمَت الأشجارُ مادّةً جذورَها حولنا. كما نسمعُ -في أثناءِ الليلِ- صوتَ القطار. وثمَّتَ قوارب مستوية الأسطُح تحومُ في الأرجاء، ورجُلٌ يَبري شرَكًا كبيرًا ليصطادَ بهِ ما نخشاه. أيًّا كانَ ذاكَ الذي نخشاه.

– «كلا»، أقولُ لكِ حينَ تهمّين بالحديث. «لا يتوجّبُ عليكِ البَوح بمَكنونٍ بعد الآن».

بيدَ أنَّ البَوح فِعلٌ لا إراديٌّ، ولا يُوقفُ تدفّقَهُ حتّى دَسِّي لحبوبٍ منوّمةٍ في كوبِ شايِكِ، أو مُحاولتي إلهاءكِ بأفلامٍ قديمة على حاسوبي المحمول، أو تحدّثي إليكِ بخصوصِ تاريخِ المُعجَميّات، أو نثري لقطعِ أحجية خشبيّة كي تُجمّعيها. ينفتِحُ فمُكِ، فلا تتوقّفينَ عن البوح مرارًا وتكرارًا.

حينَ أنزلُ من الطابق العلويّ، في اليوم التالي، أجدُكِ قد نزعتِ قابس الثلاجة، وأفرَغتِ الجمّادة مما فيها، وأفرغتِ الأكياسَ المُجمّدةَ من محتوياتِها ونثرتِها على الأرضيّة. في البدء أظلُّ هادئة. أطلِقُ لعبةً أن نجمعَ ما نثَرتِهِ على الأرضيّة معًا من أصابع سمكٍ ونقانق نباتيّة وقِطَع سپرِنغ رُلز وكُرات سبانِخ. أخبركِ بأنّنا سنُقيمُ وليمةٍ كالأيام الخوالي، فتبتسمين، وتتبعينني حينَ أذهبُ لأشغّلَ الفُرن، وتُساعدينني في بَسطِ أوراقِ القصدير. تأخُذُني بساطة الأمر، فأقولُ لكِ إنّنا سنخبز كيكة. أدنو من الخزائن كي

أخرجَ منها المكوّنات، وحينَ ألتفتُ أجدُكِ قد وضعتِ كلتي ذراعَيكِ في الفُرن المُلتهِب. أصرُخُ فتقهقرينَ صوبي وقد احمرَّت يداكِ وغصَّت بالبثور حولَ براجِمِكِ. أجُرُّكِ إلى المَغسَل وأديرُ محبس الماء البارد. لا تنبسين.

‹ماذا تفعلين؟ كيفَ تفكّرين؟›، أنتبِهُ إلى أنّي أصرُخ بصوتٍ هادر قابضةً على ذراعَيكِ المسفوعَتَينِ بيديّ، وإلى أنّكِ تُحدّقين إليَّ فاغرة الفَم. أُفلِتُكِ، فتفرّينَ إلى حُجرة الجلوس. أطفئ الفُرن وأصعدُ إلى الطابق العلويّ وأستلقي على السّرير، مُستمعةً إلى نقرِ المطر على النافذة، مُغمضةً عينيّ. ولمّا أعودُ إلى الطابق السفليّ، أجِدُكِ قد نسيتِ ما حدث، وتقفينَ عند مكتبي مُحدّقةً في بطاقات الأبجديّة كأنّكِ توشِكينَ على إنجاز مهمّةٍ ما. أجِدُ مرهَمَ حروقٍ في خزانةِ الحمّام، فأضعُ منه على حروقِكِ. تُشاهدينني بتركيزٍ مُفرِط دفَعَني إلى أن أسعل قليلًا، وأحدّثَكِ بلا غايةٍ سِوى أن ألهيكِ.

– «هل فعلتُ أنا ذلكَ بنفسي؟»، تقولين.

– «نعم، ولكن لا بأس».

بعدَ حادثة الفُرن، وقعت حوادث أخرى آذَيتِ فيها نفسكِ. كانت بادئ الأمر –أو بدَت– عرَضيَّة، ومحضَ آثارٍ لكونِكِ عليلة. نكأتِ حروقَكِ القديمة حتّى نزَّ منها الدّم، وحاولتِ إعدادَ حوضِ الاستحمام فنسيتِ أن تُديري محبس الماء البارد أيضًا، وغفلتِ عن بضع درجاتٍ في آخر السلَّم فتعثّرتِ وأضرَرتِ برُكبتيكِ، كما كرَّرت حادثة الفُرن مرّات.

– «ماذا تفعلين؟».

– «أتأكّدُ ما إذا كان الفُرن ساخنًا كما ينبغي».

– «كفّي عن ذلكَ أرجوكِ!».

صارَ لديكِ شغفٌ غريبٌ بالسّكاكين في دُرج المطبخ، وبحوافِّ الطاولات الحادّة، وبمقابس الكهرباء والحمّاصة. ملأتُ القبو بكُلّ غرضٍ خلتُ فيه خطرًا عليكِ، فرُحتِ تبحثينَ عنها مثلما كُنت تبحثينَ عن النّبيذ قديمًا. لا تعرفينَ أسماءَ الأغراض، بيدَ أنّكِ تعرفين أيّها تُريدين، فتُثرثرينَ متشبّثةً بي، تكادينَ تتميّزينَ غيظًا. ثُمَّ أضربتِ عن الطعام.

لم أفهم الأمرَ على حقيقتِهِ حتّى ذهبتُ مرّةً إلى الحمّام، ولمّا عُدتُ إلى الأسفلِ رأيتُكِ واضعةً رأسَكِ في مغسلةٍ ملأتِها بماءٍ باردٍ، وعلى صفحةِ الماء فقاعات هواءٍ، وأنتِ متشبّثة بطرفَي الحوض كي تُبقي رأسكِ في الماء. هرعتُ إليكِ وانتشلتُكِ.

– «ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟».

لم تُجيبي، بل حدّقتِ إليَّ مُتجهّمةً. عقدتُ منشفةً حولَ رأسِكِ، وفركتُ شعركِ بقوّةٍ أكبر من اللازم حتّى جفَّ شعرُكِ واحمرَّت عيناكِ بينما لا تزالانِ تُحدّقان إليّ.

– «أريد...»، تقولين بوضوحٍ لم أعهدهُ منكِ منذ أيّام. «أريدُ أن أنسى كُلّ شيءٍ الآن».

أجمعُ حبوبَ الدّواء من خزانة المطبخ، والمُبيّض من تحتِ المَغسَل، وأعواد الثقاب، وشفرات الحلاقة، والمقصّات، والزّجاج. وأقطعُ الكهرباءَ والماء. لم يكُن للقبو قَفلٌ، فاصطحبتُكِ معي إذ حملتُ كُلّ شيءٍ وأودَعتُهُ برميلَ النفايات في آخر الدّرب. رفضتِ ارتداءَ البُلوزة الثّقيلة، فلطمَ المطرُ وجهكِ وأغرقَ شعرَكِ. لم أدرِ –من طريقةِ نظرِكِ إليَّ– ما إذا كُنتِ تُدركينَ ما أفعلهُ أم لا.

– «ستنسينَ على أيةِ حال»، أقولُ لكِ. رغمَ أنّي لستُ متيقّنةً من أنّكِ ستنسينَ تلكَ القصص. اسمي واسمكِ، وأسماء أغراضِ البيت، والأرقام، وأيام الأسبوع، والنور والظلام، والليل والنهار: كُلُّها أشياء نسيتِها، أو يبدو بينَ الفينةِ والأخرى أنّكِ نسيتِها. ولكنَّ قصّةَ مارغْت والرّجلِ الذي كانَ أباها، وقصّة بوناك ومِن أينَ أتى.. تلكَ قصصٌ لن تنسيها أبدًا، ولو للحظةٍ واحدة.

نسيرُ عائِدتين صعودًا التلّة. لطّخ الوحلُ ظهرَ سيقاننا. احتضنتُ يدكِ في يدي، فأذِنتِ لي – بصَمت.

أيّامُ الرّعب. أمسكتُكِ أعلى السلالِم تهمّين بإلقاءِ نفسِكِ من إحدى

النوافذ. منعتُكِ عن جزّ مِعصَمَيكِ بأداةٍ حادّةٍ وجدتِها. ثمّت برودٌ في تعاطيكِ مع رغبةِ الموت. سكينةٌ عجيبةٌ تُرعِبُني أكثرَ من سواها. تبدينَ نافدة الصّبر في كُلّ مرّةٍ أنقذُكِ فيها. تُنادينني باسمي، وتدعينني أمنعُكِ بلا مقاومة. تبدينَ منطويةً على معرفةٍ أكثرَ ممّا تُظهرين، مُدرِكةً أينَ أنتِ وكيفَ وصلتِ إلى هُنا. تُخبرينني بشذراتٍ من الماضي مرارًا وتكرارًا، كأنّها أصداء. «كفاكِ!»، أقولُ لكِ، بيدَ أنّكِ لا تقدرين على التوقّف. لم أعُد أنام، لأنّكِ تنتظرينني أن أفعل، فتعتلينَ السلالِم وتُحاوِلينَ فتحَ النّوافذ لتقفزي منها. أفكّرُ في مهاتفةِ أحدٍ ما، ولكنّي أمتنعُ لشعوري بأنَّ في ذلكَ خيانةً لكِ. فإنّكِ -لو كُنتِ مكاني- لن تُهاتفي أحدًا ليُبعِدَني. أربِطُكِ إليَّ بحبل. أُرغِمُكِ على الأكل. فتتذمّرينَ باكيةً ثُمَّ تصمتين. تنسكبُ الكلماتُ من فمِكِ. تتحدّثينَ بعباراتٍ تبدو دخيلةً عليكِ، مُثقلةً بالمعاني. تقولينَ إنّكِ نُقطة بِداية كُلّ ما حدث. تقولينَ إنَّ دمكِ هوَ جَذرُ كُلّ شيء، وإنّكِ راغبة في النسيان. فلا أدري بِمَ أجيبُكِ.

يشتدُّ المطر غزارةً. ويفيضُ الدّربُ أسفلَ التلّة بالماء، ولمّا أرفع سمّاعة الهاتف أجِدُ الخطّ قد انقطع. ننظرُ من النافذة فنجِدُ أنَّ الجدوَلَ قد استحالَ إلى سَيل دافقٍ فوقَ الأرضِ الموحِلة، عميقٍ -ربّما- كذلكَ النّهر العتيقَ الذي وجدتُكِ عنده. يعتريكِ غثيانٌ بسببِ طعامٍ أكلتِه. أُبعِدُ شعركِ الخفيفَ عن وجهِكِ الرّطب. يتناهى إلى سمعَينا خريرُ الماءِ على التلّة وسطحِ البيت. نغفو على الأرضيّة. أحلُمُ بأنّكِ رحَلتِ، وأنّي في بيتٍ مختلِف، فيهِ أناسٌ آخرون وجوههم رماديّةٌ ولامعةٌ كجلدِ الفقمة، فلا أستطيع تبيُّنها. لم أكُن قد وجدتُكِ في الحُلم، ولم أكُن أعرفُكِ أصلًا، وكُنتُ يتيمةَ الأمِّ ببساطة. في الحُلمِ كُنتُ لا أعرف سوى المُعتاد من أمور الحياة العاديّة: كيفيّة غسل الأطباق، أو كوي الثياب، وكيفيّة قيادة السيارات وإرسال رسالة بريديّة، وكُنتُ أنامُ الليالي بسلامٍ، وأخرجُ لتناول الفطور في عُطلِ نهاية الأسبوع، أو أقودُ سيّارتي أو أتنزّه. وكانَ في الحُلمِ كلبٌ يُشبِهُ أوتو، قادرٌ على حبسِ أنفاسِهِ تحت الماء.

***

غططتُ في النّوم وتركتُكِ وشأنكِ. ألفيتُ باب الحمّام مُشرَعًا. صرختُ مناديةً عليكِ. لم أجِدكِ. هتفتُ باسمِكِ، مُدركةً ما حدث. تنقّلتُ بينَ الحُجرات عَدْوًا. هاتفتُ طالبةً سيّارة إسعاف رغمَ أنّي لم أعثر عليكِ بعد. دللتهُم على العنوان ووضعتُ السمّاعة. صرختُ وبحثتُ ولكن لم أجِدكِ. هرعتُ إلى الخارج عَدْوًا. كانَ المطرُ قد تراجَع، وكانت ثمّت خيوطُ شمسٍ مستريحة على البِرَكِ وواجهة البيت المتّسِخة، وعلى وجهِكِ أيضًا. كُنتِ قد أخذتِ غطاءَ سريرِكِ وشنقتِ نفسكِ بهِ من النافذة.

قطعتُ حبلَ مشنقتِكِ، وأنزلتُكِ. أتلَفَكِ الموتُ فصيّركِ ملساءَ كصخرة. تحسّستُ بيديّ وجهكِ، وقمّة رأسكِ، وكاحليكِ، وكتفَيكِ، ومِعصميك. وددتُ -بينما أنا جالسةٌ ثَمّ متشبّثة بجثّتِكِ- أن أقول شيئًا. أن أختمَ القصّة. أن أنهي ما بدأناه. ولكن، رغمَ أنّي بقيتُ جالسةً بجوارِكِ لمدّة طويلة، لم أنبس بكلمة. لاحِقًا، سأنهضُ وأُشرِعُ أبوابَ البيتِ ونوافذه كي أجفّفه مِمّا أصابَه.

الكوخ

تؤوبُ إلينا مساقط رؤوسِنا. متنكِّرَةً بِزيٍّ كلماتٍ، أو نسيانٍ، أو كوابيس. هيَ استيقاظُنا -أحيانًا- شاعِرينَ بثِقَلٍ على صدورِنا كأنَّ حيوانًا ما جاثمٌ عليها، أو رؤيتُنا لشخصٍ -خِلنا يدَ الموتِ طوتهُ- واقفًا في ضوءِ مصباحِ السّرير يُحدّقُ إلينا. حلَّ الشتاءُ مجدّدًا. في الصّباحات، تتسبّبُ حرارةُ الجوِّ بقعقعةٍ وجلجلة، ويتشكّلُ الصقيعُ على الجهةِ الخطأ من النوافذ. أُلفي الجدولَ -حينَ أذهبُ إليه- قد تجمَّد. ومحطّات الإذاعة غاصّةٌ بأنباءِ حوادث السّير، ومواعيد القطارات المؤجّلة. في هذا العام، أفتقِدُ الأشتيةَ على النّهر. أفتقِدُ الصّمت. أفتقِدُ عدمَ وجودِ أحدٍ في المكانِ سواي. لا أفتأ أنتظِرُ أوبتَكِ. فإن كان ثمَّت شبحٌ قد يسكُنني فسيكونُ شبحَكِ. ولكنَّ البيتَ ساكِن، وإن كُنتِ فيهِ فإنّكِ لا تنبسين. تبدو لي فِكرةُ أنَّ ثمَّت أشتِية عديدة ستأتي في قابل الأعوامِ فِكرةً غير معقولة. فإنّكِ الآنَ مَيْتة، ولم تأخذي معكِ عقدًا من الآلام، ومُستنقعًا من سوءِ التواصل، وأعياد ميلادٍ مُفَوَّتة، وشبابي كُلّه، وثديًا مُستأصلًا لم أشهَد استئصالَه، ومارغُت وكُلّ ما جرى لها فحسب. بل أخذتِ أكثرَ من ذلكَ بكثير. إنّي أفكِّرُ غالبًا بكُلِّ الموتى الذين يحيَون في الماء.

أُدرِكُ أنَّ عليَّ تجاوزَ الأمر، والمُضيّ قُدُمًا. أعودُ إلى مقرِّ عملي، وأستأنفُ العمل في مكتبي. وأخرُجُ لاحتساءِ الشّراب مع زُملائي المُعجميِّين في حانةٍ تُدعى 'الثعلب وكلبُ الصّيد'. أتمنّى لو كانَ كلبي حاضِرًا. أفكِّرُ في تبنّي كلب. ولكن لا أفعل. ثمَّت أيامٌ جيّدةٌ أمامي أكثر من السيّئة. لن أطلبَ أكثرَ من ذلك.. بَعد. أتذكَّرُ -في الأيّام السيّئة- كيفَ أنَّ كُلّ شيءٍ كانَ مكنونًا في بطنِ النّهر: الجُزء السفليّ من هَويسِ القناة تحتَ الزَّبَد، وأكوام الجذورِ

وبعض الشّجر. وأُدرِكُ أنَّ النّهرَ، في أعلاهُ، يضيقُ كعُنُقِ زجاجة، وأنَّ هُنالكَ زبدًا مُصفَرًّا على امتدادِ الضّفاف وبَلَشونًا يقِفُ مُعتليًا السدَّ -إذ تتلاطمهُ الأمواج- كأنّما ينتظرُ شيئًا ما[24].

24- أُتِيَ على ذكر طائر البَلَشون أو مالِك الحزين - Heron في مواضع عديدة من هذه الرواية، والآنَ في جُملتِها الختاميّة. والجديرُ بالذّكر أنَّ لهذا الطائر دلالة مهمّة، ولوجودِه معانٍ شتّى. فهُو رسولُ الآلهةِ حسب الأساطير الإغريقيّة، يدلُّ على الرعاية والمُراقبة الإلهية. كما يدُلُّ وجودُه على الحِكمة والصّبر، والفأل الحسن، والخَلق الجديد. فلربّما كانَ استذكارُ غْرِتِل لهُ في أيّامِها العصيبةِ السيّئةِ إشارةً إلى أنَّ المُقبِلَ حسَنٌ ولا يخلو من خَيرٍ رغمَ كُلِّ ما حدث.

المحتويات


تليجرام
مكتبة
غواص في بحر الكتب
محمد خطاب